روايات تاريخ الإسلام

عبد الرحمن الناصر

جرجي زيدان

تقديم ودراسة

د. سيد حامد النساج



١٩٨٤

ـر من مؤسسة
ـار الهلال
ـا جورجي زيدان
ـسنة ١٨٩٢
• • •
ـيس مجلس الإدارة
ـكرم محمد أحمد

ـوف بريشة
الفنان
ـحماد

رواية عبد الرحمن الناصر ، واحدة من روايات جورجي زيدان ، التي حرص على ان يصف كلا منها بانها من « روايات تاريخ الاسلام » . هي – اذن – حلقة في سلسلة متصلة الحلقات . ومن ثم فان لنا أن نتوقع ان يكون منهجه في التناول ، وموقفه من احداث التاريخ ، وتقديمه للشخصيات ، واسلوبه في العرض ، متفقا – الى حد ما – والخطوط العامة الرئيسية التي دارت في فلكها ، والتزمت بها ، رواياته الاخرى . لذلك فان دراسة اية رواية من روايات هذا الكاتب ، لا تتم بصورة مكتملة الا في ضوء معرفة كاملة واحاطة شاملة بجميع رواياته .

ومما يلفت النظر ان المراجع التي يعتمد عليها جورجي زيدان لا تتغير الا نادرا جدا . فهي ثابتة في كل رواية من رواياته ، وان اختلفت المرحلة التاريخية ، وان تباينت البيئة الجغرافية : مصر او الاندلس او دمشق او الجزيرة العربية ، قبل الاسلام وبعده . انها لا تخرج عن الكتب الآتية : الاغاني ، وتاريخ ابن خلدون ، وتاريخ المقريزي ، وتاريخ الطبري ، وتاريخ المسعودي ، والعقد الفريد ، ونفح الطيب ، وتاريخ ابن الاثير ، ومعجم ياقوت . وقلما مايضيف بعض كتابات المستشرقين . ونادرا ما نصادف دراسات اجتماعية او اقتصادية ، او فكرية او بيئية او دينية .

وليس ثمة مايدعو الى هذا الثبت الثابت للمراجع . وبخاصة انه قد لا يعتمد عليه كثيرا في روايته هذه . كما انها لا تمت بصلة الى موضوعه ، ومرحلته التاريخية ، والبيئة التي تدور فيها الاحداث . بالاضافة الى انه – كفنان مبدع مبتكر – غير ملزم بما يلتزم به المؤرخ .

ففى هذه الرواية ــ على سبيل المثال ــ لا نجد احداثا تاريخية بالمعنى المعروف للتاريخ . والكاتب نفسه لم يعتمد من كتب التاريخ على كتاب نزعم انه مصدر أصيل أو مرجع موثوق فيه . وان كان قد ذكر انه رجع الى احد عشر مرجعا ، فانا نلاحظ انه لم يشر الا الى ((نفح الطيب)) الجزء السابع ، و ((المقرى)) الجزء الاول ، و ((طبقات الاطباء)) الجزء الاول ، و ((الامالى)) الجزء الاول . وذلك فى مسائل ثانوية عادية بسيطة لا علاقة لها بالتاريخ ، وفى اربعة هوامش على وجه الخصوص . ولم يكن ثمة مايدعو الى ذكر هذه المراجع ، ولا الى تلك الهوامش ، ولا الى قائمة المصادر التى شغلنا بها فى صدر الرواية .

يرتبط بهذا من قريب أن الرواية التى بين ايدينا ليس من الدقة وصفها بانها ((رواية تاريخية)) ، وان ادعى مؤلفها ذلك . ففى هذا الوصف تجاوز وابتعاد عن الحقيقة الموضوعية . ولعل جورجى زيدان نفسه قد ادرك هذا حين قدم للرواية معرفا اياها بانها : ((تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها وعادات اهلها فى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموى من سنة ٣٠٠ ــ ٣٥٠ هـ وما بلغت اليه دولته من المنعة والسيادة ، وما بناه من القصور الفخمة ، وكيف كان يحتفل باستقبال وفود ملوك اوربا بالهدايا ، وما كان من خروج ابنه عبد الله يطلب ولاية العهد لنفسه دون اخيه الحكم)) . فى هذا التعريف معظم الحق . اللهم الا القول بان الرواية صورت خروج الامير عبد الله على والده الخليفة عبد الرحمن الناصر طالبا ولاية العهد لنفسه دون اخيه الحكم . لان ذلك كان امرا هامشيا جدا ، ولم يتخذ شكل ((الحدث)) الفعلى الخطير المدمر . كما ان الكاتب لم يحتفل به كحدث روائى او درامى . فلم يزد الامر على ان يكون مطلبا ساذجا فى بضع كلمات . ونحن نقول ذلك حتى لايتصور القارىء ان الصراع على الحكم هو الموضوع الذى تدور حوله الرواية ، إذ هو القضية التى شغل الكاتب بها . او ان نعمة السياسة والتيارات السياسية كانت واردة فى ذهن المؤلف . فلو أن الكاتب لم يضف الجملة الاخيرة فى تعريفه الرواية لاقترب من الحق اقترابا شديدا .

واذا كان ثبت المراجع ملمحا أساسيا من الملامح التى يلتزم جورجى زيدان بتحديدها فى صدارة كل رواية من رواياته ، فان مما يهتم به ايضا ، تحديد اسماء شخصيات الرواية ، وتعريف القارىء بهوية كل منها ، وبدوره . وكانه يقدم عملا مسرحيا دراميا .

ويلاحظ ان الشخصيات الرئيسية ــ فى كل رواية ــ يتراوح عددها بين عشر شخصيات واثنتى عشرة شخصية . ومن بين هذه الشخصيات لابد أن تتواجد شخصيتان نسويتان على الاقل ــ ولا يزيد عددها على اربع شخصيات نسائية . فابطال هذه الرواية هم : ((عبد الرحمن الناصر ــ الزهراء ــ الحكم ــ عبدالله ــ ابن عبد البر الكسيلفى ــ سعيد ــ ياسر ــ ساهر ــ عابدة ــ سالم)) . والبطولة النسائية للزهراء وعابدة .

وفى رواية ((فتاة غسان)) نجد هند وسعدى . وفى رواية ((ارمانوسة المصرية)) نجد ارمانوسة وبربارة . وفى رواية ((الامين والمامون)) توجد احدى عشرة شخصية رئيسية منها اربع شخصيات نسائية . وكذلك الحال فى رواية ((جهاد المحبين)) فان بها احدى عشرة شخصية محورية ، منها اربع شخصيات نسائية .

هذا لا يعنى عدم وجود شخصيات ثانوية تلعب احيانا بعض الادوار غير الهامة فى نظر الكاتب . مع انها ــ دراميا ــ قد تكون ضرورية . لكنه لا يذكرها من بين شخصيات رواياته .

والكاتب يتعامل مع شخصياته من الخارج . بمعنى انه لا يلجا الى التحليل النفسى لنوازعها ، ورغباتها ، وغرائزها . ولا يفسر

سلوكها الظاهر فى ضوء معرفة معمقة بما يصطرع فى داخل كل شخصية . وانما يعنى بالوصف الخارجى ، وتحديد الملامح ، والزى ، واللون ، والطول ، وما شابه ذلك !

وفى هذه الرواية كانت الفرصة متاحة للتوسل باسلوب آخر . فان الشخصيات تصطرع فى أعماق كل عوامل شتى من الصراع النفسى الداخلى . يكشف عنه ذلك الصراع الخارجى بين الامير عبد الله واخيه الحكم ولى العهد ، وابيهما الخليفة عبد الرحمن الناصر ، حول حب الجارية ((غادة)) . ثم الصراع داخل القصر الحاكم بين ((الزهراء)) جارية عبد الرحمن الناصر و ((غادة)) جارية سعيد الوراق . ومحاولة استرجاع الامير عبد الله ((غادة))، وموقف سعيد الوراق من ((الزهراء)) التى يرغب فيها ، وترغب هى عنه . ومحاولاتها صده ومحاولاته هو فى الاقتراب منها ، وتغيير الخطط ، وافتعال الخلافات . ومع ذلك فان الكاتب لم يستخدم اسلوب التحليل النفسى ، فى استيطان دواخل شخصياته .

لكنه اجتهد فى ان يقدم لنا شخصياته عن طريق نثر بعض المعلومات والبيانات والصفات عن ((الشخصية)) الواحدة فى ثنايا الفصول . وهذا فى حد ذاته اسلوب جيد ، لولا انه يفاجئنا ـ بعدئذ ـ بان يفرد لنفس الشخصية فصلا خاصا ، يحمل فيه ما سبق له ان بثه عنها من قبل . ومن ثم نجد تكرارا ملحوظا فى حديثه عن بعض شخصيات الرواية . مثال ذلك تعامله مع شخصية الامير عبد الله ، فقد عرف القارىء عنه كل شىء طوال الفصول السابقة على الفصل السابع عشر . وفى نهاية الفصل السادس ... اجمل كل صفاته ، مما يوحى بانه لن يقوم بتعريفنا به مرة اخرى . ثم اذا به يخصص الفصل السابع عشر كله للامير عبد الله !!

وفيما يتصل باسلوب الكاتب فى تقديم شخصية الامير عبد الله بالذات ، يجد القارىء أنه ظل يصفه طوال مائة وثلاثين صفحة بالتقوى والورع والتصوف ، دون الاشارة الى مرجع واحد . لان هذه الصفات ـ فى العمل الفنى ـ ليست فى حاجة الى تأكيد وتثبت من المراجع . كما انه رغب فى المقارنة بينها وبين غيرها . لكنه فى صفحة ١٢٩ عاد ليؤكد ان الامير عبد الله ((كان مشهورا بالتقوى والزهد حتى سموه ((الزاهد)) واشار فى هامش الصفحة الى ان مرجعه فى ذلك هو ((المقرى)) الجزء الاول .

وثمة تكرار آخر لم يكن هناك مايدعو اليه من الناحية الفنية . فقد سبق للكاتب ان اشار مرات كثيرة فى فصول الرواية ، الى ان الولاة والامراء المسلمين لم يكونوا يرغبون فى اقتناء كتب الفلسفة ، مراعاة للدين ، على مايفسره الفقهاء فى ذلك العهد . ثم لالبث ان اعاد هذه الفكرة بنصها ، وهو بصدد حديثه عن الامير عبد الله حيث يقول فى صفحة ١٢٩ : ((وقد رايت فيما تقدم انكاره امر هذه الكتب على اخيه حينما قيل له ان اخاه يقتنيها . وكان ذلك الاعتقاد شائعا فى العالم الاسلامى مسايرة لما يريده الخلفاء ، وهؤلاء كانوا ينكرون أمر هذه الكتب مراعاة للدين على مايفسره الفقهاء فى ذلك العهد . وكان رجال السلطة يراعون اقوال الفقهاء واحتفاظا بنفوذهم لدى العامة)) .

والغريب انه هنا لم يشر الى مصدر هذه المعلومة الهامة ، وهذا المبدا الخطير ! ومما احتفظ به جورجى زيدان ـ فى هذه الرواية ـ من خطوط عامة يسير عليها فى كل رواياته ، تلك العناوين الفرعية التى يضعها لكل فصل من فصول الرواية . والرواية فى ثمانين فصلا . وهى فصول قصيرة . جاء قصرها استجابة لمتطلبات النشر فى مجلة ((الهلال)) . وفى اعتقادى ان هذه العناوين الكثيرة لا حاجة للرواية بها . اذ انها لا تضيف الى البناء الفنى . ولا تفسر المواقف . ولا تبلور الفكرة . ولا تخدم القارىء

من قريب أو من بعيد . كما أنها لا تشوقه ولا تدفعه الى الاقبال على قراءة الفصول . وبخاصة أنها بين دفتي رواية مطبوعة . لعلها كانت لازمة عندما كان المؤلف ينشر فصول روايته بشكل منجم في أول كل شهر .

بل ان القارىء يلاحظ أن الفصل الواحد ، أو المشهد الواحد ـ ان شئت ـ قد يندرج تحت عنوانين مختلفين . بمعنى أن ((الموقف)) واحد في المشهدين أو في الفصلين . اذ يكمل كلاهما الآخر . فما الحاجة اذن الى استحداث عنوان جديد ، مع أن المشهد واحد لم يتغير ، والحدث واحد لم يتطور ، والحوار مستمر ، والموضوع ثابت ، والشخصية هي هي !؟

يضاف الى هذا أن كثرة الفصول ، مع الحرص على وضع عنوان لكل منها ، جعل هذه العناوين تبدو مباشرة وغير فنية . لم تصدر عن معاناة . لم يعمل الكاتب عقله في توليفها . ولم يجتهد في الاختيار والتركيب والبناء . لم يبتكرها بحيث تأتي دالة موحية مثال ذلك هذه العناوين : عبد الله وعابدة ـ سعيد وعبد الله ـ القصور ـ القصر الزاهر ـ الاحتفال ـ عابدة ـ التعليم ـ الغناء ـ الزهراء ـ الدرس ـ خازن كتب الحكم ـ مكتبة في قرطبة ـ الاجتماع ـ استقبال الرسل ـ العباسيون والامـويون ـ في الحديقة .

وفوق ذلك كله ، فان هذه الرواية تحفل بالوصف الجغرافي لبيئة الاندلس ، وللطبيعة فيها ، ولما ابتدعه الخليفة عبد الرحمن الناصر من القصور . مثل قصر الزهراء الذي بني استجابة لطلب جارية له اسمها الزهراء ، على بعد أربعة أميال من قرطبة . نرى الكاتب مهتما بذكر طول القصر من الشرق الى الغرب ، ثم عرضه ، وعدد أعمدته أو سواريه ((صفحة ٧ ، ٤٥ ، ٤٦)) . ويحدد المبلغ الذي أنفق في بنائه ((عشرون مليون دينار)) .

والسنوات التي استغرقها البناء ، وعدد العاملين به ((ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسون فتى من الخصيان . وثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون صبيا ، وستة الاف وثلاثمائة واربع عشرة امرأة)) . انظر في ذلك الفصل رقم ١١ الذي عنوانه ((القصور)) صفحة ٤٩ . والفصل رقم ١٢ الذي عنوانه ((القصر الزاهر)) صفحة ٥٣ . لتجد الكاتب قد أسرف اسرافا واضحا في وصف الحدائق والقصور . مما سبق له أن تناوله في ثنايا صفحات الرواية . وهو ما عاد ليكرره مرة أخرى في الفصل رقم ٣٣ تحت عنوان ((قصر الزهراء)) صفحات ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

انه يذكر تفاصيل صغيرة خاصة بالاماكن والحدائق والزخارف الداخلية . وينقل أبيات الشعر المكتوبة على العتبات ، والمناطق الحريرية الملونة ، والجلابيب زاهية الالوان ، والستائر الموشاة بأبيات الشعر . كما ينقل الشعر المنقوش على أقداح النبيذ .

وهو يقدم ذلك بلغة عربية فصحى سليمة . وأحيانا يلجأ الى تفسير بعض الكلمات التي يتصور أنها غير مفهومة لقارىء ذلك الحين . فهو يوضح معناها ، بين قوسين . يقول في صفحة ـ ٢١٠ ((كلمة سريرها ((الناموسية)) ، وفي صفحة ٢١١ ((الحجـالة ((التواليت)) وهكذا .

وسوف يلاحظ قارىء هذه الرواية أنها قدمت صورة مكبرة لكيفية اهتمام الخلفاء بالعلم ، وحبهم له ، واقبالهم عليه ، وتقريبهم العلماء اليهم . وانعكس هذا في حرصهم على اقتناء الكتب ، والانفاق على المؤلفين والناشرين . وما أكثر ما ذكرت الرواية كيف أنهم كانوا يتنافسون في الحصول على الكتب . فالامير عبد الله ينافس اخاه الحكم . واذا سبق أحدهما الى اقتناء كتاب جديد عد ذلك فخرا له . وادى هذا الوضع الى أن تصبح التجارة في الكتب وسيلة مضمونة للكسب والاثراء . فكثر الذين يشتغلون ببيع الكتب ونسخها ـ والاكثر من هذا مدعاة للدهشة أن البطولة الفعلية في

هذه الرواية ـ كما سنرى ـ لاحد الوراقين ((سعيد الوراق)) . وقد بالغ الكاتب فى تصوير هذا الجانب . اذ أنه راح يعرف ببعض الكتب الاصول فى تراثنا العربى . ويتناول حياة مؤلفيها، والظروف التى أحاطت بالتاليف والنسخ . سعيد الوراق يعرض لابى الفرج الاصفهانى وكتابة الاغانى . والمدة التى استغرقها تاليف هـــذا الكتاب ، واهميته ، وضرورة اقتنائه .

و ((عابدة)) تقف عند ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه ، وتعجب كيف ان مؤلف هذا الكتاب جمع فيه مالا سبيل له فى سواه مـن العروض والشعر والاخبار والامثال والتاريخ والعظات الدينيـة والفوائد الصحيحة . ويسرف المؤلف فى تجسيد هذا الجانب عند كل من ((عابدة)) و ((سعيد)) . فهى تحفظ الشعر الجـــاهلى والاسلامى والمحدث . واطلعت على جمهرة اشعار العرب ، لابى زيد القرشى ، وحفظت نوادره ، وديوان الحماسة للبحترى ، وطبقات الشعراء لابن قتيبة ، ولغيرهم من الادباء . ويستشهد جــورجى زيدان فى هذه الرواية بشعر كثير لزهير بن ابى سلمى ، ولغيره من الشعراء . وهذه ـ جميعا ـ لا تخدم السياق الموضوعى . وكانها منقولة نقلا من كتب الادب وتاريخه . وكانت تكفى اشارة واحدة ، الى اهتمام الامراء والخلفاء بالكتب . بدلا من هذا التــكديس والحشو والنقل والوقوف عند تاريخ حياة مؤلف كل كتاب ، وما يتضمنه هذا الكتاب . لانه لا يهيىء بحثا فى المكتبة العربية .

وككل روايات جورجى زيدان ، تلعب ((المراة)) دورا خطـيرا وهاما . ويشغل ((الحب)) عقل وفكر ووجدان كل شخصـيات الرواية . بدءا بسعيد الوراق ، ومرورا بالامير عبد الله واخيـه الحكم ، ثم ياسر وساهر ، ووصولا الى الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر . فالامير عبد الله ، المتصوف الزاهد فى الحكم ، يحب ((عابدة)) ، وذلك بمجرد رؤيتها لاول مرة ، والاستماع اليها وهى تقول الشعر او وهى تغنى . والامير الحكم ولى العهد يبعث فى

طلبها . ونفاجا ـ بعدئذ ـ بان الخليفة عبد الرحمن النـاصر ـ والدهما ـ يطلب نفس الجارية الى قصره . رغم وجود جاريتـه ((الزهراء)) الى جانبه .

على هذا النحو يأخذ الكاتب فى تصوير الخلاف بين الاخـوين والاب حول الاستئثار بجارية جميلة ، عذبة الصوت ، تحفـظ الشعر . الحكم يريدها من أخيه عبد الله . وعبد الله يرى فى ذلك ((عابدة)) فى قصره ، ليجرى صراع آخر بين امراتين : ((الزهراء)) القوية القاهرة المسيطرة على امير المؤمنين عبد الرحمن النـاصر و ((عابدة)) التى نجحت ـ عن طريق سعيد الوراق الذى تحبـه ـ فى التسلل الى القصر . و ((سعيد الوراق)) أيضا نجح فى اقتحام القصر بدهائه لا من أجل ان يبقى الى جوار ((عابدة)) ، ولكن من اجل ((الزهراء)) . عندئذ تشتعل النيران بين الجميع : الزهـراء وعابدة والخليفة وعبد الله والحكم وسعيد الوراق والحراس بسبب الحب ، والغيرة ، والرغبة فى الاستئثار .

يحتل الحب ـ اذن ـ والصراع حوله ، ومن اجله ، المســاحة الكبرى من هذا النص الروائى . تقول ((عابدة)) لسعيد : ((دعنى من ذلك . دعنى . ان السعادة ليست فى السيادة ولا فى الثروة ان السعادة فى الحب)) صفحة ٢٥٥ . وتقول للامير عبد الله وقد امسك بطرف ثوبها : ((أخرج بأمر مولاى لانى أصبحت سببا فى النزاع مع اخيه ..)) صفحة ١٢٦ ، فيقطع الامير عبد الله كلامها قائلا : ((لقد امرتك بألا تخرجى وقد قلت لك انه لن ينال قلامة ظفرك ، وها انا ساكتب اليه رد رسالته الساعة)) .

ومن ناحية اخرى نجد الخليفة عبد الرحمن الناصر متيما بحب ((الزهراء)) ، شديد الحرص عليها ((اذ لم يكن اعز منهــا على قلبه ، ولا يريد أن يدع سبيلا لسوء الظن بينه وبينها ، نظرا لولعه وشدة تعلقه بحبها ، وقد أنفق الاموال فى تشييد تلك القصور

لاجلها . وهو لا يرى له غنى عنها بوجه من الوجوه ، وقد امتلكت فؤاده وغلبته على أمره)) صفحة ١٦٤ . و ((جوهر)) قائد الحرس في القصر يؤكد ذلك ويعلن انها اذا طلبت من الخليفة شيئا ((اذعن لها . فهو طوع ارادتها)) ١٩٤ . كما ان ((سعيد الوراق)) يحب ((الزهراء)) منذ زمن بعيد ، قبل ان تاتي الى القصر ، وقد بذل كل غال وضحى لكي يصل اليها حيث هي داخل القصر الحاكم ، وهو يعلم الخطر المحدق به . اذ انها محبوبة الخليفة ، والمسيطرة على كل شيء . يقول الكاتب في ذلك : ((ولكنه جن بحب الزهراء ، ولم يعد يحسب للحياة حسابا . ورغم ما رأيت من تعقله ودهائه فان حبه الزهراء غلب على عقله وأخذ بمجامع قلبه ، وليس للعقل سلطان على قلوب المحبين . فقد تجد الرجل العاقل يقيس الامور ويحلل اسبابها ونتائجها ، وقد اوتي الحكمة وفصل الخطاب . فاذا استولى الحب على قلبه ارتكب من الهفوات ماتنتزعه عنه الجهلاء ، وهو يرى انه عاجز عن تجنبه . واذا تفكر فيما ياتيه من الخفة والطيش في سبيل الحب خجل من نفسه ولايرى له مندوحة للخلاص من تلك الشراك)) صفحة ٢٤٨ .

ويقول ((سعيد الوراق)) لنفسه : ((ان حب الزهراء سبب بلائي ، وسيكون سببا في ضياع امة برمتها)) ٢٥٨ . ثم مايلبث في نهاية الرواية أن يعترف : ((ان السبب الذي حملني على ما ارتكبته انما هو اشرف الاسباب بل هو الوسيلة الوحيدة لجمع شتات الناس وتاليف قلوبهم وحفظ انواعهم ، وهو الذي امر به الشرع واوصى به الله ، وقد امتدحه الحكماء ، وتغزل به الشعراء ، بل هو اكبر الفضائل . ان ذلك السبب ياسيدي هو ((الحب)) . هذا الذي حملني على ارتكاب ما ارتكبته . فهل في الحب عار وقد جاء ذكره في القرآن والحديث ؟ أليس هو سبب نظام الكون)) صفحة ٢٣٧ . وتكون اخر كلماته ((اني اموت فداء للحب)) ٢٤٠ .

استطاع ((سعيد الوراق)) ان يلعب على كل شخصيات الرواية ، وأن يحركهم كأنهم دمى أو عرائس : نساء ورجالا ، حكاما وجواري ومحكومين وعبيد ، عاشقين ومعشوقين . لكي يصل الى حبيبته ((حسناء)) التي كان قد عرفها في ((صقلية)) قبل ان تصير الى الناصر في ((قرطبة)) وقبل أن يسميها ((الزهراء)). سخر ((عابدة)) والفقيه ابن عبد البر ، والامير عبد الله ، والحكم والحراس ، والناصر ، افتعل الاحداث ، وسير البشر ، اختلق الخلافات ، وقتل من قتل . وشرد من شرد . وشوه من شوه . أخضع الامير الحكم . وسيطر على الامير عبد الله . وحظي باعجاب الاب الخليفة الناصر . دخل القصور والعقول ، لكي يعيد ((حسناء)) او ((الزهراء)) . بعد ان اخضع اخاها ((سالم)) او صاحب النقمة ، فاصبح رهن اشارته .

لا نغالي ، بعد ، اذا اعتبرنا شخصية ((سعيد الوراق)) هي الشخصية المحورية الاساسية في هذه الرواية . وليس عبد الرحمن الناصر . انه يلعب أخطر الادوار واهمها ، يحرك الاحداث والشخصيات ، ويبث الفكر . يقنن لسلوك كل شخصية . ويخطط لما ينبغي أن يكون عليه مستقبلهما الذي يرتضيه هو لها .

وقد اضفى الكاتب على هذه الشخصية من الصفات والنعوت مالا يمكن تصديقه : الدهاء ، التنجيم ، الفلسفة ، معرفة الادب ، وحفظ الشعر ، والغناء ، والالمام بالطب والسياسة وفلسفة الحكم والتاريخ والحضارة . لذا فانه تمكن من توجيه الجواري ، ورسم الطريق للامراء ، ومعرفة اسرار القصور . والكل خاضع له ، مستمع اليه ، ولا احد يفكر مليا في نواياه ، ولا في حجمه ، ولا في اسمه ، ولا في دوره الذي يؤديه ، ولا في الدوافع الخفية وراء نواياه .

وتقديم ((سعيد الوراق)) بهذه الطريقة المبالغ فيها ، يجعله شخصية غير مقنعة فنيا ، ولا يمكن تصديق امكانية وجودها واقعيا

كذلك الحال بالنسبة للخليفة عبد الرحمن الناصر الذى توارى دوره تماما ، واختفى وراء الوجود المهيمن لسعيد الوراق . لذا فان اختيار عنوان الرواية ((عبد الرحمن الناصر)) اختيار غير موفق موضوعيا وفنيا ، ولا ينسجم مع حركة الشخصيات ، والاحداث ، والمواقف ، فالرواية هى رواية سعيد الوراق . والمحور الذى تدور حوله هو ((الحب)) ، وصراع الامراء والحكام والافراد من أجل الوصول الى المرأة التى يحبون أو يعشقون : عابدة أو الزهراء . البعض يعشق ((عابدة)) . والاخرون يعشقون ((الزهراء)) و ((عابدة)) تعشق ((سعيد الوراق)) .. وهذا يؤكد للقارىء أن الرواية رواية عشق وغرام وحب . وليست رواية تاريخ وتعليم واسلام ، فالصراع غير مقبول على المستوى الواقعي ، وغير مبرر على المستوى الفني . وهى تنتهى نهاية سينمائية مليئة بالاثارة ، والمغامرة ، والمطاردة ، ثم الزواج السعيد بين عابدة وسالم وعودة الزهراء الى حبيبها الخليفة عبد الرحمن الناصر ، بعد ان يقتل سعيد الوراق نفسه فى مشهد ماساوى غير معقول ، وهو يعترف بجرائمه التى ارتكبها فى طريق وصوله الى قلب ((الزهراء)) .

لا شىء بعد من التاريخ الاسلامى . ولا علاقة لعنوان الرواية بالبطل المحرك لها ، وحجر الزاوية فيها . فلاهى رواية تاريخية ، ولا هى رواية موضوعها الاسلام ، ولا هى رواية عبد الرحمن الناصر . لان من يدعى ذلك فانه يعمل على تشويه تاريخ العرب فى الاندلس . ويطمس معالم حضارتهم فيها . انها رواية غرامية، بطلها شخص يدعى ((سعيد الوراق)) . وهى حافلة بصنوف شتى من الدسائس والمكائد التى اصطنعها هذا البطل اصطناعا . وصاغها المؤلف باسلوب مشوق . وارجو ان تقراها عزيزى القارىء على هذا النحو دون غيره .

دكتور سيد حامد النساج

عبد الرحمن الناصر

رواية تاريخية

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها وعادات أهلها فى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى (من سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ، وما بلغت اليه دولته من المنعة والسيادة ، وما بناه من القصور الفخمة ، وكيف كان يحتفل باستقبال وفود ملوك أوربا بالهدايا ، وما كان من خروج ابنه عبد الله يطلب ولاية العهد لنفسه دون أخيه الحكم الخ

تأليف

جرجي زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

* **عبد الرحمن الناصر** : الخليفة الاموى بالاندلس
* **الزهراء** : محظية الخليفة
* **الحكم** : ولى العهد
* **عبد الله** : الابن الثانى للخليفة
* **ابن عبد البر الكسيبانى** : من كبار فقهاء قرطبة
* **سعيد** : جاسوس الخليفة الفاطمى فى القيروان
* **ياسر** : خادم أمير المؤمنين
* **ساهر** : خادم للامير عبد الله
* **عابدة** : جارية من مولدات بغداد
* **سالم** : شقيق الزهراء

مراجع هذه الرواية

هذه هى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ المقريزى
* طبقات الادباء
* المؤرخ كوندى
* تاريخ دومى
* الاحكام السلطانية
* العقد الفريد
* الامالى للقالى
* كتاب الحوشى
* نفح الطيب
* الاغانى لابى الفرج الاصفهانى
* تاريخ ابن خلدون

— ١ —

قرطبة وعبد الرحمن الناصر

قرطبة عاصمة الأمويين فى الأندلس ، تقع شمالى نهر يعرف باسم الوادى الكبير فى جنوب اسبانيا . وقد بلغت غاية حضارتها وأوج مجدها فى زمن عبد الرحمن الناصر ، (تولى سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ للهجرة) ، وهو أول من تسمى خليفة من ملوك الأندلس . تولى الملك والأحوال مضطربة ، والبلاد قائمة قاعدة ، لاختلاف الأحزاب وكثرة المطالبين بالحكم من العرب والبربر ، غير الافرنج المجاورين له فى اشتوريا ، وغليكية ، ونافار ، وبمبلونة ، وغسكونية ، وغيرها .. وقد ظل يحارب ويناضل ويجد ويجتهد ، حتى دانت له الرقاب ، واستقر له الملك ، واستتب الأمر .. فتقرب اليه ملوك عصره بالهدايا ، وأوفدوا اليه الوفود من القسطنطينية ، ورومية ، وفرنسا ، وروسيا ، وغيرها

ولما أحس من نفسه بالقوة ، ورأى الخلافة العباسية قد ضعفت .. وأصبح الجنود الأتراك يسيطرون على خلفائها ، سمَّى نفسه أمير المؤمنين ، فلم يلق معارضة . واتفق فى أثناء ذلك قيام الدولة الفاطمية (العبيدية) فى المغرب ، وهم شيعة يطلبون الخلافة

باسم على ، فأصبحت الخلافة الاسلامية يدعيها ثلاث دول : العباسيون فى العراق ، والفاطميون فى المغرب ، والأمويون فى الأندلس ..

ازدهرت قرطبة فى أيام عبد الرحمن الناصر ، وزاد عمرانها ، وكثرت قصورها ومتنزهاتها .. يكفى من ذلك قصرها الكبير لأنه آية من آيات الزمان ، كان مؤلفا من أربعمائة وثلاثين دارا ، بينها قصور فخمة ، لكل منها اسم خاص ، كالكامل ، والمجدد ، والحائر ، والروضة ، والمعشوق ، والمبارك ، والرستق ، وقصر البديع . وقد تفننوا فى زخرفتها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك ، والبحيرات ، والصهاريج ، والأحواض ، وجلبوا اليها الماء فى قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه اليها ، ووزعوه فيها وفى ساحاتها ونواحيها ، فى قنوات من الفضة الخالصة ، والنحاس المموه ، الى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب الذهب أو الفضة فى صور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجميلة ، على أشكال مختلفة

ومن عجائب قرطبة مسجدها المشهور ، ولم يكن فى بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء . وكان فى مكانه كنيسة للنصارى شاركهم فيها المسلمون عند الفتح ، كما فعلوا بالمسجد الأموى

بدمشق ، ثم قاموا بتوسيعه والزيادة فيه ، حتى كانت سعته فى عصر عبد الرحمن الناصر مائتين وخمسة وعشرين ذراعا طولا ، ومائتين وخمسة أذرع عرضا . وأغرب ما فى هذا المسجد مئذنته التى لم يكن فى مساجد المسلمين مئذنة تشبهها .. اذ بلغ طولها الى موقف المؤذن أربعة وخمسين ذراعا ، والى أعلى الرمانة ثلاثة وسبعين ذراعا ، وعرضها ثمانية عشر ذراعا ..

ومما ابتدعه عبد الرحمن الناصر من القصور ، قصر الزهراء ، ذكروا انه بناه استجابة لطلب جارية له اسمها الزهراء ، على بعد أربعة أميال من قرطبة .. وهو أشبه ببلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع ، وعرضه ألف وخمسمائة ذراع ، وعدد أعمدته أو سواريه أربعة آلاف وثلاثمائة سارية ، بعضها نقل الى قرطبة من رومية ، وافريقية ، وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية .. وفيها المصنوع من الرخام الأبيض ، والأخضر ، والوردى ، والمجزع . وكان فى الزهراء مسجد فخم ، وعدة قصور وحدائق .. على نحو ما تقدم فى وصف القصر الكبير. وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك على اختلاف ألوانها وأنواعها ، وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى ، بين مذهَّب وغير مذهَّب فى جملتها حوض مزيَّن بتماثيل الانسان جىء به من القسطنطينية ، وأقامه عبد الرحمن الناصر فى دار المنار بالمجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب

الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالى مما صنع بدار الصناعة فى قرطبة على صورة أسد وبجانبه غزال والى جانبه تمساح ، يقابله ثعبان ، وعقاب ، وفيل . وفى الجنبين حمامة ، وشاهين ، وطاووس، ودجاجة ، وديك ، وحدأة ، ونسر .. وكلها من الذهب المرصع بالجوهر ، يجرى الماء من أفواهها ، وقد أنفق فى بناء هذا القصر ما يزيد على عشرين مليون دينار (١)

هـذا خلاف ماكان فى دولة عبد الرحمن الناصر من رواج العلم ، فقد كانت قرطبة كعبة العلم ومجتمع العلماء ومقصد باعة الكتب . وكان اقتناء الكتب من ضروريات الحياة عندهم .. كانوا يفعلون ذلك اقتداء بخليفتهم وأبنائه

— ٢ —

مكتبة فى قرطبة

قال جوهر خادم المكتبة : « مالى أرى الناس فى شاغل عن النسخ والمطالعة اليوم ياسيدى ؟ »

فأجابه سعيد صاحب المكتبة : « ان الناس فى شاغل عن كل شىء بسبب رسل قيصر الروم ، الذين جاءوا بالهدايا من قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية ، الى مولانا أميرالمؤمنين

(١) تاريخ التمدن الاسلامى — الجزء الخامس

عبد الرحمن الناصر ، فخرجوا من قرطبة لمشاهدة الوفد قبل وصوله .. كأنك كنت غائبا عن قرطبة ؟ »

قال جوهر : « لم أكن غائبا .. ولكننى لم أبرح هذه الدار منذ أسبوع ياسيدى .. »

فانتبه اليه سعيد ، وقال : « صدقت .. ان الخليفة حين بلغه مجىء رسل ملك الروم أمر أن يستقبلوا أحسن استقبال ، وأرسل جماعة من خاصته يستقبلونهم فى بجاية ، وأن يحسنوا خدمتهم فى الطريق . فوصلوا أمس الى قرب قرطبة ، فأمر بارسال الجند والحاشية والخدم للقائهم .. فاشتغل أكثر الناس بانتظارهم فى الطرق ، ومشاهدة موكبهم ، فلم يأتنا أحد منهم »

فقال جوهر : « ومن هم رسل ملك الروم ؟.. »

فاستغرب سعيد سذاجة خادمه جوهر ، وقال له : « انهم اناس مثلنا .. هل تحب أن تراهم ؟.. »

قال جوهر : « نعم .. »

قال سعيد : « ولكن ذلك غير مستطاع لأحد ، لأن الخليفة عبد الرحمن الناصر أمر أن ينزلوا فى الربض خارج المدينة ، بمنية الحكم ولى العهد ، وأن يمنعوا من مخالطة النـاس ، وأن يقام الحجاب على أبوابهم حتى لا يخاطبوا أحدا ولا يراهم أحد »

فقال جوهر : « عجبا ! .. وهل يخشى منهم على دولته ؟.. »

قال سعيد : « كلا .. ولكن للملوك سياسة لا تفهمها .. هذا

الفقيه ابن عبد البر قادم ، أعدد له المقعد ، وضع له الدواة على المنضدة فى غرفة المطالعة »

ولم يتم سعيد كلامه حتى وصل ابن عبد البر ، وهو من كبار الفقهاء فى قرطبة ، وقد شب فى حاشية الحكم ولى العهد ، ثم لازم أخاه عبد الله بن الناصر . وكان عبد الله يحب العلماء وأهل الأدب ويكثر من مجالستهم

وكان ابن عبد البر هذا يتردد على هذه المكتبة مثل كثيرين من الأدباء ومحبّى المطالعة .. وكانت قرطبة يومئذ فى أوج مجدها ، واقتناء الكتب فيها من لوازم الرخاء ــ كما تقــدم ــ بل هى كالأثاث لا يستغنى عنها فى بيت من البيوت ، لأن الخليفة نفسه كان محبا للعلم مقربا للعلماء ، وشب أولاده على ذلك ، وخاصة الحكم ولى العهد ، وأخوه عبد الله ، واقتدى بهم سـائر أهل الدولة .. والناس على دين ملوكهم ، فأصبحت تجارة الكتب من أروج التجارات عند الوجهاء وأهل الرياسة ، فكثر الوراقون ، وهم الذين يشتغلون ببيع الكتب ونسخها

وكان سعيد صاحب هذه المكتبة قد أنشأها فى الربض خارج قرطبة ، فى بيت على ضفة الوادى الكبير (نهر قرطبة) ، فهى تطل على قرطبة عن بعد وبينهما النهر ، وقد جعلها أشبه بنادى مطالعة أكثر منه بمستودع كتب ، أو دار نسخ .. فكان أدباء قرطبة يتوافدون عليها للمطالعة ، أوالشراء ، أو النسخ ، فيلمسون

من سعيد استئناسا ولطفا وتساهلا ، ويرتاحون لمعاشرته لسعة اطلاعه ودماثة أخلاقه . وكان سعيد كثير الاحتفاء بالناس وخاصة بالفقيه ابن عبد البر ، وكان هذا يظن ان احتفاء سعيد به راجع الى رغبة الانتفاع منه بكتاب يبيعه بواسطته لولى العهد ، أو لأخيه عبد الله بن الناصر .. لأن الفقيه كان معدودا من خاصــة عبد الله ، وكان هذا مغرما باقتناء الكتب ، فاذا سمع بكتاب بذل فى سبيله الأموال الطائلة حتى يقتنيه . وكثيرا ما كان يبتاعها من عند سعيد بواسطة ابن عبد البر .. ولكن احتفاء سعيد به كان نغرض آخر يبعد عن ذهن الفقيه ابن عبد البر ادراكه

فلما أطل الفقيه من باب الحديقة ، خفّ سعيد لاستقباله فى الدار ، ورحب به ، فدخل وعلى وجهـه امارات الاستعجال ، فتجاهل سعيد ورحب به ، وقال : « ما بال الفقيه قد أبطـأ علينا اليوم ؟.. لعله كان فى جمـلة الذين خرجوا لمشـاهدة رسـل القسطنطينية ؟ »

فقال الفقيه وهو يخرج يده من جيب جبته ، وفيها لفافة من الورق : « كلا .. لم أذهب معهم ، ولكنى شغلت بالمطالعة .. هل فى مكتبتك كتاب البيان والتبين للجاحظ ؟.. »

قال سعيد : « نعم .. أظنك تشتغل باعداد خطبـة تتلوها فى يوم الاحتفال باستقبال هؤلاء الرسل فى حضرة الخليفة ؟.. »

فضحك الفقيه ضحكة معجب بنفسه ولم يجب ، وظل ماشيا

وهو يصلح عمامته ، ويخرج منها قلما كان قد غرسه فيها حين قام مسرعا من منزله لمراجعة شيء فى كتاب « البيان والتبيين » .. ومشى سعيد أمامه حتى وصل الى مخزن الكتب .. وهو غرفة واسعة فيها رفوف مثبّتة فى الحائط ، وعليها الكتب مرتبة حسب موضوعاتها .. وأكثرها من كتب الأدب ، ولم يكن يتجاسر على اظهار كتب الطبيعيات ، والفلسفة ، لأن أصحابها كانوا متهمين بالكفر ، وبدلا من أن يأمر الخادم أن يخرج كتاب « البيان والتبيين» ويقدمه للفقيه ، أسرع سعيد بنفسه وأحضره اليه مبالغة فى الاكرام . فتناول الفقيه ابن عبد البر الكتاب وجلس على المقعد المعد له وهو يقول : « ان هذا الكتاب عندنا منه عدة نسخ فى مكتبة مولانا الأمير عبد الله ، ولكننى أردت أن أخلو به هنا بجوارك ياصاحبى .. »

فقال سعيد : « ان ذلك من حسن حظى يامولاى » وتركه وانصرف الى ناحية من المنزل تطل على النهر ، وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل ، فرأى الناس فى الزوارق عائدين من استقبال رسل القسطنطينية .. وعرف من حديثهم ان الرسل قد وصلوا الى الربض ، ونزلوا فى منية الحكم فوقف برهة صامتا واستغرق فى تأملاته حتى نسى موقفه ، ولم يتنبّه حتى ناداه جوهر الخادم ، فالتفت اليه ، فاذا هو يشير له أن يأتى ، فأسرع نحوه وهو يقول والدهشة بادية على وجهه : « ان ياسرا فتى أمير المؤمنين .. »

وتلعثم لسان جوهر من الدهشة ..

- ٣ -

ياسر كبير الخصيان

فتعجّب سعيد لمجىء ياسر فى ذلك اليوم ، وكان قد سمع بخروجه ، هو وتمّام الفتى الآخر، لاستقبال رسل الروم مبالغة فى اكرامهم .. لأن ياسرا ، وتمّاما ، كانا كبيرى الخصيان فى القصر ، بما يشبه (الباش أغا) فى ذلك العهد . وكان للخصيان فى ذلك العهد أيضا سطوة ونفوذ ، لأنهم أصحاب الخلوة مع الخليفة عبد الرحمن الناصر وحرمه ، وبيدهم القصر السلطانى.. فارسال كبيرى الخصيان لاستقبال هؤلاء الرسل .. يُعد من المبالغة فى الاكرام

وكان ياسر طويل القامة ، أبيض الوجه ، لأنه من الصقالبة البيض .. أزرق العينين ، غائرهما .. عريض ما بينهما ، بارز الوجنات أجرد الوجه مثل سائر الخصيان

فاستقبله سعيد ورحّب به ، فرأى على وجهه انقباضا ، فتجاهل وقال له : « أهلا بالأستاذ ياسر .. » ودعاه للدخول الى قاعة المطالعة الاستراحة ..

فرد ياسر التحية لسعيد بصوت رفيع كصوت الأطفال مثل أصوات سائر الخصيان ، ولم يبتسم كعادته ، ولكنه أطاع سعيدا

ومشى معه حتى جلس على مقعد قدمه له ، فجلس وهو يتلفت ، فقال له سعيد : « هل يلزم مولاى شيء من الكتب ، أو الورق.. فأحضره .. ؟ »

قال ياسر : « لا .. ولكننى حسبت الفقيه محمد بن عبد البر دخل هذا المكان .. »

قال سعيد : « نعم ياسيدى .. وهو يطالع فى الغرفة الاخرى.. هل أدعوه ؟ »

قال ياسر : « كلا .. دعه فى عمله »

فأراد سعيد ان يعرف ما تنطوى عليه نفسه ، فقال له : « ألم تذهب اليوم ياسيدى لاستقبال رسل صاحب القسطنطينية ؟..»

قال ياسر : « نعم .. ذهبت وأنا عائد الآن ، وقد وصل القوم الى الربض ، فأقمنا عليهم الحراس حتى يأمر أمير المؤمنين باحضارهم اليه .. » قال ذلك ، وفى نفسه شيء يكتمه

فقال سعيد : « أعتقد أن يوم استقبالهم سيكون حافلا .. أين يكون ذلك يا ترى ؟.. »

قال ياسر : « فى القصر الزاهر من قصور الخلافة ، انهم يهيئون المكان منذ أيام .. »

قال سعيد : « كنت أظن أن أمير المؤمنين يستقبل هؤلاء الرسل فى قصر من قصور الزهراء الفخمة ؟.. »

قال ياسر : « ولكن مولاى الأمير أمر أن يهيئوا القصر الزاهر لد الغاية .. »

قال سعيد : « انه سيكون مشهدا جميلا فى داخل القصر »

فأدرك ياسر أن سعيدا يرغب فى الحضور ، فقال له : « اذا ت الحضور فادخل فى رفقة الفقيه ابن عبد البر فلا يعترضك د . وان كنت إنا فى جملة المستقبلين فلا بأس عليك .. » قال وبلع ريقه كأنه يخفى امتعاضا خامره .. وكان سعيد يرقب ن حركة تبدو منه ، فلما لاحظ استياءه ، قال وهو يظهر دهشة : « وهل هناك شك فى ان تكون انت ضمن المستقبلين.. لاريب انك ستكون فى المقدمة ؟.. »

فقال ياسر وفى صدره شيء يريد التصريح به ليشفى ما فى نفسه ن الغيظ ، ولكنه أمسك نفسه وقال : « ربما لا أكون هناك ..»

فضحك سعيد وأظهر انه لم يصدق كلامه ، وقال : « كلا .. ك ستكون فى صدر البهو .. انى أعرف منزلتك عند أمير ؤمنين .. »

فنهض ياسر فجأة ووضع أنامله على فم سعيد ، كأنه يتلطف فى سكاته ، وابتسم وقال : « كانت تلك المنزلة .. ولكن .. » وخشى ن يخونه لسانه فيقول ما يندم عليه ، فتظاهر بتغيير الحديث ، وقال : « انى أرى أناسا قادمين اليك ، ولا احب أن يعلم أحد جيئى الى هنا اليوم .. أستودعك الله » قال ياسر ذلك وخرج

تاركا سعيدا يفكر فى سبب مجيئه ، وفيما بدا منه من الألفاظ القليلة العدد ، الكبيرة المعنى .. وقد أهمه الاطلاع على ما فى نفس ياسر ..

وبعد قليل أخذ الناس يتوافدون الى منزل سعيد ، وكل منهم يشتغل بشىء من كتابة أو نسخ أومطالعة ، واذا أرادوا الاستفهام عن أمر صعب عليهم عمدوا الى سعيد ، وهو يرشدهم الى ما يريدون . وكانوا يعتقدون الصدق فيما يقوله ولو خالف الحد المعقول ، لأنه كان قوى الحجة ، قوى الدليل ، وكان فى عينيه ما يشبه المغناطيس ، اذا تفرس فى عينى جليسه تغلب عليه كأنه جذبه بقوة مغناطيسية .. فلا يشعر جليسه الا وهو طوع ارادته

وكان سعيد الوراق هذا فى نحو الأربعين من عمره ، صحيح البنية ، عريض الكتفين ، قوى العضل ، كبير الرأس ، تتجلى الرزانة فى جبينه ، والذكاء فى عينيه ، والثبات حول شفتيه .. لا يباحث أحدا من الناس الا أقنعه .. وكان خفيف العارضين واللحية ، قلما يضحك ، ولكن الابتسام دائما فى وجهه . وقد مضى عليه بضع سنين يشتغل بالوراقة فى قرطبة ، أو تجارة الكتب ، ولم يعامله أحد الا أعجب بأخلاقه العالية وذكائه المفرط .. فكان الأدباء من الفقهاء وأهل الدولة يترددون على منزله كما يجتمع الناس فى ناد للمطالعة والاستفادة ، ولكنه كان يشترط أن يكون ذلك أثناء النهار ، فاذا غربت الشمس أغلق منزله

فلما رأى سعيد أن الناس يتوافدون على مكتبته فى ذلك اليوم أمر خادمه بتقديم ما يحتاجون اليه ، ولم يكن جوهر خادمه خصيا مثل سائر خدم قرطبة ، فان أهلها قلدوا أميرهم باقتناء الخصيان على اختلاف أجناسهم وكانت كثيرة يومئذ ، وكانوا يأتون بهم من أطراف العالم الى دار الاسلام ، وخاصة الأندلس لأنها كانت أكثر الممالك الاسلامية رخاء فى ذلك العهد ، وانما كان خادم سعيد بربريا من أهل المغرب فى غاية السذاجة ..

— ٤ —

خازن كتب الحكم

اشتغل الخادم جوهر بتقديم ما يحتاج اليه الناس . وتوجه سعيد الى الغرفة التى فيها الفقيه ابن عبد البر ، فرآه منهمكا فى المطالعة يكتب فى كراس بيده ، وهو يتأمل فيما يكتبه ، وقد نزع عمامته واستغرق فى التفكير .. وبينما هو ينظر اليه ، سمع وقع خطوات خلفه ، فالتفت فرأى تليدا صاحب مخزن كتب الحكم ولى العهد قادما على عجل — وهو خصى وجيه — فقابله سعيد مرحبا ، فرآه يشير اليه بسبابته على شفتيه أن يسكت فسكت . وتقدم تليد حتى أطل على الفقيه ابن عبد البر خلسة ، فلما رآه مستغرقا فى الكتابة همس فى أذن سعيد : « ان الفقيه يهيىء خطابا ليتلوه

بين يدى أمير المؤمنين غدا فينال منصب قاضى القضاة » قال ذلك وهز رأسه استخفافا ، ورجع وهو قابض على يد سعيد حتى دخلا غرفة أخرى والفقيه ابن عبد البر لم ينتبه

فمشى سعيد مع تليد ، وهو ينتظر ما يبدو منه ، فاذا به يقول له : « بلغنى ان رجلا من بنى أمية اسمه أبو الفرج الاصفهانى ألّف كتابا فى الأغانى .. هل سمعت عنه شيئا ؟.. »

قال سعيد : « سمعت انه يؤلّف هذا الكتاب من عهد بعيد ، ولا أدرى اذا كان قد أتمّه الآن أم لا .. »

قال تليد : « سمعت انه أحسن كتاب فى الأدب .. »

قال سعيد : « نعم .. وقد بلغنى انه قضى معظم حياته فى جمعه وتأليفه ، وهو يغنى عن سائر الكتب »

قال تليد : « بلغ مولاى الحكم خبر هذا الكتاب ، وان مؤلفه أموى مثله فأحب اقتناءه ، وهو يدفع ما تشاء للحصول عليه .. »

قال سعيد : « سأبعث فى طلبه من العراق لأن صاحبه مقيم هناك .. »

قال تليد : « اذا فعلت ذلك لا تذكر خبر مجيئى اليك ، ولا خبر هذا الكتاب .. هل فهمت ؟ »

فأجاب سعيد : « نعم .. » وقد أدرك انه يريد أن يخفى ذلك وخاصة عن الفقيه ابن عبد البر لاتصاله بعبد الله شقيق الحكم ،

وكان عبد الله ينافس أخاه الحكم فى اقتناء الكتب ، فاذا سبق أحدهما الى اقتناء كتاب جديد عدّ ذلك فخرا له

وودع تليد سعيدا بالاشارة ، وهمّ بالخروج فتبعه سعيد الى الباب وقال له : « هل كنتم فى جملة الخارجين لاستقبال رسل الروم .. ياحبذا لو كنت معكم .. »

قال تليد : « كلا .. »

فقال سعيد : « لو كنت ضمن المستقبلين لما حدث ما أغضب ياسرا .. » قال ذلك وهو لايعرف شيئا عما أغضبه .. ولكنه أراد بذلك أن يعرف سر غضبه ..

فقال تليد : « هل علمت ماحدث ؟.. انى أرى ياسرا على حق فى غضبه ، لأن تمّاما مع انه أقرب عهدا فى خدمة القصر ، نراه قد شمخ بأنفه عليه ويريد أن يتقدمه فى المجالس والاحتفالات . ولكن ياسرا عاقل لا أظنه يحاسبه على هذه الجسارة » قال ذلك وودّعه وهو يقول : « لا تذكر خبر مجيئى لأحد .. »

فأدرك سعيد من هذه المحادثة سبب غضب ياسر واستبشر به ، وكتمه فى نفسه وعاد الى عمله ، ولما اقتربت الشمس من المغيب أخذ الناس فى الانصراف ، والفقيه ابن عبد البر مستغرق فى مطالعته وكتابته ، ولم يشأ سعيد أن ينبّهه .. خرج الجميع ولم يبق هناك غيره فانتبه الفقيه لنفسه لما غابت الشمس وخيّم الظلام ، وهمّ بالنهوض فرأى جوهر الخادم يحمل اليه سراجا مضيئا وهو

يقول : « ان سيدى قد بعث اليك بهذا السراج لتستضىء به ، حتى تتم عملك .. »

— ٥ —

عابدة

فشكر الفقيه له اختصاصه بهذا الاكرام ، وظل جالسا يكتب ، وقد انتهت الضوضاء .. وبينما هو فى ذلك ، اذ سمع وقع أقدام خارج غرفته ، فالتفت فلمح شبحا مرّ ببابها يكاد أن يكون امرأة حاسرة الوجه جميلة الطلعة . فاستغرب الفقيه ذلك وأنصت لعله يستطلع شيئا ، فسمع سعيدا يرحّب بالقادم بصيغة التأنيث ، فدفعه حب الاطلاع الى رؤية القادم .. فنهض وأطلّ من الباب وهو يتجاهل ، فاذا به يرى فتاة على جانب كبير من الجمال تخاطب سعيدا بلسان فصيح يدل على علم وأدب . وسعيد يقول لها : « أتيت أهلا ووطئت سهلا ياعابدة .. لقد طال انتظارى لحضورك »

فقالت عابدة : « لم يكن تأخرى عن عمد ، ولكننى شغلت بمطالعة كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، ونسخه . فان هذا الرجل قد جمع فيه ما لامثيل له فى سواه من العروض، والشعر، والأخبار ، والأمثال ، والتاريخ ، ناهيك بالفوائد الصحية ، والعظات الدينية ، وقد نظم أعمال أمير المؤمنين شعرا ، وتوفى

وهو ينظمها منذ ثمانى سنوات (فقد توفى ابن عبد ربه سنة ٣٢٨ هـ) » قالت عابدة ذلك وأخرجت من تحت ثيابها صرّة كبيرة وقالت : « وهذه هى النسخة التى نسختها »

فتناولها سعيد منها وهو يقول : « أنت التى نسختها بيدك ؟ »

قالت عابدة : « نعم .. أنا التى نسختها بيدى .. وأرجو أن تعجبك .. »

فأخذ سعيد يقلّب النسخة ويتصفحها وهو يقول : « ان هذا الكتاب نادر المثال ، ومع ان صاحبه توفى فى هذه المدينة منذ سبعة أعوام فانى لم أجد نسخة منه بمثل هذا الخط وهذا الضبط » قال سعيد ذلك وهمّ بالمسير نحو غرفة الفقيه ابن عبد البر وهو يقول : « أظن ان هذه النسخة تليق بمكتبة الأمير عبد الله ابن أمير المؤمنين .. »

فلما رأى الفقيه ابن عبد البر أن سعيدا يتقدم نحوه عاد الى مجلسه ، وتظاهر بأنه كان مشتغلا بالكتابة .. فلما وصل سعيد الى الباب قال : « هل يأذن لى الفقيه بالدخول ؟ »

قال الفقيه : « تفضل .. ادخل »

فدخل سعيد والكتاب بيده ، وأشار الى الفتاة أن تدخل ، فدخلت وهى حاسرة الوجه والذكاء يتجلى فى عينيها ، فدهش الفقيه لرؤيتها واستغرب كشف وجهها على هذه الصورة ، وتوسم لأول وهلة أن تكون نصرانية أو يهودية ، لأن اليهود كانوا يعنون

بالأدب العربى . والتفت الى سعيد وهو ينتظر ما يبـدو منه ، فاذا هو يقدم له الكتاب ويقول : « جاءتنى هـذه الأديبة بهذا الكتاب مكتوبا بخط يدها ، وهو كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، وأظن أن فى مكتبة مولانا الأميرعبدالله عدة نسخ مثله»

فتناول الفقيه الكتاب وهو ضخم ، وأخذ يقلّبه على ضـوء السراج ويعجب بجمال خطه وضبطه ، وقال : « نعم .. فيها منه عدة نسخ ، ولكن لا شبيه بينها لهذه النسخة ، وأظن أن مولانا الأمير يرغب فى اقتنائها اذا أرادت هذه الحسناء بيعها .. وهل هذا هو خط يدها ؟.. » ورفع بصره اليها

قال سعيد : « نعم .. وهل تستغرب ذلك ؟.. فكيف اذا عرفت انها تعى هذا الكتاب وعشرات مثله فى ذهنها .. فلا تسألها عن شعر جاهلى أو اسلامى الا ذكرته »

فقال الفقيه : « ما شاء الله .. ان ذلك نادر بين النساء »

فقال سعيد : « هذا الى انها تحسن الغنـاء والعزف على العود .. »

فدهش الفقيه وجلس يفكر فيما سمعه ، وقال : « وأغرب من ذلك انها نصرانية ، أو يهودية على ما أظن .. »

قال سعيد : « كلا .. بل هى مسلمة »

قال الفقيه : « ولكنى أراها سافرة الوجه .. وأضن بهـذا الجمال أن تبتذله العيون »

فالتفت سعيد الى الفتاة كأنه يطلب اليها أن تجيب عن نفسها ، فقالت بألفاظ رخيمة لها وقع على النفس أشد من وقع معانيها : « لا أرى مبررا لتغطية الوجه الا ضعف النفس .. وانى على رأى عائشة بنت طلحة .. فقد كانت تجالس الرجال ، ولا تحجب وجهها عنهم . ولما سئلت عن ذلك قالت : ان الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لأستره ، ووالله ما بى وصمة يستطيع ان يذكرنى بها أحد .. »

فلما سمع الفقيه كلام الفتاة زادت دهشته ، والتفت الى سعيد وقال هامسا : « من هى ؟.. »

قال سعيد : « هى جارية من مولدات بغداد .. »

فهز الفقيه رأسه اعجابا وقال : « لله در بغدادكم وما يخرج منها .. ان مثل هذه الجارية جديرة بأن تكون فى دور الخلفاء أو الأمراء .. »

فقطع سعـيد كلام الفقيه قائلا : « ألا تظن أن مولانا الأمير يحب اقتناء هذه النسخة من كتاب .. العقد الفريد ؟.. » وأشار سعيد الى الكتاب بيده

ففهم الفقيه أن سعيدا لا يحب أن يذكر خبر اقتناء الجارية بين يديها فأجابه : « لا أشك فى ذلك .. فاذا قدمته اليه بعد الفراغ من الاحتفال القادم أخذه وأكرمك . وأنا أذكر له خبرك قبـل

مجيئك ، واذا رأيت أن تأخذ هــذه الفتاة معك ليراها ويسمع حديثها كان ذلك باعثا على رضاه وسروره »

قال سعيد : « سأفعل .. والآن متى يكون الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية ؟ .. »

قال الفقيه : « أظنه لا يكون قبل بضعة عشر يوما على عادة أمير المؤمنين ، من تأجيل المقابلة زيادة فى الارهاب »

قال سعيد : « انى شديد الرغبة فى حضور هذا الاحتفال .. »

قال الفقيه : « سأصحبك معى .. ومتى حان الوقت أخبرتك وذهبنا معا .. »

فشكر له سعيد وهمّ بالخروج ، فقال الفقيه : « قد آن لى أن أنصرف ، فأذن لى اذا شئت .. »

قال سعيد : « لك الخيار ياسيدى . ولا بأس عندى من بقائك هنا فى عملك ، واذا أردت كتبا أخرى غير « البيان والتبيين » قدمته مع السرور . وهذا كتاب « العقد الفريد » بين يديك ، ولعله يفيدك فيما تحتاج اليه فى خطبتك من المشاهد التاريخية ، أو الأمثال .. تفضل اجلس »

فشكر الفقيه ابن عبد البر لسعيد احتفاءه ، وقال : « يكفى ما قرأته الآن .. »

قال سعيد : « أظن خطبتك ستكون جامعة واعية ، وأرجو أن تستفيد منها ، فاذا استفدت عاد ذلك بالنفع على أصحابك ،



« فقالت عابلة بالفاظ رخيمة لها وقع على النفس أشد من وقع معانيها : لا أرى مبررا لتغطية الوجه الا ضعف النفس ... وانى على رأى عائشة بنت طلحة .. »

ولكن لا أدرى اذا كنت تعدنى من الأصحاب .. أم لا ؟ »

فخجل الفقيه ابن عبد البر من هذا المديح ، وقال : « انك من أعز الأصدقاء ياسعيد ، واذا وفقنى الله وظفرت بالمنصب الذى أتوقعه بعد هذا الاحتفال ، رأيت منى ما يرضيك .. فادع لى .. »

قال سعيد : « انى أدعو لك بكل خير ، وأراك أهلا لأكبر المناصب العلمية .. فمن أولى منك برئاسة القضاة أو الخطباء .. »

— ٦ —

عتاب

فتظاهر الفقيه ابن عبد البر بالتواضع ، وأسرع فوضع أوراقه فى جيبه وخرج . فشيَّعه سعيد الى الباب ، ثم أمر خادمه جوهر أن يغلق الباب وراءه . فلما سمع اغلاق الباب تنهد طويلا وعاد الى الجارية .. فاذا هى لا تزال واقفة فى انتظاره . فلما استقبلها نظرت اليه بعينين براقتين تكادان تنطقان وقالت : « هل تأذن لى بالانصراف ؟.. »

فأشار اليها سعيد أن تجلس ، وتلفت حوله حتى يتحقق من خلو المكان من الرقباء ، فجلست عابدة على وسادة فى غرفة ليس فيها غير بساط ومناضد صغيرة لوضع الأقلام ، أو الكتب ، أو أدوات الكتابة ، وسراج قائم على مسرجة يخفق لهبه فيتطاير

سناجه فى تلك الغرفة همسا ، كما تتصاعد زفرات عابدة ولا يشعر بها سعيد أو لعله يشعر ويتجاهل

فلما جلست عابدة جلس سعيد أمامها وكانت تنظر اليه ، فلما وقع بصرها على بصره بادرت الى الاطراق لأنها لا تطيق التفرس فى عينيه لحظة ، فاذا فعلت أحست كأن سهاما تخترق بصرها الى احشائها ، أو أن تيارا كهربائيا يسرى فى جسمها ، فتنتفض له جوارحها . ولم يكن سعيد يجهل ذلك ، ولكن مطلبه غيرمطلبها . فلما أطرقت عابدة ، قال لها : « ما بالك لا تنظرين الىَّ ياعابدة ؟»

قالت عابدة : « ألم تعلم انى لا أستطيع التطلع فى عينيك ؟ ! »

قال سعيد : « كنت أظن انك تفعلين ذلك حياء ! »

قالت عابدة : « لم يبق ثمة باعث على الحياء بيننا .. وقد أطلعتك على خفايا قلبى وتفاهمنا مليا .. »

قال سعيد : « يسرنى انك فهمت مرادى وذهب سوء الظن »

قالت عابدة : « نعم فهمت .. ولكن يظهر لى ان هذا الانتظار لا حد له ، وأنت قابع ببيع الكتب ونسخها ومقابلة الناس والعمل على راحتهم » قالت ذلك وأبرقت عيناها وظهر الارتباك على شفتيها كأنها تخفى شيئا تريد أن يفهمه سعيد دون أن تقوله

أما سعيد فأحس بحدة ذلك التصريح فتغيرت سحنته ، وقال : « لست وراقا ، ولا ناسخا كما تعلمين ، وانما أنا .. » والتفت

حوله خشية أن يسمعه أحد .. وسكت وهو يصرّ على أسنانه

فقالت عابدة : « لا تغضب ياسعيد ، ولا تحسبنى أعاتبك ، ولكنى أستبطىء النجاح .. ان زهرة عمرنا كادت تنقضى فى هذه الديار مختبئين .. »

فرفع سعيد بصره اليها وقال : « يعجبنى فيك حماستك فى سبيل الأمر الذى جئنا من أجله الى هذه الديار ، ولا تظنّى اننى أجهل قصدك .. فأنا أعلم أنك أرفع نفسا من أن يكون طلبك منى مثل مطلب سائر النساء الجاهلات . وقد تعاقدنا وتعاهدنا على ذلك . وأما استبطاؤك النجاح ، فقد تكونين محقّة فيه ، وقد تكونين مخطئة ، فالأمور مرهونة بأوقاتها .. وهل تحسبيننى غافلا . ولكن اعلمى يا عابدة ان الساعة دنت وفتح باب الفرج الآن .. وأصبح اتمام العمل عليك » قال ذلك وتفرس فى وجهها

فتحمست عابدة وقالت : « علىّ أنا .. انى رهن اشارتك ياسعيد .. واذا كان قضاء الأمر متوقفا علىّ ، فاعتبر انه انقضى..»

فأعجب سعيد بهذا القول الدال على قوة العزيمة والحزم ، وقال: « هل تطيعيننى ؟.. » فتنهدت عابدة وقالت : « وهل أستطيع أن أعصاك ياسعيد ؟.. لست أعلم ماذا فى عينيك يؤثر على خاطرى .. ان بصرى لايكاد يتركز على بصرك حتى أشعر كأنك غلبتنى على أمرى وربطت ارادتى بارادتك .. وأحس كأننى جزء منك ،

تخضع لارادتك أنت ويعصانى أنا .. فكيف تسألنى اذا كنت أطيعك !.. » قالت عابدة ذلك وأطرقت حياء

فقال سعيد : « هل تطيعيننى حتى الموت ؟.. »

قالت عابدة : « حتى الموت .. وبعده »

قال سعيد : « لا أعنى أن تعرّضى نفسك للموت .. بل أعنى اذا اقتضت الحال أن تقتلى أحدا بيدك .. هل تفعلين ؟ »

قالت عابدة : « اذا كان ذلك فى استطاعتى فعلته .. » قالت ذلك وقد أحست بقشعريرة خفيفة وسكتت

فتحفز للوقوف وهو يقول : « انى ذاهب الآن الى الاجتماع»

فتنهدت عابدة وقالت : « ألا يزال القوم يجتمعون كالعادة ؟»

قال سعيد : « نعم .. وهم يزدادون عددا وقوة حتى دخل فى جمعيتنا هذه كل رؤساء القبائل الناقمة على عبد الرحمن الناصر، زعيمهم آل حصفون الذين غلبهم على أمرهم ، وجماعات كتامة ، وغيرهم من البربر ، وانما نحن ننتهز الفرص »

قالت عابدة : « وهل يعتقدون حتى الآن انهم يجتمعون لاصلاح حال بلادهم ؟ »

قال سعيد : « ان المفهوم من أغراض هذه الجمعية عند أعضائها انها تشكو من تفضيل عبد الرحمن الناصر للخصيان الصقالبة على أبناء العرب أو غيرهم من الأحرار.. وتنتقد بذخه واسرافه ، هذا كل ما يفهمونه من الأغراض . وليس فى هذه البلاد من يفهم

حقيقة الغرض الأصلى الا أنا وأنت ، فاجعليه فى طى الكتمان »

فأطرقت عابدة لحظة ، وقد بدا الاهتمام على جبينها ، وقالت : « دعنى أذهب معك يا سعيد .. »

قال سعيد : « ولماذا ؟.. »

قالت عابدة : « أفعل كما تفعلون .. لعلى أستحث القوم على العمل .. »

قال سعيد : « أحسنت .. هيا بنا » ونهض سعيد ، ونهضت عابدة معه ، وقد التفّت بردائها ، فأمسك سعيد بيدها وخرج من باب آخر فى المنزل ، وسارا فى الظلام وعابدة لاترى شيئا ، ولو سار بها سعيد الى الجحيم وهو قابض على يدها لسارت ، ولم تبال لأنها أسيرة ارادته .. مثلها فى ذلك كمن يخضع للتنويم المغناطيسى ..

سارا مدة بين صعود وهبوط ، وقد بعدا عن الأبنية حتى وقفه بها سعيد فى مكان سمعت فيه أنين ساقية وخرير ماء فقال لها : « وصلنا يا عابدة .. »

— ٧ —

الاجتماع

فنظرت عابدة الى ما حولها .. فرأت بين يديها ماء يجرى فى

نهر .. عرفت ذلك من لمعان سطحه فى الظلام ، فقالت : « نحن على ضفة الوادى الكبير .. نهر قرطبة .. »

قال سعيد : « اصبرى » وأخذ بيدها وأدخلها دهليزا شديد الظلام بجانب الساقية ، فتلمّسا الحائط حتى أطلا على باب ، فأخرج سعيد من جيبه مفتاحا فتحه به ودخل ، وأغلقه خلفه ، وعابدة تحدق بعينيها من شدة الظلام ، فاذا هى ترى شعاعا ضعيفا ما زال يشتد حتى ظهر ، فرأت نفسها عند باب مغلق .. فتقدم سعيد وقرعه قرعا خاصا ، ففتح له ونظر الى عابدة على شعاع النور ، فرأى سحنتها قد تغيرت لشدة القلق فى أثناء الطريق فأشار اليها أن ترخى النقاب ففعلت ودخل أمامها . ثم أمرها أن تدخل ، ومشى بها الى مجلس فى صدر القاعة فأجلسها على وسادة الى جانبه . وتفرست فى الوجوه فرأت شيوخا وشبانا عرفت بعضهم ، ورأت أناسا بينهم من رجال الدولة المروانية أنفسهم فتهيبت برهة ، ثم سمعت سعيدا يتكلم فقال : « ياقوم .. نحن الآن فى جلسة مقدسة ، وقد أتيت بهذه الأديبة من أهل دعوتنا لتعلموا ان النساء يشاركننا فى النقمة على الحالة الحاضرة .. فالى متى نحن صابرون ؟ »

فنهض رجل من الحاضرين وهو فى عنفوان الشباب ، وقال : « نحن صابرون لصبرك .. قم بنا فاننا قائمون »

قال سعيد : « صدقت .. ولكننى لا أرى العجلة تنفع . ان

الأمر الذى نحن ساعون فيه يحتاج الى اعمال الفكر .. نحن ساعون الى المطالبة بحق ضائع . ان هذا الرجل الذى سمى نفسه خليفة ، وتلقب بأمير المؤمنين ، وقـد استبد بالأحكام وأخرج من المناصب أهلها ، وسلمها الى جمـاعة من الخصيان والعبيد حملوا اليه حمل الأغنام من أقصى الشمال ، فاشتراهم كما يشترى الماشية ، ثم اختصهم بقربه وأغفل أهله وأبناء عشيرته . ولم يبق الا أن يولى القضاء فتى من فتيانه الصقالبـة أو الافرنج .. انه ينفق الأموال فى بنـاء القصور واقامة التماثيل ، ويصنع حجارة البناء من ذهب ، وقد نهى الله عن ذلك (١) ان الذين فعلوا هذا من قبله أضاعوا الدولة والمملكة فتبصروا فى أمركم »

فنهضت عابدة والنقاب لايزال على وجهها وقالت : « انى فتاة لا أعلم علمكم ، ولكننى أعلم ان طول الصبر عجز ، وان المبادرة حزم .. ان عبد الرحمن صاحب هذا البلد قد أفرط فى الاسراف ، وحط من قدر العرب وغيرهم من المسلمين الذين هم أصل هذا الدين وعماده ، فعهد بأكثر مناصب الدولة الى الخصيان والعبيد، واستكثر من هؤلاء حتى غصّت بهم قصـوره .. وشيّد قصر الزهراء على اسم جاريته ، وملأه بالخصيان والجوارى والعبيد . ان فى هذا القصر وحده ثلاثة عشر ألف وسبعمائة وخمسين فتى

(١) المقريزى ـ الجزء الاول

من الخصيان ، وفيه من الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون صبى ، وعدد النساء الصغار والكبار فيه ستة آلاف وثلاثمائة وأربع عشرة امرأة .. ما فائدة الدولة من هؤلاء وهو ينفق عليهم ألوف ألوف الدنانير من مالها .. أتعلمون كم مقدار ما ينفقه ؟.. ان احصاءها فوق طاقتى ، ولكننى أذكر لكم مقدار ما ينفق لاطعام أسماك احدى بحيرات الزهراء .. علمت ان مقدار ذلك فى اليوم اثنى عشر ألف خبزة ، وستة أقفزة من الحمص .. تلك هى نفقة طعام أسماك احدى البحيرات ، فكم يكون مقدار ما ينفق على سائر حيوانات تلك القصور من الخيل ، والأسود ، والكلاب .. بل كم تبلغ نفقات أولئك الألوف من الخصيـان والعبيد . والبليـة الكبرى من كثرة النسـاء لأن كثرتهن تكثر الخصيان .. هل فيكم من يستطيع أن يعرف كم يتكلفن ؟.. كلا.. ولكنكم تعرفون جميعا انها تكاليف باهظة .. »

كانت عابدة تقول ذلك بصوتها الرخيم ، فلما وصلت الى هنا بلعت ريقهـا ، وسكتت برهة ، ثم عادت الى الكلام ، فقالت : « وهؤلاء الخصيان المجلوبون بالشراء أصبحوا الآن كبار رجال الدولة ، كصاحب الخيل ، وصاحب الطراز ، وقـد اتخذ منهم جنده وحاشيته ، وجالسهم وقربهم وأصبح اذا أراد أن يكرم وافدا ، بعث منهم خصيا يستقبله .. كما فعل اليوم بانفاذه ياسرا وتمّاما لاستقبال رسل ملك القسطنطينية . وقد اتخذ من العبيد

أيضا جندا وحاشية ، وأهمل العرب والبربر الذين فتحوا هـذا البلد وجاهدوا فى سبيل الاسلام . ان أعماله هذه دليل على قرب سقوط هـذه الدولة . ولا يغرنكم ما تسمعون به من الذهب ، ولا ما تشاهدونه من أسباب الرخاء والترف ، فقد كان مثل ذلك أو أكثر منه فى الدولة العباسية على عهد الرشيد والمأمون ، ولكنهم أهملوا أهل عصبتهم ، واعتمدوا على الأتراك يحاربون بهم .. فأصبح النفوذ للأتراك وهو مصير الخصيان هنا ، ان لم تبادروا بمنعه . ويكفى لفتاة مثلى أن تقول ذلك ، واذا رأيتم انى أستطيع عملا فكلفونى به .. والسلام »

وكانت عابدة تتكلم والحاضرون ينصتون كأن على رءوسهم الطير ، وقد أحسوا باهمالهم .. فنهض منهم شاب متحمس وقال : « انى أفدى الأمة بنفسى ، فانتدبونى للقتل أو الفتك .. ان أهلى وعشيرتى يعدون بالمئات .. وهذا دمى بين أيديكم .. »

وتلاه صائح بمثل قوله ، وعلت الضوضـاء ، فوقف سعيـد وقال : « لا داعى بنا الى العجلة ، سأخبركم بالوقت المناسب . لكننى أرغب اليكم أن تجعلوا نصب أعينكم ان هذه الدولة لابأس من بقائها ، وانما العيب فى اميرها ، ولا نرى ولى العهد الا مثله فان أقرب المقربين اليه خصى صقلبى هو جعفر ، فاذا صارت الخلافة اليه هل يرجى منه غير ما نراه من أبيه ؟ لقد أعمى عبد الرحمن الناصر أبصار الناس بالأبهة والزخارف .. أعمى أبصار

الناس بالقصور التى بناها لجاريته . وابنه الحكم سيكون مثله .. ولا بد من النظر لمن يصلح للخلافة سواهما .. على انى أشكر لهذه الفتاة التى أتتنا وبثّت فينا روح الهمة والنشـاط ، وهى نفسها سيكون لها شأن فى هذا العمل الجليل .. »

وبعد قليل انفضّت الجلسة ، وقد أقسم كل منهم على كتمان الأمر والثبات ، وعاد سعيد ومعه عابدة من حيث أتيا ، حتى اذا وصل الى منزله قال لها : « لقد أعجبتنى لأنك لم تذكرى دولة العبيديين ، ولم تقولى شيئا عن الشيعة لئلا يرتابوا فى أمرنا .. »

فقالت عابدة : « ألم أقـل لك انى أشعر كأنى عضـو من أعضائك ، فلا أقول سـوى ما توحيه الىّ ، ويكفى انك تريد ذلك وان لم تصرح به ، والآن .. هل تسمح لى بالانصراف ؟ »

قال سعيد : « موعد لقائنا يوم ذهابنا الى الأمير عبدالله ، نقدم له كتاب « العقد الفريد » وسوف أبعث اليك بالخبر فى حينه »

فحركت عابدة رأسها ايجابا ، وابتسمت وانصرفت وهى تلتفت اليه ، وكان خادمهـا الخصى فى انتظـارها فى الخارج ليسير فى خدمتها الى منزلها

— ٨ —

المناجاة

انصرفت عابدة وسعيد يشيّعها ببصره ، ثم وقف برهة وهو

غارق فى بحار الهواجس ينظر الى الأرض ، تارة يحك ذقنه بسبابته ، وتارة أخرى يتشاغل باصلاح قبعة كان يلبسها على رأسه .. والخادم واقف وبيده المصباح ينتظر أمره ، ولا يجسر على أن يخاطبه تهيبا مما كان يبدو على وجهه من مظاهر الاهتمام والارتباك . ثم انتبه سعيد لنفسه وسار الى غرفة النوم ، وأشار الى الخادم أن يضع المصباح هناك وينصرف ..

ثم نهض سعيد ، وأغلق باب الغرفة واستلقى على فراشه ، ولم يبدل شيئا من ثيابه ، كأنه لاينوى النوم فى تلك الساعة لما قام فى خاطره من الذكريات . وظل مستلقيا برهة وهو غارق فى التفكير، ثم جلس فجأة ، وأخذ يناجى نفسه قائلا : « ماذا أفعل ؟.. انها تحبنى كثيرا .. ولكننى لا أشعر أنى أحبها .. بل لا أستطيع أن أحبها مع انها جميلة وذكية و .. لماذا لا أحبها ويستريح قلبى من التفكير فى سواها ؟.. » وضرب جبينه بكفه وصرّ على أسنانه ، ونهض وأخذ يمشى فى الغرفة ، ثم وقف وقال : «مسكينة عابدة .. انها جميلة ، وأديبة ، وذكية ، وهى تحبنى ، بل هى تهيم بى وتتفانى فى سبيل رضاى .. فلماذا لا أحبها .. لماذا لا أحبها وأنزع صورة تلك القاسية القلب ، الشامخة الأنف من ذهنى .. نعم .. ينبغى لى أن أبغض هذه وأرذلها وأطرد طيفها من ذهنى .. آه انى اذا فعلت ذلك فأنا سعيد البطل الحازم ، وأكون أهلا للأمر الذى يحسبنى هؤلاء القوم أسعى اليه ، وانى انما

مت هنا لنصرة المظلومين ، ولدفع الظلم عن المظلومين .. نعم .. بغى أن يكون هذا غرضى الوحيد .. نعم .. اذا طردت ذلك الخيال من ذهنى .. خيال تلك المتكبرة القاسية .. اذا نزعتها من فكرى وأحببت عابدة .. اذا فعلت ذلك يرتاح قلبى وأتفرغ للعمل العظيم الذى يتوقعه الناس منى .. نعم .. هكذا يجب أن أعمل ، هكذا يجب أن يكون سعيد القائد الحكيم الحازم .. »

قال سعيد ذلك وأخذ يخلع ثيابه ، فخلع الفراجية وعلقها على وتد فى الحائط ، ثم نزع قبعته من على رأسه ودار وهو لايدرى أين يضعها لاضطراب ذهنه ، فرمى بها الى الأرض ، وأطفأ المصباح ، واستلقى .. فعادت اليه هواجسه ، وهجره النوم ، وتراكمت عليه الخيالات .. فوضع الغطاء فوق رأسه كأنه يختبىء من هذه الخيالات فلم يرها الا تزداد ، وازداد انتباهه حتى سمع دقات قلبه بأذنيه .. فصبر حتى أخذته سِنَة من النوم برهة ، فرأى حلما أزعجه ، فوثب من فراشه كالمجنون وهو يقول : « لا لا . .يجب أن أحب عابدة التى تكاد تعبدنى .. وأنزع تلك الصورة من ذهنى .. والا فما أنا سعيد كما يسموننى .. ما بالى لا أشعر انى أستطيع ذلك .. ما هذا الخيال الذى يتردد أمام عينى .. اذهب عنى .. دعنى وشأنى ، انى قد عزمت على السلوان كيف لا .. انى أشعر بقوة أزيح بها الجبال ، وأغالب أعقل الناس وأدهاهم ، فكيف لا أستطيع امتلاك قلبى ؟.. ماذا أرى ؟.. هذا

خيالها .. » وأطبق كفّيه على عينيه ، كأن أمامه شبحا لايريد أن يراه وقال : « اذهبى عنى .. دعينى وشأنى ، قد آن لى أن أرجع الى رشدى ، وقد بلغت الأربعين من عمرى .. فيجب أن أنسى عواطف أبناء العشرين والثلاثين .. نعم .. يجب أن أنساها لأنها نسيتنى وتعلّقت بسواى .. تعلقت بسواى ؟.. اذن هى احتقرتنى فيجب أن أنتقم منها .. أنتقم منها ؟.. لا .. لا .. لعلها معذورة واذا رأتنى تتذكر الماضى وتعود الىّ .. هل يكون ذلك .. وا فرحتـاه ، انى أراها تبتسم لى وتهم بمعانقتى .. آه ما أجمـل رضاها انه ينسينى عابدة وسائر العباد .. هل يجود علىّ الزمان بذلك؟ نعم.. لابد أن يجود.. سأجعله يجود رغم أنفه .. سأضحى بكل شىء فى سبيل الوصول الى تلك الحبيبة ، فاما أن أنالها أو أنتقم منها ومن ..» وسكت لأنه سمع حركة فتوهّم أن عابدة قادمة نحوه .. فوقف ، والظلام حالك ، وهو يتوقع أن يسمع قرع الباب ، فلم يسمعه ، فعلم انه واهم .. ولكنه عاد الى تذكر عابدة ، فقال : « عابدة المسكينة .. هل أهملها ؟.. لا .. بل أجعلها سعيدة مع سواى .. أو .. ولكن بعد أن تخدمنى فى تحقيق غرضى .. »

— ٩ —

السحر والتنجيم

قضى سعيد معظم الليل فى أمثال هذه الهواجس ، ولم ينم الا

عند الفجر بعد أن تعب وخارت قواه ، وأصبح فى اليوم التالى فعاد الى عمله .. وشغل عن هواجسه بمقابلة الزائرين ، وهو على أحر من الجمر فى انتظار يوم الاحتفال ، وقد أخـذ فى التفكير والتدبير لينتفع من الاجتماع فى ذلك اليوم

وأتته عابدة فى أثناء الانتظار تتذرع الى رؤيته بالسؤال عن وقت الاحتفال، فأجابها بأنه لايزال يترقب معرفة الموعد. فمكثت عنده حينا تتشـاغل باطلاعها على الكتب وهو يبـدى سروره برؤيتها ، وفى ذهنه تردد لم يظهره لها لأنه كان قوى الارادة ، كبير المطامع ، لايبالى بما يقف فى طريقه نحو هدفه ، ولا بما قد يرتكبه فى ذلك السبيل من الكبائر ، فانتهز فرصة اجتماعه بعابدة فى أثناء تلك الفترة لتهيئة المعدات التى ينوى اعدادها لتحقيق غرضه ، وهى توافقـه ولا ترى غير ما يراه . وفى جمـلة تلك المعدات كتاب قديم أخرجه منخزانة وأخذ يقلّب صفحاته ، وفيها رسوم وأشكال أشبه بالطلاسم .. وهى لا تزداد بذلك الا تعلقا به وانقيادا له ، حتى صارت تعتقد انه يستطيع كل شىء

وبينما هما فى ذلك أنبأهما جوهر الخادم بمجىء الفقيه ابن عبد البر ، فخفّ سعيد لاستقباله . فلما دخل ورأى عابدة فرح بها ، ووافق وجودها غرضا جاء من أجله .. فحيّاها وسلّم عليها سلام من يعرفها ، فردت عابدة التحية بأدب وحشمة زادتها رفعة فى عينيه .. فوجّه كلامه الى سعيد قائلا : « أظن أننى أتيت فى وقت

غير مناسب ! » ..

فأظهر سعيد سروره وقال : « بالعكس ياسيدى .. فقد جئت وقت الحاجة اليك .. »

فنظر الفقيه الى الكتاب الذى بين يدى سعيد وقال : « لعلك عثرت على كتاب جديد ؟ »

قال سعيد : « كلا يامولاى .. ان هذا الكتاب قديم » وجعل يقلب فيه فوقع بصر الفقيه على رسوم وأشكال اعتاد أن يرى مثلها فى كتب السحر ، فقال : « وساحر أيضا ؟.. انك رجل نادر المثال » ..

فقال سعيد : « لا تستغرب شيئا أيها الفقيه فان الانسان اذا جدّ وجد ، ولا أرانى أعرض شيئا لا يستطيعه سواى .. وعلى كل حال فليس لى ما للفقيه من العلم الواسع فى الفقه وأصوله ، وهو الخطيب المفوّه .. »

فقطع الفقيه ابن عبد البر كلامه بطريقة يوهمه بها أن شيئا خطر له فى تلك اللحظة ، ولم يكن فى ذهنه من قبل ، مع انه جاء من أجله ، فقال : « ليس لى شىء من ذلك .. وقد ذكّرتنى أمر الخطاب » ..

فأدرك سعيد ما فى نفس الفقيه فسبقه الى القول : « انما قلت ما قلته تمهيدا لسماع خطابك .. هل أتممته ؟ »

فمد الفقيه ابن عبد البر يده الى جيب قفطانه ، وأخرج منديلا

فيه لفافة ففضّها وهو يقول : « هذا هو الخطاب .. ولم يأت كما كنت أحب .. ولكن لابأس به »

فأومأ سعيد الى عابدة ، فقالت للفقيه : « لا أظن اننا نستحق أن نسمعه قبل مولانا أمير المؤمنين .. ! »

فقال الفقيه وقد أثّر قولها فيه : « كيف لا ؟.. اذا شئت تلوته عليك ، ولكننى لا أراه أهلا لاعجاب أديبة مثلك .. »

فابتسمت عابدة وأشارت الى الفقيه أن يقرأ اذا شاء ، فقال : « أتلوه عليكما على سبيل التجربة ، واذا بدا لكما انتقاد فنبّهانى اليه .. »

فأشار سعيد بعينيه وشفتيه ان الفقيه أكبر من أن يكون موضع نقد ضعاف مثلهما ، ثم أصلح الفقيه موقفه ، وأخذ يتلو الخطاب كما يتلى فى حضرة الخليفة .. وسعيد وعابدة صامتان مصغيان يبديان الاعجاب عند بعض المواقف ، وهو يجوّد .. وما أتى الفقيه على آخر الخطاب حتى امتلأ اعجابا بنفسه ، وسعيد وعابدة يطنبان ويعجبان حتى قال سعيد : « ان هذا الخطاب اذا قدّره أميرالمؤمنين حق قدره جعلك قاضى القضاة أو شيخ أهل الفتوى»

فحنى الفقيه رأسه تواضعا ، وهو فى الحقيقة يعتقد فى نفسه أضعاف ما سمعه ، ولكنه خاطب سعيدا قائلا : « ان ذلك يرجع الى التوفيق ، فاذا وفقت الى ساعة سعيدة وآزرتنى بدعائك نجحت ان شاء الله . ولكن هذا كتاب « الطوالع » بيدك فأخبرنى

عما سيكون من حظّى بعد تلاوة الخطاب .. »

فقال سعيد وهو يفتح الكتاب : « ان ذلك يتوقّف على اليوم الذى سيقام فيه الاحتفال .. اذ أن لكل يوم طالعا ، قد يوافق نجمك وقد لا يوافقه .. هل تعرف متى يكون الاحتفال ؟ »

قال الفقيه : « حددوا له يوم السبت القادم الموافق ١١ ربيع الأول » ..

فأخذ سعيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأ ، ثم يعيد القراءة ، ويعيد التقليب ، وقد ظهرت البغتة فى عينيه وهو يقول : « هل أنت متأكد من أن الاحتفال سيكون يوم السبت ؟ لعلك أخطأت»

فاختلج قلب الفقيه فى صدره خوفا ، وقال : « لعل ذلك اليوم لايوافق طالعى ؟ »

قال سعيد : « لا أعنى ذلك ، ولكننى أحب أن أعرف الذين سيحضرون ذلك الحفل، فان الطالع يتغير بتغير الجواذب والدوافع من الطوالع الأخرى » ثم وصل الى صحيفة وقف عندها طويلا ، وقال : « ان طالعك اذا استقل لا خوف عليه فى أى يوم كان ، أما اذا زاحمه طالع آخر أرى صفته فى هذا الكتاب ، وكان ذلك فى يوم السبت ، فقد يصيبه ضرر .. ولكن ذلك غير مؤكد فتوكل على الله ، واعلم انك أحسنهم جميعا .. وانما أرغب اليك متى أحرزت ذلك المنصب الرفيع أن لا تنسى صاحبك سعيدا »

فأقلق الفقيه ذلك الارتياب ، ولكنه اطمأن للعبارة الأخيرة ،

فضحك وهزّ رأسه استخفافا ، ولسان حاله يقول : « كيف أنساك ؟ » وزاد ذهنه تعلقا بالظفر بهذا المنصب

وبينما هم فى ذلك ، اذ دخل ياسر كبير فتيان عبد الرحمن الناصر، وكان قد أكثر من التردد على سعيد بعد مقابلته الأخيرة ، وأفضى اليه بأمور زاد فرحه بها وزادت الروابط بينهما سرا ، ورفعت الكلفة.. ولكن سعيدا تظاهر أمام الفقيه بالاحتفاء بياسر، وبالغ فى احترامه واكرامه ، وأحضر له مقعدا ليجلس عليه ، والفقيه ابن عبد البر لايزال قابضا على اللفافة ، فهمّ بوضعها فى جيبه، وأخذ فى السلام على ياسر ، فآنس منه حفاوة واكراما فوق العادة ، فاستأنس به ، فقال سعيد لياسر : « هل يرغب الأستاذ فى خدمة أقوم بها ؟ »

قال ياسر : « كلا .. ولكننى تذكرت سؤالك عن موعد الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية لأنك ترغب فى حضوره ، وكنت قد جئت على بغلتى الى هذه الجهة لغرض لى .. فرأيت أن أمرّ بك وأخبرك ان الاحتفال سيكون فى يوم السبت القادم ، وقد سرّنى انى لقيت الفقيه ابن عبد البر هنا لأوصيه بمرافقتك الى القصر الزاهر حيث يكون الاحتفال » ..

قال سعيد : « أشكرك ياسيدى على هذه العناية » والتفت الى الفقيه وسأله عن موضع اللقاء ، فقال : « نلتقى فى المسجد بقرب باب الجنان المطل على الرصيف فوق الوادى الكبير ، وهو

أقرب أبواب القصر الينا على ما أعتقد .. »

قال سعيد : « حسنا .. سأوافيك الى هناك صباح يوم السبت القادم ان شاء الله »

وهمّ ياسر بالانصراف ، فاستوقفه الفقيه بقوله : « هل كنت تعرف قبل الآن أن سعيدا له دراية بعلم التنجيم والطوالع ؟ »

قال ياسر : « وأعرف غير ذلك انه طبيب وكيميائى .. »

فبغت الفقيه لقول ياسر وهزّ رأسه وقال : « وكيميائى أيضا ؟ انه حقا لعبقرى .. »

وكانت عابدة فى أثناء ذلك مشغولة بكتاب فى يدها تقلّب صفحاته ، وكلما سمعت مديحا فى سعيد اختلج قلبها فرحا به ؛ وتنهدت تنهدا عميقا

وانتبه الفقيه لها فى تلك اللحظة ، فقال لياسر : « وهل عرفت هذه الفتاة الأديبة ؟ لا أظن أن فى قصور أمير المؤمنين فتاة فى مثل أدبها وعقلها »

فالتفت ياسر الى الفتاة وقد خجلت من ذلك الاطراء ، وعلت وجهها حمرة الخجل وأبرقت عيناها ، فقال : « هل تعرف الشعر والأدب ؟.. »

قال سعيد : « نعم ياسيدى .. انها تحفظ كثيرا من أشعار العرب وأمثالهم وأخبارهم »

قال ياسر : « ليس يوجد بين نساء قصر أمير المؤمنين من

تحفظ الشعر الا الزهراء ، ولذلك فانها أقرب جواريه اليه كما تعلمون ، لأن مولانا عبد الرحمن الناصر كثير الشغف بالأدب وأهله . على ان معرفتها قليلة بجانب ما تذكره عن هذه الفتاة ..»

فندم الفقيه ابن عبد البر على توجيه نظر ياسر الى عابدة مخافة أن يسعى فى أخذها الى الخليفة ، وهو يحب أن تكون للأمير عبد الله فيكون له حظ من أدبها ، فغيّر الحديث واستأذن فى الانصراف على موعد اللقاء يوم السبت التالى .. وبعد قليل انصرف ياسر بعد أن ودع سعيدا وقد تفاهما

— ١٠ —

الاحتفال

وأخذ أهل قرطبة يتأهبون لاستقبال رسل ملك القسطنطينية فى البناء المعروف بالقصر الزاهر ، أحد أبنية القصر الكبير .. لأن هذا القصر كان مؤلفا من عدة قصور كما تقدم ، وهو يقع فى الطرف الغربى من قرطبة ، يطل على الوادى الكبير ، وهو نهرها الذى يجرى من الشرق الشمالى الى الغرب الجنوبى . والقصر يشغل مساحة كبيرة تتخللها البساتين والحدائق ، والأحواض ، والبرك ، والبحيرات ، والقصور ونحوها . ويحيط بها جميعا سور له بضعة أبواب : منها بابان فى الجنوب يطلان على النهر ،

هما باب الجنان والسطح ، وواحد فى الشمال اسمه باب قورية ، وآخر فى الشرق هو باب الجامع . والأخير فى الغرب ويقال له باب الوادى . والاثنـان الأولان يشرفان على النهر ، وبينه وبينهما رصيف عريض يفصل قرطبة عن النهر ، يخرج اليه الوجهاء وأهل الدولة للتنزه بقرب الوادى الكبير (النهر)

وفوق النهر جسر فخم (كوبرى) يصل بين قرطبة وأرباضها الجنوبية طوله ثمانمائة ذراع ، وعرضه عشرون ذراعا ، وارتفاعه ستون ذراعا ، وعدد قناطره ثمانى عشرة قنطرة ، وفوقه أبراج عددها تسعة عشر برجا ، وهو يعد من مفاخر قرطبة ، ولا يزال حتى الآن من آثارها الفخمة

وكان منزل سعيد فى الأرباض الجنوبية ، ولابد له فى ذهابه الى القصر من العبور على ذلك الجسر . فلما كان اليوم المحدد ، لبس ملابس فاخرة ، كى يسترعى انتباه أهل قرطبة ، وبها شبه من ملابس العلمـاء والأطباء مع فخامة واتقان ، ولا سيما العمامة الكبيرة ، مع ان أهل الأندلس قلما كانت لهم عنـاية بالعمائم . وغرس فى عمامته قلم الكتابة وتمنطق فوق القفطان بمنطقة من جلد غرس فيها دواة من الفضة ، واكتحل بالأثمد اكتحالا كثيفا . وركب بغلته وساقها يطلب باب الجنان من أبواب القصر ، وسار خادمه فى ركابه . وكان ركوب البغـال فى الأندلس من دلائل الجاه والثروة . فقطع سعيد مسافة وهو يطلب الجسر ، فعرف قربه من

فى ذلك الوادى خمسة آلاف رحى (١) تطحن الحنطة وغيرها ، وجميعها تدور بقوة اندفاع الماء

وبعد قليل أشرف سعيد على الجسر، فرأى الأقدام قد تزاحمت فيه لكثرة الوافدين على القصر ، أو على الرصـيف لمشـاهدة الاحتفال بأولئك الرسـل . ورأى ما على الجسر من الأبراج فى الجانبين، بين البرج والآخر ثمانون ذراعا ، وعليها الأعلام منصوبة تخفق مع الريح .. فقطع الجسر بين الجماهير ، والشمس لم تتكبد السماء بعد ، فوصل الى الرصيف وقد تجمهر فيه الناس رجالا ونساء وأطفالا ، بين راكب وماش ، وواقف على طول الرصيف وخاصة بقرب الجسر .. لأن الرسل سيمرون عليهم أثناء انتقالهم الى منزل ولى العهد فى الربض بعدوة قرطبة الى القصر الكبير وقد تفرق الجند فى الطرقات لمنع الزحام وخاصة على الجسر

فظل سعيد سائقا بغلته فى محاذاة الرصيف الى الجامع ، فلم يجد الفقيه ابن عبد البر هناك ، ولكنه وجد خادما صقلبيا واقفا فى انتظاره .. فلما رأى سعيدا قال له : « ان مولانا الفقيه سبقك الى السطح المشرف فوق الباب خلف هذا الجامع ، ويرجوك أن تذهب الى هناك لتشرف من ذلك السطح على النهر والجسر ، والرصيف والقصر جميعا »

فساق سعيد بغلته الى ذلك الباب ، وعليه سطح مشرف لا مثيل

(١) المقريزى ـ الجزء الثانى

الوادى مما سمعه من دوى الرحى بجواره .. فقد ذكروا انه كان له فى العالم (١) ، فتحوّل وترك البغلة للخادم وصعد الى السطح من سلم بجانب الباب ، فرأى الفقيه جالسا فى انتظاره ، فوقف له ورحب به ، وقال : « أظننى أتعبتك بالمجىء الى هنا ، ولكننى أعلم انك تسرّ بهذا المنظر الجميل .. »

فوقف سعيد الى جانبه وتلفّت الى ما يشرف عليه ، فاذا هو يرى النهر وفيه الزوارق من جهة الجنوب ، وفوق الجسر ، وعليه الأعلام تخفق فوق الأبراج ، وقد تزاحم الناس واحتكت مناكبهم، وبينهم العربى ، والصقلبى ، والبربرى ، والمستعرب (وهو فى اصطلاحهم الاسبانى الذى يتكلم اللغة العربيـة) من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، يتخللهم الباعة بالأطبـاق على رءوسهم ، وفيهم من يحمل طعاما أو فاكهة أو باميشا .. والسقاة يحملون جرار الماء على ظهورهم ، ينادون : «ياعطشان .. سبيل» وبين هذه الجموع من الناس رجال الجند تتشابه ملابسهم ، وفيهم الصقالبة البيض والرجّالة العبيـد ، وقد رتبوا صـفوفا حسب رتبهم وأجناسهم . فوقف صف من العبيد يلبسون الجواشن والأقبيـة البيضاء ، وعلى رءوسهم الخوذات الصقلبية ، وفى أيديهم التراس الملونة على طول الجسر الى باب الجنـان من أبواب القصر .. يتخللهم فرسان منهم

(١) المقريزى — الجزء الاول

— ١١ —

القصـور

وأومأ الفقيه الى سعيـد أن يلتفت نحو الشمال الغربى .. ليرى أبنية القصر وبساتينه ، فرأى ما بهره من القصور المختلفة الأشكال ، وبينها الحدائق والبساتين ، تتخللها البرك والبحيرات والأحواض المصنوعة من الرخام المنقوش ، وعليهـا تماثيل من الرخام أو الفضة على أشكال مختلفة ، يجرى ماؤها من أنابيب ، بعضهـا كأفواه الحيوانات .. أكثرها من الرخام ، وبعضها من الفضة والبعض الآخر من الذهب تتلألأ عن بعد فى أشعة الشمس. وبعض الأحواض عليها التماثيل من النحاس المموه على أشكال جميلة ، والماء ينساب من جوانبها فيتلون رشاشه بألوان قوس القزح . فانبهر سعيد من تلك المناظر لأنه لم تسبق له رؤيتها من ذلك السطح المشرف فقال : « فى الحقيقة ان الخليفة عبد الرحمن الناصر قد أبدع فى بناء هذا القصر واتقانه .. وأغرب ما فيه هذه الأحواض المنقوشة وعليها التماثيل ، يتفجر الماء من جوانبها أو رءوسها أو أفواهها .. هل هو ماء النهر حمل اليها ؟ »

فضحك الفقيه وقال : « ماء النهر ؟.. وهل يصعد الماء من هذا الوادى الى هذه القصور ؟.. انه ماء مجلوب من هـذه الجبال العالية على أبعاد شاسعة .. وقد أنفقوا فى سبيل جلبه ما لا يقدر

من الأموال .. يكفى أن تتصور جلب هذا الماء من تلك الجبال الى هذه القصور فى قنوات من الرصــاص ، فكم حفــروا من صخور ، وبنوا من سدود لكى يجرى الماء بانتظام فى الأنابيب .. ثم تصور توزيع الماء بعد وصوله الى هذه القصور والبحيرات والبرك والصهاريج ، حتى يتدفّق من تماثيل الفضة ، أوالرخام ، أو النحاس المموه ، وبعضه يجرى من أنابيب الذهب . غير ما أنفق فى نقش هذه التماثيل الرخامية فوق الأحواض »

كان الفقيه ابن عبد البر يتكلم ، وسعيد مطرق يفكر ، حتى فرغ الرجل من كلامه ، فقال له : « لايدهشنى مقدار ما أنفق من الأموال مثلما يدهشنى صنعه لهذه التماثيل .. فهــل أفتيتم له بعملها ، وهى محرمة على ما أعلم ؟ »

فهزّ الفقيه رأسه وقال : « ومن الذى أفتى له ؟.. انه هو الذى أفتى لنفسه .. »

ثم استوقفهما صوت النفير ، فالتفتا نحو الجسر ، فرأيا الناس يتسابقون نحوه لمشــاهدة أولئك الرســل ــ وقد أقبلوا على جيادهم وعليهم الملابس المذهبة تتألق فى أشــعة الشمس فوق السروج المفضضة ــ وقد أحاطت بهم كوكبة من الوصفاء من شباب الصقالبة .. عليهم الدروع السابغة ، والسيوف المزينة ، وقد امتطــوا جيادا عليها اللجم المحلاة بالذهب . وقد بالغ عبد الرحمن الناصر فى اظهار الأبهة والعظمة ارهابا للأعداء

فأراد سعيد أن ينزل من السطح ، فقال له الفقيه : « الى أين ؟ ان الطريق مكتظ بالناس ، ولا سبيل لنا فى الذهاب الى القصر الآن ، فالأفضل أن نمكث هنا ريثما يمر الركب ثم ندركه على عجل ، أو نسبقه من طريق قصير أعرفه .. أنظر الى ما أراده أمير المؤمنين من الارهاب بحشد خيرة رجاله فى طريق أولئك الرسل . ان رجّالته العبيد واقفون على الجسر صفوفا ، وهذه كوكبة من الفتيان الأصاغر تحيط بالرسل .. ألا ترى هؤلاء الروم قد أحنوا رءوسهم خوفا ورهبة ؟ أنظر الى باب الجنان ، كم نصب عليه من الأعلام ؟ وكم وقف بجانبيه من الفرسان وعليهم الملابس الثمينة ؟ وهؤلاء ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة قد لبســوا البياض وبأيديهم السيوف ، ووراءهم ــ ابتداء من هذا الباب حتى الباب الثانى من أبواب القصر ــ صف من الرماة وقد تنكبوا قسيّهم وجعابهم . واذا أمعنت النظر فى الوقوف بالباب الثانى وما وراءه ، رأيت طائفة أخرى من الصقالبة الأكابر فى ملابس أثمن وأبهج .. ولا ريب عندى ان أولئك الرومان قد دهشوا من هذه المناظر . وسترى أغرب من ذلك متى ذهبت الى القصر ، ورأيت ما أعدوه هناك من الرياش والأثاث ، ومظاهر الملك وأبهة الدولة .. »

قال سعيد : « أخشى أن يبدأ الاحتفال قبل وصولنا فيذهب سعينا هباء ؟ »

فهزّ الفقيه رأسه استخفافا وقال : « لا يبدأون قبل وصول

الخطباء .. ومع ذلك فانى آخذك من طريق قصير نصل منه الى القصر قبل وصول الناس اليه .. »

قال سعيد : « افعل .. اذا شئت .. »

فتحوّل الفقيه ومعه سعيد .. فلما صارا فى الطريق ، أشار الى سعيد أن يترك بغلته ويسير معه ماشيا لأن ذلك أسهل عليهما

فأشار سعيد الى جوهر خادمه أن يحتفظ بالبغلة ، ومشى مع الفقيه . فسار به فى البساتين بين الأشجار والرياحين ، وقد سرّه المشى هناك بدلا من الركوب ، ليتمكن من رؤية كل شىء .. وقد وقف طويلا عند بعض الأحواض الرخامية يتأمل انسياب الماء من جوانبها ، أو من أواسطها فى الأنابيب المختلفة الأشكال والألوان، وحولها البستانيون يتعهدونها بالاصلاح والرى والتنظيم . ولاحظ الفقيه اعجاب سعيد بما يشاهده هناك ، فقال له : « أراك يا سعيد قد دهشت مما تراه فى هذا القصر من البذخ ، فكيف اذا دخلت قصر الزهراء ورأيت أبهاءها وقاعاتها وحدائقها وقبابها ؟..كيف اذا رأيت القبة التى صنعت قراميدها من الذهب ؟.. »

فصاح سعيد : « قراميدها من الذهب ؟.. انى أستغرب ذلك من أمير المؤمنين بعد أن عهدت اليه الخلافة .. فصار نائبا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الناهى عن اتخاذ ذلك .. »

فأومأ اليه الفقيه بسبابته على شفته السفلى أن : « دع هذا الكلام الآن .. »

- ١٢ -

القصر الزاهر

وظل سعيد والفقيه يتنقلان من بستان الى بستان ، ومن حديقة قصر الى حديقة قصر آخر وقد سبقا الموكب ، حتى أطلا على القصر الزاهر . وهو من أجمل أبنية القصر الكبير ، فانتبه سعيد على الخصوص لواجهته ، فرأى عليها نقوشا كالوشم على المعصم فى أشكال جميلة ، بين أقواس منحوتة على أشكال هندسية عربية ، تتخللها الأبواب من أسفل، وهى فى غاية ما يكون من اتقان النقش . ويزينها فى الطبقة العليا النوافذ والأحنية والقناطر كالرواق القائم على أساطين الرخام ، وعلى تيجانها نقوش وكتابة ، وفوق التيجان الأقواس قد قطّعت سقوفها مربعات متداخلة ورسمت فيها الآيات والدعوات حفرا أوتصويرا . وعلى أفاريز النوافذ أبيات من الشعر مذهبة ، والأفاريز من الشكل المقرنص وتنتهى تلك الطبقة بطنف بارز هو امتداد السطح الى الخارج ، وعليه نقوش فى غاية الجمال . وحول النوافذ زجاج ملون مصنوع على أشكال هندسية فى أجمل زينة

لم يستطع سعيد التفرس فى ذلك البناء طويلا لما رآه ببابه من الحرس وقوفا ، وهم من خاصة الفتيان الأكابر والمقدمين .. عليهم الملابس المحلاة بالقصب ، وعلى أكتافهم الظهائر المذهبة ، وعلى

رءوسهم قلنسوات هرمية الشكل ، يزينها الطراز المذهب ؛ وقد تقلدوا السيوف المذهبة ، وهم نخبة الرجال قامة وجمالا وهيبة ، مما يلفت الأنظار .. فتهيّب سعيد من تلك العظمة ، ولم يكن يتصور أبّهة الملك تبلغ الى هذا الحد ، فقال فى نفسه : « كيف يكون اذن البهو الداخلى الذى أعدوه لاستقبال الرسل ؟ ! » .

ولم يستطع دخول القصر الا بعد أن رأى الحرس رفيقه الفقيه ابن عبد البر ، وتحققوا انه من حاشية الأمير عبد الله وصنيعة الحكم ، فدخل وتبعه سعيد ، فمشيا فى طرقات بين الأشجار مفروشة بالأزهار والرياحين ، حتى بلغا الباب الخارجى وقد فُرش من عتبته حتى الدهليز وصحن الدار ، وهو البهو الخارجى ، بأنفس البسط وأفخر الأرائك ، وظلّلت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج وأثمن الستائر

وصعد سعيد ورفيقه من ذلك الصحن على بضع درجات من الرخام المذهب الى بهو واسع ، قد نقش سقفه وأفاريزه بالذهب والألوان الزاهية ، أكثرها الأحمر ، والأزرق ، والأصفر . وقد جللت جدرانه بالديباج ، وفرشت أرضه بالسجاد الثمين ، ونصبت المقاعد والكراسى فى جوانب البهو على حسب الرتب والمناصب

وفى صدر البهو سرير الخليفة من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت ، فوقه قبة فيها نقوش وأبيات على أبدع تصوير . وقد فاحت رائحة العنبر من مبخرة مذهبة نصبت فى بعض جوانب

البهو . ولم يؤذن بدخولهما هذا المجلس لأن الخليفة لم يكن قد وصل بعد .. فوقفا حائرين وسعيد يتفرس فى كل شىء ، ويعمل فكره فى كل شىء .. ثم لاحت منه التفاتة فرأى ياسرا ينظر اليه ، فأشار سعيد انه يريد الدخول فتقدم ياسر وقال له : « لا يجوز الدخول قبل مجىء الخليفة ، ولكن لابأس من دخولكما خلسة من باب سرى ، فتجلسان فى مكان لايراكما فيه أحد ، ومتى انتظم عقد المدعوين ، تجلسان فى هذا المكان مع جماعة الفقهاء » وأشار لهما الى المكان ..

فسرّ سعيد لهذه الفرصة ، ودخل ومعه الفقيه ابن عبد البر ، حتى وقفا وراء أحد الأعمدة فى آخر البهو ، بحيث يريان كل قادم ، ولا يراهما أحد

ولم تمض برهة حتى سمعا لغطا ورأيا الخصيان فى حركة ، فعلم الفقيه ابن عبد البر أن الخليفة عبد الرحمن الناصر قادم ، فتهيّب وظهرت الدهشة على وجهه . فأدرك سعيد ذلك ، فالتفت اليه وقال : « أظن أن مولانا أمير المؤمنين قادم ؟ »

فأومأ الفقيه ابن عبد البر برأسه أن : « نعم .. »

ثم رأياه مقبلا وقد تزيّا بزى الخلفاء ، فنظر سعيد الى الفقيه كأنه يستفسره ، فقال له بصوت خافت : « لو دخلت على أمير المؤمنين منذ بضع عشرة سنة لرأيت ملابسه تختلف عنها الآن ، ولم تر هذا القضيب بيده ، فانه قضيب الخلافة .. ولم يكن خليفة

الا منذ ذلك الحين .. ولذلك تراه الآن يلبس العمامة المرصعة بالجواهر ويحمل القضيب بيده . وهذه بردته مثل بردة سائر الخلفاء ، لكنه جعلها بيضاء تشبها بملابس أقربائه بنى أمية بالشام . وترى تحت البردة قباء من الوشى ، وهى من ملابس الأمويين فى أيام دولتهم بالشام »

كان الفقيه ابن عبد البر يتكلم بصوت منخفض ، يحذر أن يسمعه أحد لخلو القاعة من الناس وهدوء المكان ، وسعيد شاخص ببصره الى عبد الرحمن الناصر يتبيّن ملامحه ويستطلع فراسته ، فرآه أبيض اللون مشربا بحمرة ، أزرق العينين .. وعلى محياه هيبة وقوة ، وقد مشى وبيده قضيب الخلافة ، والجلال يتجلى فى جبينه والذكاء ينبعث من عينيه ، وقد وخطه الشيب . وشغل سعيد على الخصوص بما على عمامته من الجواهر ، والتفت نحو الفقيه فرآه يبالغ فى الانزواء خوفا من وقوع بصر الخليفة عليه ، فقال له : « ان أمير المؤمنين فوق ما كنت أتصور .. ويظهر لى مع أن والدته أمة نصرانية ان هيبة الخلفاء لم تنقص شيئا »

— ١٣ —

استقبال الرسل

فقال الفقيه ابن عبد البر لسعيد : « لا أظنك تجهل أن أكثر

الخلفاء فى الدولتين ، الأموية ، والعباسية ، أمهاتهم من الاماء ، وبعضهن من الجوارى . أما أم مولانا عبد الرحمن الناصر فهى نصرانية جميلة .. وكان اسمها مريه » (١)

وفى أثناء هذا الحديث كان الخليفة قد جلس على السرير فى صدر البهو فوق عرش مرتفع ، ووقف بين يديه جماعة من كبار الفتيان يتلقون أوامره ، وعليهم ملابس تأخذ بالبصر ، لما فيها من الطراز المذهب ، والألوان الزاهية . وسعيد لا يرفع بصره عن عبد الرحمن الناصر ، وقد شغله أمره كثيرا ..

فرآه ينظر الى باب البهو ويبتسم ويشير برأسه مرحبًا ، فالتفت سعيد فرأى الحكم ولى العهد داخلا وعليه ملابس فاخرة ونضارة الشباب تتجلى على وجهه ، وقد فاحت منه رائحة المسك ، ومن رآه يعرف انه ولىّ العهد لأنه كان يلبس القلنسوة الخاصة بذلك .. فلما اقترب من أبيه استدعاه وأجلسه الى يمينه وهو يبتسم له ..

ثم دخل ابنه الثانى الأمير عبد الله ، وكان البهو قد تكاثر فيه الناس ، فلم يعد الفقيه يخشى أن يسمع صوته . فلما دخل الأمير عبد الله ، لفت نظر سعيد اليه وقال : « هذا مولانا الأمير عبد الله كيف تراه ؟ »

قال سعيد : « أراه أحسنهم جميعا .. انى أرى التقوى ظاهرة

(١) دوزى — الجزء الرابع

على وجهه ، وأظنهم لو خيّروه فى ملبسه لاختار الجبة والعمامة العادية ، وكان فى غنى عن هذه الملابس الفاخرة بما يزيّنه من الخصال الحميدة »

فقال الفقيه : « لقد أصبت بفراستك ياسعيد كبد الحقيقة ، ان الأمير عبد الله يفعل ذلك فى منزله .. فانه من الزهد والتقوى على جانب عظيم ، حتى تكاد لا تجد عنده من الخصيان أحدا ، وهو على غير رأى والده .. ولذلك سموه الزاهد ، وله شِعر جيد .. (١) »

فقطع سعيد كلامه قائلا : « هذا هو الرجل المطلوب .. انه اذا تولى الخلافة أعادها الى رونقها ونقاها من الأدران الخارجية »

فهمس الفقيه فى أذن سعيد : « دعنا من هذا الآن .. »

وجاء بعد عبد الله اخوته عبد العزيز ، فالأصبع ، فمروان . ثم أشار الخليفة الى الخصيان الأكابر الموكلين باستقبال النـاس ، وادخالهم الى مجالسهم — وفى جملتهم ياسر — أن يدخلوا سائر بنى مروان ، فدخل المنذر ، ثم عبد الجبار ، ثم سليمان ، فجلسوا عن يسار الخليفة .. ثم دخل الوزراء فجلسوا يمينا ويسـارا . وأخيرا دخل الفقهاء فاندس الفقيه ابن عبد البر ، وسعيد فى جملتهم وجلسوا فى أماكنهم المخصصة لهم

ودخل الشعراء فاحتلوا أماكنهم .. واصطف الحجاب من أهل

(١) المقرى — الجزء الثانى

الجندية من أبناء الوزراء ، والموالى ، والوكلاء وغيرهم ، وقوفا فى أطراف البهو وراء جدار قصير يفصل البهو عن شبه الرواق حوله .. فكان من ذلك منظر يتهيب له الشجاع ، وقد زاده هيبة سكوت الناس ، حتى الخليفة وأولاده

وجاء ياسر بعد قليل فوقف بحيث يعلم الخليفة اذا وقف هناك ان عنده أمرا يريد عرضه عليه ، فاستقدمه فقال له : « ان الرسل فى البهو الخارجى .. فهل يأمر مولاى بادخالهم ؟ »

فقال الخليفة : « أدخلهم »

فعاد ياسر ، وقد علم الحاضرون ان الرسل قادمون ، فاتجهت الأبصار نحو الباب ، واذا بياسر قد عاد ثم تنحى فتقدم الرسل خاشعين ، وهم بضعة رجال يرأسهم واحـد منهم ، وقد ارتدوا ملابس كبار الروم .. فتقدم الرئيس ، وكان يرتدى القلنسـوة والبرنس فخلعهما قبل دخوله ، فتناولهما أحد الخدم.. وفعل مثل ذلك زملاؤه من الرسل

فمشـوا أولا بين صفين من الجند فى البهو الخارجى ، حتى انتهوا الى البهو الداخلى ، فحالما وقع بصرهم على سرير الخليفة خروا سجدا لحظة ، ثم نهضوا ومشوا بضع خطوات وعادوا الى السجود . فعلوا ذلك مرارا الا رجـلا منهم كان خلفهم ، وكان يحمل جعبة من الديباج على كفّيه باحترام .. فاكتفى باحناء رأسه ، ولما اقتربوا من سرير الخليفة تنحى الوفد الا رئيسـه ، فتقدم

وهوى على يد الخليفة يقبّلها .. فمنعه الناصر من ذلك ، وأشار اليه أن يجلس هو ورفاقه على وسائد من الديباج مطرزة بالذهب، أعدت لهم على بعد عشرة أذرع من السرير تقريبا (١) فجلسوا ، الا حامل الجعبة

— ١٤ —

الهـدية

وبعد برهة أذن لهم الخليفة بالكلام ، وكان يخاطبهم عن طريق التراجمة . فنهض رئيس الوفد وتقدم الى سرير الخليفة باحترام ، وقدم له تلك الجعبة بعد أن تناولها من حاملها . فأشار الخليفة الى من يفتحها ، ففتحها أحد الخصيان فوجد داخلها درجا من الفضة عليه غطاء من الذهب ، قد نقشت عليه صـورة قسطنطين الملك مصنوعة من الزجاج الملون البديع . ففتح الدرج فوجد فيه كتابا من ورق مصبوغ بلون سماوى مكتوبا بالذهب بالخط الاغريقى (اليونانى) ، هو كتاب صاحب القسطنطينية ، قسطنطين بن ليون اليه . وداخل هذا الكتاب مدرجة (رسالة) مصبوغة أيضا ومكتوبة بالفضة بالحروف اليونانية (٢)

فتناول الخليفة الكتابين وأخذ يقلّب فيهما ، فوجد على الكتاب

(١) ، (٢) المقرى — الجزء الاول

الأول طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحـد منه صورة السيد المسيح ، وعلى الآخر صـورة قسطنطين الملك ، وصورة ولده . وأما المدرجة ففيها وصف هدية قسطنطين للخليفة عبد الرحمن الناصر التى كان أرسلها مع الوفد وعددها (١)

وكانت أنظـار الجالسين متجهة الى ما يتضمنه ذلك الكتاب ، فأشار الخليفة الى من يترجمه ، فقرأوا العنوان على ظـاهره ما ترجمته : « قسطنطين ورومانين المؤمنان بالسيد المسيح الملكان العظيمان ملكا الروم » فى سطر ثم : « العظيم الاستحقاق والفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقـاءه .. » فى سـطر آخر . فأمر الخليفة من يتولى الاحتفاظ بالكتاب ويستلم الهدية ، فاستوقف انتباهه منها اسم كتاب فرح به أكثر من سائر الهدية . وهو كتاب « الحشائش » تأليف ديسقوريدس العالم النباتى المشهور . فأمر الخليفة باحضار الكتاب للاطـلاع عليه ، فأتوه به .. فاذا هو مكتـوب بالخط الاغريقى ، وقد صورت فيه الحشائش كلها بالتصـوير الرومى العجيب . وجاء مع هذا الكتاب أيضا كتاب هروشيوس صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم فيه أخبار العصور ، وقصص الملوك باللغة اللاتينية ، وكان فى جمـلة ما كتبه اليه (٢) : « ان كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته الا برجل يحسن فهم اللغة اليونانية ،

(١) المقرى — الجزء الثانى (٢) طبقات الاطباء — الجزء الثانى

ويعرف طبيعة هذه الحشائش .. فان كان فى بلدك هذا الرجل ، فزت أيها الملك بفائدة الكتاب . وأما كتاب هروشيوس فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرأه باللغة اللطينيـــة .. وان عرضته عليهم ، نقلوه من اللطينية الى اللغة العربية »

فلما اطلع عبد الرحمن النـاصر على ذلك الكتاب انبســطت نفسه ، وسرّ سرورا عظيما بتلك الهدية واعتز بسلطته ومقامه . وكان سعيد فى أثناء اشتغال الخليفة بمشاهدة الهدية يحدث جاره الفقيه ابن عبد البر . ولمـا كاد الخليفة أن يفرغ من مشــاهدة الهدية ، آنس سعيد اضطرابا على وجه الفقيه ، فعلم انه يتهيب من الوقوف للخطابة ، وهمّ بسؤاله فسبقه الفقيه الى الســؤال قائلا : « ها نحن فى المجلـس ولا يلبث الخليفــة أن يدعونى للخطابة ، فما رأيك هل أنجح ؟.. اســتطلع لى الطالع » فأخرج سعيد الكتاب من جيبه خلسة وفتحه ، وأخذ يقلّب فيه وينظر الى الحاضرين حوله ، ويعيد النظر فى الكتاب ، والفقيه ابن عبد البر ينتظر ما يقوله .. ولما طال سكوت سعيد شغل بال الفقيه وارتبك فى أمره خشية أن يسمع ما يغضبه . وبينما هو فى ذلك الاضطراب ، اذ سمع صوتا يناديه من صدر البهو عرف انه صوت الحكم ولى العهد يقول : « يسمعنــا الفقيــه محمد بن عبد البر الكسيانى كلمة فى وصف هذا المجلس الحافل »

وكان الخليفة هو الذى طلب الى ولى العهد أن يختار من يرى

من الفقهاء أهلا للخطابة قبل أن يتقدم الشعراء للنشيد ، فاختار ابن عبد البر لأنه كان صنيعته ، وكان يدعى القدرة على اجادة الكلام اجادة ليست فى وسع غيره .. فلما سمع ابن عبد البر ذلك النداء أجفل وزاد ارتباكه وذهب الخطاب من ذهنه ، لكنه وقف وقد امتقع لونه وأخذت لحيته ترقص فى وجهه ، وشفتاه ترتجفان وزادته أبّهة المقام وجلا ، فارتج عليه ، ولم يهتد الى كلمة يقولها . فغلبه الخجل والقنوط فأغمى عليه وسقط الى الأرض ، فهرع اليه سعيد وظل يعنى به حتى أفاق .. فأجلسه وأخذ يخفّف عنه ..

ونهض فى أثناء ذلك اسماعيل القالى صاحب الأمالى ، وكان حاضرا ، فخطب .. وخطب أيضا منــذر بن سعيد أحــد الفقهاء فأجاد كثيرا ، وأدى ذلك الى توليه القضاء بعد حين . ثم أنشــد الشعراء قصائدهم الى أن انفض الاحتفال وتفرق الناس ، ومضى كل منهم الى سبيله

— ١٥ —

تغيير

أما سعيد فشارك رفيقه الفقيه فى أسفه الى أن قال له : « والله انى كنت خائفا من هذا الفشل من قبل ، ولذلك رأيتنى ارتبكت فى الجواب حين سألتنى عن الطالع .. »

فقال الفقيه : « لا أدرى ما الذى أنسانى الخطاب كأنى لم أخط منه حرفا ، ولعل ذلك من ســوء الطالع .. أظن أن وجود القالى أفسد علىّ طالعى .. »

قال سعيد : « لا .. بل هو منذر بن سعيد .. يالله انما الدنيا حظوظ وطوالع . أيرتج على الفقيه ابن عبد البر ويفلح المنذر بن سعيد !.. » قال ذلك بنغمة الأسف وهزّ رأسه وعمد الى أن يتمم غرضه ، فأظهر أسفه الشديد على ما اتفق للفقيه ابن عبد البر وقال : « والأمر الذى ساءنى على الخصوص .. » وسكت

فابتدره الفقيه قائلا : « لابد أن يكون قد ساءك ارتباكى مع اعتقادك الأكيد انى أستطيع الكلام ، وقد سمعت خطابى وأعجبت به .. »

فقطع سعيد كلامه قائلا : « ان ارتباكك ساءنى طبعا ، ولكن هناك أمرا آخر أغضبنى .. دعنا من ذلك الآن .. »

فازداد الفقيه رغبة فى الاستطلاع ، فقال : « وما ذلك ؟.. قل .. »

قال سعيد : « ساءنى انى سمعت ولى العهد .. ولكن أخشى أن أكون مخطئا .. »

فقال الفقيه : « لا .. لا .. قل ما سمعته .. »

قال سعيد : « أظننى سمعته يقول حين رآك وقعت مغشيا عليك ووقف منذر بن سعيد وخطب ما خطبه ، سمعت ولى العهد

يقول : « هذا صاحبها والأولى بها ، وليس الكسيبانى .. فلا أدرى ماذا يعنى ؟ »

فقال الفقيه : « ألا تدرى وأنت تستطلع الغيب ؟.. أظنك تخشى غضبى .. قل ولا تخش شيئا .. »

قال سعيد : « أظنه يعنى منصة القضاء .. »

قال الفقيه : « قد أصبت ، وسينال هذا المنصب المنذر ، بورك له فيه .. »

فقال سعيد وهو يضحك : « لك أسوة بالأمير عبد الله العالم الزاهد .. ألم تكن الخلافة أولى به ؟.. »

فأحس الفقيه ابن عبد البر من تلك الساعة بنقمة على الحكم ، رغم ما كان غارقا فيه من نعمه .. فان فشله وفوز زميله منذر بن سعيد هاج حسده وأعماه عن الحقيقة ، وزاده غرورا بنفسه ، فعزا اخفاقه الى تصادم الطوالع .. وكان لقول سعيد تأثير كبير على اعتقاده ، فتوهّم انه مظلوم وان الحكم هو السبب فى ظلمه ، فأحس بالنقمة عليه ، ولم يكن سعيد غافلا عما جال فى ذهن الفقيه وهو الذى أثار كامن حقده وهاج عاطفة الحسد فيه على المنذر ، والنقمة على الحكم .. فلما لمّح الى أفضلية عبد الله فى الظفر بالخلافة على أخيه الحكم ، نظر الى الفقيه فاستشفّ من ملامحه استعدادا للاقتناع ، ولكن الخوف منعه من التصريح .. فابتدره قائلا بصوت ضعيف لئلا يسمعه أحد سواه : « لعلى تجاوزت فى

قولى الى أبعـد مما يسـمح به .. ولكننى قلت ذلك مدفوعا بالانتصار للحق .. وأنا وراق أبيع الكتب وأعرف ما يقتنيه ولى العهد منها ، لكن ما شأنى به » قال ذلك وأظهر انه يريد أن يفترق عنه ..

فتوسم الفقيه ابن عبد البر من ذلك التلميح شيئا يهمه الاطلاع عليه .. فعمد الى استدراج سعيد كى يكشف له عن ذلك السر، فقال : « مهما يكن من اطلاعك على ذلك فانى أعلم منك به ، وأنا كما تعلم قد عاشرت الحكم طويلا »

قال سعيد : « مهما عاشرته فانك لا تعرف عنه ما أعرفه أنا ، فانه يستحى أن يعرف النـاس ، وخاصـة الفقهاء ، انه يطالع الفلسفة ، فتضعف ثقتهم بدينه »

فبغت الفقيه وقال : « يطالع كتب الفلاسفة ؟.. نعوذ بالله من خليفة فيلسوف ، ان الخلفاء يقاومون الفلاسفة ويضطهدونهم خوفا على عقائد الناس .. فكيف يكون الخليفة نفسه من أهلها ؟ ! »

فتجاهل سـعيد ما كان من أثر ذلك الخبر فى نفس الفقيـه ، وأظهر انه قد آن له أن يفارقه . وكان الفقيه أكثر رغبة فى الفراق لأمر خطر له ، يريد أن يسعى اليه

وكانا قد خرجا من القصر وسارا حتى وصلا الى باب السطح حيث تركا البغلتين ، فقال الفقيه : « سنفترق الآن .. لا تحزن ياصاحبى ، ان الزمان يدور .. وسوف يعلم الحكم وأبوه .. »

وسكت ، وتظاهر سعيد بالتجاهل ، وقال : « متى أتقدم بكتاب « العقد الفريد » الى الأمير عبد الله ؟ »

قال الفقيه : « بعد يومين .. هل تعرف منزله ؟ »

قال سعيد : « أين هو ؟ »

قال الفقيه : « فى قصر مروان خارج قرطبة بالأرباض »

قال سعيد : « عرفته .. استودعك الله .. »

قال الفقيه : « سنتكلم فيما بعد .. لا تنس أن تحضر معك عابدة لأنى كلمت الأمير بشأنها ، وهو يريد أن يراها »

قال سعيد : « سمعا وطاعة » وركب بغلته وتوجّه الى منزله

— ١٦ —

الفقيـه فى طريقـه

فارق الفقيه ابن عبد البر صاحبه سعيدا ، وهو يتمنى لو طال الحديث بينهما فى مسألة الأمير عبد الله ، لأنه رأى فى الطعن على الحكم وأبيه شفاء لما تولاه من الخجل فى ذلك الاحتفال .. وكان قد نشأ فى بيئة تميل الى التعصب للتقاليـد القديمة ورفض كل جديد ، فرأى فى انتقاد عبد الرحمن الناصر لاقتنائه الخصيـان والتوسع فى البذخ والترف بابا للنقمة عليه . ولكنه كان غاضبا على الحكم .. فلما سمع ما قاله سعيد من حبه للفلسفة ، أباح

لنفسه التشهير به .. ولم يشأ أن يتأكد من صحة الخبر خشية أن يكون كاذبا فيضعف عزمه عن تحقيق ما يسعى اليه

ظـل الفقيه غارقا فى مثـل هـذه الهواجس معظم الطريق ، وهو لا ينتبه لبغلته كيف تسير ، ولا الى أين تتجه . ولولا الخادم الذى كان يقودها ، أو ينبّه المارة لمسيرها لعثرت أو تاهت . وخاصة على الجسر لأنه كان غاصا بالناس بعد فراغهم من مشاهدة الاحتفـال .. ولما قطع الجسر قل الازدحام ، وما زال الفقيـه راكبا حتى اقترب من قصر مروان ، وهو منزل الأمير عبد الله ، ولم ينتبه الا وهو بالقرب منه ، فاستوقف بغلته وأشـار الى الخادم أن يحول زمامها نحو منزله لعلمه ان عبد الله لم يعد الى قصره بعد ، لاشتغاله بالحديث مع أبيه ، أو أخيه ، وهو مع ذلك يخجل من مقابلته

ساق الفقيه بغلته الى منزله ، وهو على مقربة من قصر مروان ، فترجّل ودخل غرفة نزع فيها ملابسه وتهيأ للراحة ، فجاء الطاهى يدعوه الى المائدة ليتناول الطعام .. فتـذكر انه جائع فنهض ، وتناول طعامه وعاد الى مجلسه ، وأمر الخادم أن لايدخل عليه أحدا التماسا للراحة ، وهو فى الحقيقة يطلب الانفراد بنفسه خجلا من الناس بسبب فشله فى القاء الخطاب ، حتى تهيأ له ان الناس جميعهم عيون تتغامز عليه أو تهزأ منه ، لتلجلجه ولعثمة لسانه . وأصبح اذا لاحظ أن الخصى يبطىء فى تنفيذ أمره ، توهّم انه

يفعل ذلك احتقارا له بسبب ذلك الفشل أيضا.. وهذا راجع الى ضعف الثقة بالنفس أو الجبن . ولو كان قوى الثقة بنفسه ، لم يبال بفشل قد يصيب كل انسان ، ولكان له من اعتداده بمواهبه الأخرى ما يذهب عنه ذلة ذلك الفشل ..

تناول الفقيه الطعام وهو منقبض النفس ، فعسر هضمه فزاد ذلك اضطراب تفكيره وتجسيم فشله . فلما اختلى بنفسه أخـذ يفكر فيما يشفى غليله ، ويبرر موقفه بين يدى الأمير عبد الله ، وكان لا يكف منذ انضم اليه يفتخر بفصاحته وقوة ذكائه ، فكيف يظهر منه هذا الضعف ؟ فلم يجد خيرا من أن يزعم ان السبب ارتباك طرأ عليه لشىء شاهده فى تلك الجلسة ، ويشرك عبد الله معه كى يحفزه الى مشاركته فى الانتقام .. ولما خطر له هذا الخاطر ارتاحت نفسه . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب ، فنهض ولبس ثيـابه وصفق فجاء الخصى ، فأمره أن يحضر له البغلة ، فركبها وسار يطلب قصر مروان ، منزل الأمير عبد الله

وكان عبد الله شابا فى مقتبل العمر .. قد تثقف كما تثقف سائر أولاد عبد الرحمن الناصر ، وشب على حب العلم والأدب والتقوى والدين .. ولم يكن حر الفكر مثل أخيه الحكم ، ولذلك فانه لم يكن يستريح لغير الفقهاء المتعصبين الذين ينكرون النظر فى غير علوم الدين ، ولم يكن يقتنى غير كتب الأدب والدين . ولو بحثت فيما تحتويه مكتبته ، ما وجدت فيها ورقة فى الفلسفة أو

المنطق أو الطب أو غيرها من كتب الطبيعيات . وأما أخوه الحكم ، فربما وجدت عنده كتبا تحوى هذه الموضوعات .. لكنه لم يكن يظهرها مجاراة للعامة فى ميولهم

وكان الأمير عبد الله صادق السريرة بغير دهاء أو تعقل . ونظرا لتقواه وتدينه ، فقد كان كل من يأتيه من جهة الدين يغلبه أو يتسلط على أفكاره . ولذلك كان يحترم الفقهاء ويقربهم اليه وخاصة الفقيه ابن عبد البر ، لما سبق الى ذهنه من سعة علمه ومقدرته على حل المشاكل .. ليس لدليل محسوس ، وانما اعتقد ذلك بناء على دعوى الفقيه لنفسه

— ١٧ —

الأمير عبد الله

ولم يكن قصر مروان بعيدا عن منزل الفقيه ابن عبد البر ، وكان فى استطاعته أن يذهب اليه ماشيا ، ولكنه أراد أن يحتفظ بمظاهر الأبّهة بركوب البغال ، لئلا يقول قائل ان فشله فى ذلك اليوم حطّ من قدره أو أذله . ولولا ذلك الفشل لذهب الى منزل الأمير ماشيا ، ولم يبال بشىء لثقته باحترام الناس له .. ولكن فشله صغّر من نفسه ، فأصبح يخشى العار لأتفه الأمور

وصل الفقيه ابن عبد البر الى باب حديقة القصر ، وحالما رآه

الحارس نهض وفتح له الباب ، فدخل الفقيه على بغلته الى الحديقة والخادم يمشى خلفه .. فلما اقترب من باب القصر ، تقدم الحاجب وهو خصى جميل الطلعة أصله من خصيان الزهراء جارية عبد الرحمن الناصر ، أهدته الى الأمير عبد الله فأعجب به وجعله كالحاجب أو المباشر .. وقرّبه اليه لما آنسه فيه من اللطف وخفة الروح .. واسمه «ساهر» ، فلما رأى الفقيه ابن عبد البر مقبلا أسرع اليه وساعده فى النزول عن بغلته وهو يرحّب به . فسأله عن الأمير عبد الله ..

فقال ساهر : « هو فى مكتبته يطالع .. »

فطلب الفقيه منه أن يخبره بمجيئه ، فقال ساهر : « ليس على الفقيه حجاب .. »

فاستأنس الفقيه ابن عبد البر ومشى فى أثره حتى دخل القاعة ، وهى مفروشة بالطنافس والمساند فجلس ، وخرج ساهر ليخبر الأمير عبد الله بمجىء الفقيه . ومكث هذا والهواجس تتقاذفه فيما سيراه على وجه الأمير من التغيّر . ولم تمض لحظة حتى أقبل الأمير عبد الله وبيده كتاب يظهر من نظافة أطرافه انه نسخ من عهد قريب ، فوقف الفقيه وتأدب فى السلام .. فلم يجد فى وجه الأمير عبد الله تغيّرا ، فارتاحت نفسه .. وأخذ يتخيّر عبارات اللطف يغطى بها فشله ، والأمير عبد الله يسايره حتى جلس الى جانبه والكتاب لايزال فى يده

فقال الفقيه ابن عبد البر : « أرى فى يد الأمير كتابا جديدا »

قال الأمير عبد الله : « نعم .. هو كتاب جديد ومؤلفه ما زال على قيد الحياة .. »

فنظر الفقيه الىغلاف الكتاب وقال : « لا أذكر انى رأيت هذا الكتاب بين كتب مولاى قبل الآن ؟ »

قال الأمير عبد الله : « لأنه أتانى فى هذه الساعة .. »

قال الفقيه : « فى هذه الساعة ؟.. من أين ؟ »

قال الأمير عبد الله : « بعث به الىَّ أخى الحكم ولى العهد وكان قد خاطبنى بشأنه اليوم ونحن فى البهو »

فلما سمع الفقيه اسم الحكم والبهو ، تذكر أشياء كثيرة ، وكاد يظهر التأثر على وجهه ، لكنه تجلد وقال : « يقول مولاى الأمير ان مؤلفه على قيد الحياة ؟ »

قال الأمير عبـــد الله : « نعم .. وهو الآن فى قرطبـــة ، وقد شاهدته فى هذا الصباح وسمعت خطابه .. »

فانتبه الفقيه للأمير عبد الله وقال : « أظنه كتاب (الأمالى) لاسماعيل بن القاسم القالى ، فقد علمت انه ألَّف هذا الكتاب لمولانا ولى العهد ، وطاف البلاد فى البحث والتنقيب من أجله »

قال الأمير عبـــد الله : « نعم .. هو بعينـــه وقد قدمه لأخى فذكره لى فى صباح هذا اليوم وأرسله الىَّ لأطالعه ، واذا أعجبنى كلَّفت أحد الوراقين بنسخه »

فأطرق الفقيه برهة وهو يتأمل ، ثم قال : « ولماذا لم يقدمه القالى للأمير عبد الله ، وهو يعرف قدر العلم ؟.. »

فضحك الأمير عبـــد الله وقال : « لا أدرى .. هل تزعم ان أخى لايعرف قدر العلم ؟ »

فأجاب الفقيه وهو يهز كتفيه : « هو يعرف كل شىء طبعا ، ولولا ذلك لم يجعله أبوه ولى العهد » وظهر من ملامح وجهـــه انه يضمر شيئا آخر ..

فقال الأمير عبد الله بسذاجة وصدق نية : « ربما كان هذا من أسباب ولاية العهد .. ولكن الولاية آلت اليه لأنه أكبر اخوته »

فقال الفقيه : « ليس الكبر شرطا من شروط الولاية ، فان الخليفة يجب أن يتحقق فيمن يوليه بعده أن يكون أهلا للحكم ، وتكون شروط الخلافة متوفرة فيه .. ولذلك رأينا كثيرين من الخلفاء عدلوا عن أكبر أولادهم الى من هم دونهم فى السن ، أو بايعوا غير أبنائهم رغبة فى مصلحة المسلمين »

— ١٨ —

الوشاية

فرأى الأمير عبد الله ان فى كلام الفقيه ابن عبد البر خروجا عما ألف سماعه منه .. ولكنه كان حسن الظن فيه ، فقال له : « لم

يعدل الخلفاء عن أكبر أولادهم الى سواهم الا لأسباب تخالف شروط الخلافة » ..

قال الفقيه : «هل يذكر مولاى الأميرعبدالله شروط الخلافة ؟»

قال الأمير عبد الله : « أعرف أن لها عشرة شروط .. »

قال الفقيه : « هل وجدت من بينها أن يكون الخليفة أكبر اخوته ؟ » ..

قال الأمير عبـد الله : « كلا .. ولا أن يكون ابن الخليفـة السابق .. فاذا عملنا بذلك ، وجب اختيار ولى العهد من جمهور المسلمين . وانما هى قواعد اصطلح عليها الخلفاء بعد أن اتسعت دولة الاسلام »

قال الفقيه : « ما لنا ولهذا .. دعنا منه ، وقل لى اذا شئت : ما هى أهم شروط الخلافة ، وأولها ؟ »

قال الأمير عبد الله : « أولها حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، فان ظهر مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزم من الحقوق(١) »

قال الفقيه : « يكفى هذا الشرط .. فهل هو متوفر فى مولانا ولى العهد ؟ »

فاستغرب الأمير عبد الله سؤال الفقيه وقال : « كيف لا ؟.. دعنا من هذا البحث الآن .. »

(١) الاحكام السلطانية

قال الفقيـه : « دعنـا منه اذا شئت ولك الأمر ياسيدى .. لكن لم يعـد يمكننى كتمان ما فى نفسى من الغيـظ .. بعد أن كتمته أعواما .. »

فتفرس الأمير عبـد الله فى وجه الفقيه ابن عبد البر ، فرأى الجد فيه ، فقال : « وما هو ؟ »

قال الفقيه : « هل أقول ما فى نفسى ؟ »

قال الأمير عبد الله : « قل .. ولا بأس عليك .. »

قال الفقيه : « ما برحت منذ أسندت ولاية العهد الى مولانا الحكم ، وأنا أقول فى نفسى : لماذا لا تكون لسيدى الأمير عبدالله لعلمى ان شروط الخلافة أوفر فيك عنه .. ينبغى لسيدى الأمير عبد الله أن يعتقد صدق نيتى فى خدمة المسلمين . ولا يخفى عليك انى صنيعة مولاى الحكم ، وأنا أعرف الناس به . وقد خدمت مولاى الأمير أيضا واطلعت على الحقيقة فى الأميرين .. فكنت كلما خطر لى هذا الخاطر أشعر بانقباض ، وأنا أكتم ذلك عن مولاى الأمير . وأما الآن فلا أجد بدا من التصريح بعد أن كدت أفتضح أو افتضحت فى ذلك الموقف بالأمس .. فلم أستطع كلمة أقولها ولا أظن أن الأمير عبد الله ينسب ذلك الى جهلى ، فما هذه أول مرة وقفت فيها خطيبا كما تعلم .. ولكننى أعترف لك انى حين شاهدت مجلس أمير المؤمنين وأبنائه الى جانبـه ، ورأيت تمييز الحَكَم بالولاية والشارة والمجلس مع علمى بفضل الأمير

عبدالله وما ترجوه الأمة على يده ، لم أتمالك عن الغضب وانقبضت نفسى وشغل خاطرى حتى فقدت رشدى . فلما طلب الىّ الكلام لم أستطعه كما رأيت » قال ذلك ، وقد بدا الاهتمام على محياه وعينيه ، وتندى جبينه بالعرق

فلما سمع الأمير عبد الله كلام الفقيه ، اعتقد فى اخلاصه .. لكنه لم يقتنع بانتقـاده ، فقال : « أراك تقول ما تقوله نتيجة غضبك لنفسك ، فلا ينبغى لك أن تجعل ذلك ذريعة للطعن على ولى العهد . ولولا اعتقادى صدق سريرتك لم أصبر على سماع كلامك .. ان الحكم أجدر منى بهذا المنصب من كل وجه .. انه أكبر منى سنا ، وأوسع علما ، وأكثر خبرة .. »

فخشى الفقيه عاقبة تصريحه ، وكاد يغلب على أمره بين يدى الأمير عبد الله ، فعمد الى التخلص ، فقال : « قد أسأت فهم مرادى ياسيدى ، فما أنا طاعن على ولى العهد ، ولكننى أقول ما أعرفه .. ومع ذلك فأنت صاحب الرأى ، وكنت أحسبك تؤمن بصدق نيتى فى خدمة المسلمين .. أنت أعلم منى بما صارت اليه الخلافة من الانغمـاس فى الترف والانحراف عن خطـة الخلفاء الراشدين . ألم تر ما يأتيه أمير المؤمنين من تقديم الخصيان دون سواهم حتى كادت السلطة تؤول الى غير أهلها .. لا أخشى أن يحدث ذلك فى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر لتعقله وتقواه ، ولكننى أخشى منه فى أيام الحكم وهو لا يبالى .. »

فقطع الأمير عبد الله كلام الفقيه وقال : « دع هـذا الحديث أيها الفقيه وحدثنا بما يفيد ، انى أراك قد تطاولت فى طعنك الى والدنا الخليفة عبد الرحمن الناصر صاحب هذه الدولة ، وهو الذى أقام بنيانها وحارب الكفار وغلب الأعداء وناصر الدين ..»

فابتدره الفقيه قائلا : « حاشا لله أن أنكر عليه ذلك ، وانما أنا أخشى ممن يخلفه .. ألا تخشى على الاسلام اذا كان خليفته يقرأ كتب الفلسفة ؟ »

فصاح الأمير عبد الله : « كتب الفلسفة ..؟ تعنى ان أخى يقرأ هذه الكتب ..؟ معاذ الله .. واذا فرض انه يقرأها فما علينا الا النصيحة له بأن يتركها »

فابتسم الفقيه ابتسامة مصطنعة وقال : « ننصحه ؟.. هل تظن انه يقبل النصح ؟.. فلنتركه عساه يهتدى »

وشعر الفقيه انه فشل فى وشايته بالحَكَم ولم يجد فى نفسه قوة على الاقناع . وكانت الشمس قد توارت وراء الأفق وأقبل الظلام . ولم يشعر الفقيه بذلك الا حين رأى أحد الخدم قد دخل وبيده مسرجة أضاء مسراجها ، ووضعها على مقعد فى أحد جوانب القاعة .. فتذكر الفقيه سعيدا الوراق ، وما سمع من تعريضـه بالأمر الذى باحث الأمير عبـد الله فيـه ، فأجّل الخوض فى الموضوع ريثما يأتى ، وكان على موعد من مجيئه فى تلك الساعة

— ١٩ —

سعيد وعبد الله

وبينما هما فى ذلك ، اذ جاء الحاجب يقول : « ان سعيدا الوراق بالباب ياسيدى .. »

فالتفت الأمير عبد الله الى الفقيه ابن عبد البر كأنه يستفسر منه عن سبب مجيئه ، فقال الفقيه : « أظنه قد جاء بالكتاب الذى أخبرت مولانا عنه .. »

فقطع الأمير عبد الله كلام الفقيه قائلا : « كتاب (العقد الفريد) مرحبا بكل قادم علينا بمثل هذه التحف .. »

فخرج الحاجب ، ثم عاد ورفع الستارة عن الباب حتى دخل سعيد ، وقد أبرقت عيناه وتجلّت الهيبة على محياه ، فحيا ووقف ، فدعاه الأمير عبد الله الى الجلوس .. فجلس على وسادة وهو لايحمل شيئا ..

فقال الأمير عبد الله : « أنت سعيد الوراق ..؟ أظننى رأيتك قبل الآن .. مرحبا بك .. أين كتاب (العقد الفريد) ؟.. »

قال سعيد : « هو فى الخارج ياسيدى .. هل أدخل به عليك ؟ » ..

قال الأمير عبد الله : « كيف لا ؟.. »

فنهض سعيد الوراق وعاد والكتاب فى يده ملفوفا بملاءة من

الحرير ، فوضعه على وسادة بين يدى الأمير عبد الله ، فأخذ يقلّبه ويتأمل نظافة خطه وحسن تبويبه وضبط كتابته وسعيد صامت

ثم قال الأمير عبد الله : « انه خط جميل .. »

فقال الفقيه : « ألم أقل لمولاى الأمير انه خط فتاة ؟.. »

فالتفت الأمير عبد الله الى سعيد كأنه يستشهد به ، فقال : « نعم ياسيدى .. وقد رآها الفقيه بنفسه وسمع كلامها .. »

فقطع الفقيه كلام سعيد الوراق وقال : « ألم أقل لك أن تأتى بها معك الليلة ليراها مولانا الأمير .. أين هى ؟ »

قال سعيد : « قد أتيت بها وهى فى دار الجوارى »

قال الأمير عبد الله : « سنستقدمها بعد قليل .. هل جاءتك كتب جديدة غير هذا ؟ »

قال سعيد : « سمعت عن كتاب لايزال صاحبه يعمل فى تأليفه ، وهو أحسن كتب الأدب على الاجمال لأنه يغنى عنها جميعا .. »

فتطاول الأمير عبد الله عند ذلك وقال : « أظنك تعنى كتاب (الأمالى) للقالى ..؟ »

وتناوله من جانبه ، وقدّمه اليه ليراه ..

فأخذه سعيد وفتح أول صفحة منه .. فوجد عليها علامة الحَكَم فقال : « هذا لمولاى ولى العهد .. وقد علمت ان الامام أبا على اسماعيل القالى ألّفه.. وفى الحق ان مولانا الحَكَم يبذل

الأموال فى اقتناء الكتب ويرغّب أهلها فى التأليف »

فأحس الأمير عبد الله بغيرة من هذا الاطراء وقال : « هل هذا هو الكتاب الذى أشرت اليه الآن ؟ »

قال سعيد : « كلا ياسيدى .. »

قال الأمير عبد الله : « وأى كتاب تعنى اذن ؟ »

فتظاهر سعيد بالتردد ، وقال : « كتاب آخر أهم من هذا ، وربما زاد على خمسة أضعافه .. »

قال الأمير عبد الله : « وما اسمه ؟.. أو ما اسم مؤلفه ؟ »

فنظر سعيد الى الفقيه ابن عبد البر ، كأنه يوسطه فى أن يعفيه الأمير عبد الله من ذكر اسم الكتاب . ولم يكن الفقيه يعلم بشىء من ذلك ، فظهرت الدهشة على وجهه .. فسئم الأمير عبد الله الانتظار ، فقال : « ما بالك يا صاحب ؟.. لعلك ندمت على ما صرّحت به ؟ ! » ..

فأظهر سعيد التلطف والاستعطاف ، وقال : « نعم .. ندمت ، وكان ينبغى لى أن أحفظ ما اؤتمنت عليه سرا ، ولكن سبقنى لسانى » ..

فازداد الأمير عبد الله رغبة فى معرفة ذلك السر ، وقد ظهر التغير فى عينيه ، فسبقه الفقيه الى الكلام قائلا : « تحفظ ذلك السر عن مولانا الأمير عبد الله .. وممن تخشى افشاءه ؟.. »

قال سعيد الوراق : « أخشى ممن لا يفضله فى الحكم غير

أمير المؤمنين .. ! »

ففهم الأمير عبد الله انه يعنى أخاه ولى العهد ، فقال : « اذا كان الأمر يتعلق بأخينا الحكم ، فماذا عليك اذا قلته من باب العلم بالشىء ؟.. »

قال سعيد : « هل يسمح لى مولاى الأمير أن أقول كلمة ؟ »

قال الأمير عبد الله : « تفضل .. قل »

قال سعيد : « ان الكتاب من كتب الأدب ، ويليق بالأمير عبد الله أكثر مما يليق بأخيه ولى العهد ، لعلمى بميل كل منهما الى أى نوع من الكتب .. »

فاستبشر الفقيه انه سيذكر ميله الى كتب الفلسفة ، فلما رآه سكت .. أتم كلامه فقال من تلقاء نفسه : « أظنك تعنى ان الحكم يميل الى اقتناء كتب الفلسفة ؟ »

فعضّ سعيد على شفته السفلى ، وأظهر انه استاء من تصريح الفقيه ، وتصدى للدفاع عن الحكم فقال : « من قال لك ذلك ؟ ربما اقتنى ولى العهد بعض كتب الفلسفة ، لكنه أكثر رغبة فى كتب الأدب ، والشعر ، واللغة . أليس هو الذى حمل القالى على جمع هذا الكتاب وهو من كتب اللغة .. وهذه مكتبته وفيها ألوف من هذه الكتب .. دعنا من هذا الآن .. »

فقال الأمير عبد الله : « لم أعد أستطيع الصبر على كتمان اسم ذلك الكتاب واسم مؤلفه بعد ما تقدم .. قل من هو ؟ » قال

ذلك بلهجة الآمر ..

فأظهر سعيد انه يقول ذلك اذعانا لأمره ، وقال : « ان الكتاب ياسيدى فى الغناء ، واسمه الأغانى »

فقطع الأمير عبد الله كلامه قائلا : « الأغانى .. للموصلى ؟ »

قال سعيد : « كلا ياسيدى .. ان مؤلفه أبو الفرج الأصبهانى الأديب المشهور ، وهو من بنى أمية .. ان الكتاب لم يخرج بعد للناس ، ولكننى سمعت عنه شيئا كثيرا واطلعت على صفحات منه فى بغداد .. ولكن لا فائدة لنا من الحديث عنه ، فقد علمت ان مولانا ولى العهد بعث بمن يشترى الكتاب من مؤلفه ، وأوصاه أن يبذل له ما شاء من الدنانير .. »

فالتفت الفقيه الى سعيد وقال : « فاذا أراد مولانا الأمير عبد الله اقتناءه فمن الذى يمنعه ؟ »

قال سعيد : « لا أدرى ، ولكنى أعلم ان ولى العهد بعث بمن يشتريه ، ثم انى عرفت ذلك سرا ، وانما أفضيت به هنا مصادفة واذعانا لأمر الأمير .. »

فتنحنح الأمير عبد الله ليخفى ما اضطرم فى نفسه من الغيرة على تقدم أخيه عليه حتى فى الأمور الأدبية ، كاقتناء الكتب ونحوها ، وأخذ يقلّب صفحات كتاب « العقد الفريد » بين يديه

فابتدره سعيد ، وهو يتظاهر بأن الكتاب يثير دهشته قائلا : « هل رأيت أجمل من هذا الخط ياسيدى ؟ » واستأذنه فى تناول

الكتاب ففتح الفصل الأول منه ، وهو يبحث فيما يصحب السلطان فوضع يده على فقرة من ذلك الفصل وقال : « أظن أن مولاى فطن لهذه القاعدة من الخط ، انها خط أبى على بن مقلة الكاتب المشهور فى بغداد ، وقد توفى من بضع سنين (٣٢٨هـ) »

فصاح الأمير عبد الله : « ابن مقلة ؟ هذا خطه ؟ بيده ؟ »

قال سعيد : « كلا يامولاى ، ولكن الجارية التى نسخته من مولدات بغداد .. وقد تعلمت الخط عن ابن مقلة نفسه .. »

فجعل الأمير عبد الله يتفرس فى الخط ، وسعيد يوجه نظره الى فقرة أخرى من ذلك الفصل ، وفيها حكاية مجىء عمر بن الخطاب الى الشام . وأخذ يظهر انه يقرأ هذه القطعة اعجابا بخطها ، فقرأ منها : « ان عمر بن الخطاب لما أتى الى الشام ، تقدم على حمار ، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقاهما معاوية فى موكب ثقيل ، فجاوز عمر حتى أخبر فرجع اليه . فلما قرب منه نزل اليه فأعرض عنه ، فجعل يمشى الى جانبه راجلا ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف : « أتعبت الرجل » . فأقبل عليه عمر فقال : « يامعاوية أنت صاحب الموكب آنفا مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين » . قال : « ولم ذاك ؟ » . قال : « لأننا فى بلد لا نمتنع فيه من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فان أمرتنى بذلك أقمت عليه وان نهيتنى عنه انتهيت » . فقال : « لئن كان الذى تقول حقا

فانه رأى أريب ، وان كان باطلا فانها خدعة أديب » (١)

ثم قرأ بعده ببضعة عشر سطرا ، حكاية مجيء أبى موسى الأشعرى على عمر بن الخطاب ، وفيها من المبالغة بالزهد والرغبة عن الملذات ما فيها ، فقرأ منها قول عمر : « يا ربيع انا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب ، ولكنى رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم فقال : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » . ثم أمر أبا موسى أن يقرنى وأن تستبدل بأصحابى »

وكان سعيد يقرأ ذلك ويوقع النبرات فى أماكنها ، بحيث ينضح المعنى المراد. وكان الأمير عبدالله يسمع ويعتبر، لقرب عهده بكلام الفقيه عن بذخ أبيه ، ولاحظ الفقيه ذلك فقال : « لله در عمر بن الخطاب وسائر الخلفاء الراشدين ، فقد كان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ ، وفى قدميه نعلان من ليف وحمائل سيفه ليف ، ويمشى فى الأسواق كبعض الرعية . واذا خاطب أدنى الرعية أسمعه أغلظ من كلامه ، وكانوا يعدون هذا من الدين الذى بعث به النبى صلى الله عليه وسلم (٢) ، أين هم وأين الخلفاء بعدهم ؟»

فقال سعيد : « لقد صدق الفقيه ، ان الجديرين بالخلافة قليلون.. وقد تغيّر الناس وتغيرت أحوالهم بعد الخلفاء الراشدين، فانغمسوا فى الأبهة والترف ، ولم يفعل ذلك أحد منهم الا دل

(١) العقد الفريد — الجزء الاول (٢) الفخرى

على قرب ضياع دولته ، كما أصاب العباسيين فى بغداد فى أواخر دولتهم ، وأخشى أن يتفشّى ذلك فى هـذه الدولة . والحق يقال لا أرى بين أبناء أمير المؤمنين أقرب فى أخلاقه وتديُّنه من الخلفاء الراشدين غير مولانا الأمير عبد الله ، فهو التقى الزاهد (١) .. لا أقول ذلك للفتنة — وقانا الله منها — فان الأمر قد استتب الآن لمولانا الحكم ، ولكننى أقول ما يخطر لى .. »

فنظر الفقيه الى الأمير عبد الله من طرف خفى ، وأشار بعينيه كأنه يستشهد بما قاله سعيد على صحة قوله

— ٢٠ —

عبد الله وعابدة

وخشى سعيد أن يقول الفقيه ابن عبد البر شيئا يغضب الأمير عبد الله ، لأنه كان لحدة ذهنه يكاد يستطلع ما يدور فى ذهن من يخاطبه ، فأراد أن يغيِّر الحديث فقال : « مالنا ولهذا الآن ؟.. هل يأذن الأمير عبد الله بانصرافى ؟ »

فأظهر الأمير عبد الله الدهشة ، وقال : « تنصرف ؟ الى أين ؟ أين هى الفتاة التى ذكرتها ؟ هل هى جاريتك ؟.. »

قال سعيد : « هى جارية لى ، ولكنها جارية أدب وشعر

(١) المقرى — الجزء الثانى

ومنادمة ، وليست لشيء غير ذلك .. فانها تثقفت وحفظت الشعر وأتقنت الخط والغنـاء والعزف على العود .. هل يأمر مولانا باحضارها فى هذه الساعة ؟ »

فصفق الأمير عبد الله فأتى ســاهر الحاجب ، فأمره أن يحضر الفتاة ، فخرج وعاد بها .. فدخلت وانصرف الحاجب . وكانت عابدة قد هيأت نفسها لملاقاة ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر كما أوصاها سعيد .. فلبست ثوبا جميلا ، وأصلحت شعرها ، ونظفت أسنانها .. وبدت رائعة الجمال فضلا عما كان يبــدو عليهــا من الهيبة والذكاء ..

فلما وقع نظر الأمير عبد الله عليها شعر بميل اليها ، واستلطفها وأشار اليها أن تجلس .. فجلست متأدبة ، وقد أطرقت حيــاء . فابتدرها الأمير عبد الله قائلا : « ما اسمك ياحسناء ؟.. »

قالت عابدة : « اسمى عابدة ياسيدى .. »

فأعجبته رخامة صوتها ، فقال : « قد أنبأنا سعيد أنك تحفظين الشعر وأخبار العرب .. فأى شعر تحفظين ؟.. »

قالت عابدة : « أحفظ ما شئت ياسيدى : من شعر الجاهليين ، أو الاسلاميين ، أو المحدثين .. كما تشاء »

قال الأمير عبد الله : « هل اطلعت على جمهرة أشعار العرب لأبى زيد ؟.. »

قالت عابدة : « نعم .. وحفظت نوادره ، وديوان الحماســة



« فصفق الامير عبد الله فاتى ساهر الحاجب ، فامره ان يحضر الفتاة .. فخرج وعاد بها ، فدخلت ، وانصرف الحاجب .. وكانت قد هيات نفسها لملاقاته .. »

للبحترى ، وطبقات الشعراء لابن قتيبــة ، وقرأت أكثر دواوين المحدثين ، وكثيرا من كتب الأدب ، وآخرها كتاب (العقد الفريد) هذا .. انه كتاب جميل »

قال الأمير عبد الله : « لقد زدته جمالا بخطك الأنيق .. » قال ذلك وتناول كتاب (الأمالى) بيده ، ولم يكد يفتحه حتى قالت : « أليس هذا كتاب (الأمالى) للقالى ؟.. »

فاستغرب الأمير عبد الله معرفتها اياه ، وهو يحسب ان الكتاب لم يره أحد سواه بعد أخيه الحكم ، فقال لها : « وهل قرأته ؟..»

قالت عابدة : « تصفحتــه على عجل فحفظت منه شيئا علق بذهنى ، أتلو عليك منه اذا شئت ما يتعلق بأخبار أجدادكم بنى أمية فى الشام .. »

فأبرقت أساريره اعجابا وسرورا ، وقال لها : « اقرئى علينا ما يخطر لك .. »

قالت عابدة : « هل أقص عليك حديث عبد الملك بن مروان لما خرج لقتال مصعب بن الزبير ؟ ان عبد الملك كان رجلا شديدا استخلص الخلافة لنفسه ، وكان طلابها كثيرين .. حاربهم واستقل بها . يعجبنى من حماسته وعلو همته خروجه لمحاربة مصعب من الشام الى العراق ، وقد أرادت أم يزيد ابنه (امرأته) منعه عن المسـير فقالت : « يا أمير المؤمنين لو أقمت وبعثت اليه لكان الرأى » فقـال لها : « ما الى ذلك سبيل » فلم تزل تمشى معه

وتكلمه حتى اقترب من الباب .. فلما يئست منه رجعت ، فبكت وبكى الخدم معها .. فلما علا الصوت رجع اليها عبد الملك فقال : « وأنت أيضا ممن يبكى ؟ قاتل الله كثيرا كأنه يرى يومنا هـذا حيث يقول :

اذا ما أرادَ الغزوَ لم تثن همَّه
حصـانٌ عليهـا نظم دُرٍ يزينهـا
نهتـه فلمـا لم تر النَّهى عاقهُ
بكت فبـكى مما شجاها قطينهـا

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج (١) ، ان عبد الملك أيها الأمير رجل طالب معال ، ألم تره لم ينفك عن الخلافة حتى نالها ، فقال فيه كثير :

أحاطت يداهُ بالخـلافةِ بعـدَ ما
أرادَ رجـالٌ آخرون اغتيـالها »

وكان الأمير عبدالله فى أثناء كلامها ينظر الى ما يبدو على وجهها من ملامح الاعجاب ، بعلو همة عبد الملك ، وتقع كلماتها فى أذنيه وقوع النغم الشجى على قلب الصـب المتيَّم ، وأحـس بشىء استفزه للحماس ، فقال : « لقـد أحسنت يا عابدة .. وهـل تحفظين شعرا لغير بنى أميَّة ؟.. »

قالت عابدة : « ويعجبنى من الشـعر يامولاى ما يستحث

(١) امالى القالى ـ الجزء الاول

المروءة ، ويهيج الأريحية ، كقول زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله
يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه
ولا يعفها يوما من الدهر يسأم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تعلم

فلما بلغت الى هنا صاح الفقيه ابن عبد البر : « لله در هذا الجاهلى ما أبلغه ، ان كلامه يحرك الهمم» .. أراد بذلك استنهاض همة الأمير عبد الله . أما عبد الله فأخذه الطرب من حسن القاء عابدة وتجاهل أمر الحماس . وكان كتاب (الأمالى) فى يده ، فقلبه حتى أتى على أبيات أشار بأصبعه عليها وقال : « ان أحسن مما ذكرت قول على بن عباس هذا :

وحديثها السحر الحلال لو انه
لم يجن قتل المسلم المتحرز

ان طال لم يملل وان هى أوجزت
ود المحدث انها لم توجز
شرك العقول ونهزة ما مثلها
للمطمئن وعقلة المستوفز

فالتفت سعيد الى عابدة ، وقال : «قللى ياعابدة من الحماس»

فقال الأمير عبد الله : « أظنك تخشى على الخروج يا سعيد . والله لا مطمع لى فى شىء من ذلك ، والفقيه يعلم رأيى .. »

فقال سعيد : « اذا لم يكن هناك باعث ، فالخروج مظنة سوء »

فقالت عابدة : « ويعجبنى قول عمر بن كلثوم من معلقته :

اذا ما الملك سام الناس خسفا
أبينا أن نقر الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا »

فطرب الفقيه ابن عبد البر لهذا المعنى واستخفه السرور حتى ضحك ، وهو ينظر الى الأمير عبد الله .. فقال عبد الله وهو يقلد انشاد عابدة : « فنجهل فوق جهل الجاهلينا »

قال ذلك وقد ظهر الجد فى عينيه .. فرأى سعيد الوقوف عند هذا الحد فقال : « هل يأمر مولاى الأمير عبد الله أن تغنى عابدة له شيئا ؟ »

فقال الأمير عبد الله : « وهل تحسن عابدة الغناء ؟.. وعلى من تعلمت ؟ »

قالت عابدة : « تعلمت على مغنى بغداد خلائف الموصلى وحفظت أغانيه »

قال الأمير عبد الله : « أسمعينا ما تعرفينه .. »

قالت عابدة : « هل أغنى غناء ابراهيم بن المهدى الذى شغله الغناء عن طلب الخلافة فقضى عمره كأنه من العامة ؟.. انه كان طروبا وله غناء حسن .. »

فقال الفقيه : « غنى يا عابدة .. انه غناء ابن خليفة يسمعه ابن خليفة ، ولكن شتان بينهما »

فأخذت عابدة تغنى :

هل تطمسون من السماء نجومها
بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم
جبريل بلّغها النبى فقالها

– ٢١ –

الانصراف

فطرب الأمير عبد الله وأخذت عابدة بمجامع قلبه ، وأحس بميل

نحوها غير ميل الناس الى الاماء ، لأنه آنس فيها عزة وقوة وأدبا ورقة ، فأحب أدبها وبلاغتها وذكاءها ، فأمر باعداد مائدة من الفاكهة والطعام والشراب المنعش ، لأنه لم يكن يشرب الخمر ، ولا النبيذ ولا يطيق رائحتهما

فلما أعدت المائدة وليس عليها شىء من الخمر ، نظر سعيد الوراق الى الفقيه ابن عبد البر كأنه يساره ، وقال : « هذا أولى بها » وأشار الى المائدة وخلوها من الخمر ، ففهم الأمير عبد الله انه يشير الى الخلافة .. ولكنه ظن أن اشارته جاءت عفوا مع انها مقصودة ، لكنه تجاهل واستعاد الفتاة أغنيات أخرى ، فظلت تغنى حتى طربوا .. فقال الأمير عبد الله : « هل تجيد عابدة العزف على العود أو غيره ؟ »

فالتفت سعيد الى عابدة ، فمدّت يدها الى جيبها فأخرجت عيدانا وأوتارا ، وأخذت تركبها وتشدها ، فصارت آلة كالقانون ، وراحت تعزف عليها عزفا متقنا أشجى الأمير عبد الله ، فقال لسعيد : « ما اسم هذه الآلة ؟ »

قال سعيد : « القانون ياسيدى .. »

قال الأمير عبد الله : « لا أذكر انى رأيتها من قبل »

قال سعيد : « ان مخترعها لم يزل على قيد الحياة ، وهو عالم كبير .. لكنه من رجال الفلسفة ، وقد تعمق فى أبحاثها وألّف فيها عدة كتب .. »

فقطع الأمير عبـد الله كلامه قائلا : « أظنـك تعنى الفارابى التركى الفارسى الذى نشأ فى الشام ؟ »

قال سعيد : « نعم .. هو بعينه ياسيدى »

فتصدى الفقيه ابن عبد البر للكلام فقال : « أليس هو صاحب القصة مع سيف الدولة يوم حضر مجلس غنائه وهو لا يعرفه ، وسأله اذا كان يعرف الغناء فأخرج آلة عزف عليها ، فبكى من فى المجلس.. ثم فكها وركبها وعزف عزفا آخر، فنام من فى المجلس؟»

قال سعيد : « نعم .. هو نفسه ، وهذه هى الآلة التى عزف عليها .. وقد تمكنت عابدة من أخذها منه »

فازداد الأمير عبد الله اعجابا بالفتاة وتعلقا بها ، فقال : « هل تبيع هذه الحسناء يا سعيد ؟ »

قال سعيد : « هى أرفع من وصمة البيع والشراء ياسيدى . ولكننى أكون ــ أنا وهى ــ فى خدمة الأمير حفظه الله »

قال الأمير عبد الله : « أما أنت ، فاننى أرغب أن تمتنع عن بيع الكتب للناس ، وتختصنى بفضلك فتكون خازن كتبى ، فتبقى أنت وعابدة بقصرى .. هل تستطيع ذلك ؟ »

فأشار سعيد برأسه اشارة الطاعة وقال : « ان من أسباب سعادتى أن أكون فى خدمة مولاى الأمير عبد الله فأبذل جهدى فى مصلحته .. وقد كنت أرغب أن أقول له ان عابدة لا أتخلى عنها لأنها استأنست بى ، وأنا أدرس لها أشياء من الأدب والشعر لم

تكن تعرفها ، ولذلك فانى أتردد عليها حينا بعد آخر .. »

فقطع الأمير عبد الله كلامه قائلا : « لا حاجة بك الى التردد . انك تقيم فى هـذا القصر ، وتتولى ترتيب الكتب فى أماكنها ، وتحضر الىّ ما أريده منها ، فانى لا أريد أن تكون فى قرطبـة مكتبة خيرا من مكتبتى .. »

فأشار سعيد برأسه اشارة الطاعة .. وسكت

فصفق الأمير عبد الله ، فجاء ساهر الحاجب فقال له : « أعدّوا دارا خاصة لنزيلنا سعيد ، وأدخلوا عابدة دار النساء مكرمة »

فوقف سعيد يريد الانصراف ، فطلب منه الأمير عبد الله أن يبقى ، فقال : « لابد لى من الانصراف لتدبير أمورى والتفرغ لخدمة مولاى الأمير .. »

ونهض الفقيه ابن عبد البر وهو يقول : « وأنا أريد أن يسمح لى الأمير عبد الله بالانصراف الى منزلى »

أما عابدة فلما أحست ببقائها وحدها ، نظرت الى سعيد وقد توردت وجنتاها من الحياء لبقائها وحدها هناك . فتقدم سعيد اليها وربت على كتفها وقال لها : « لا تخشى شيئا يا عابدة ، انك فى رعاية الأمير عبـد الله ، وستكونين معززة مكرمة » والتفت سعيد الى الأمير عبد الله وقال : « هل يأمر مولاى باحضـار القهرمانة لمرافقة عابدة الى دار النساء فتأنس بها ؟ »

فأمر الأمير عبد الله باحضار القهرمانة ، فأتت الى باب القاعة

فخرجت عابدة معها وهى تلتفت الى سعيد وقد شق عليها فراقه

أما سعيد والفقيه ، فودعا الأمير عبد الله ، وركب كل منهما بغلته وانصرفا . ولما خرجا من الحديقة قال الفقيه لسعيد : « لا نلبث أن نصل الى منزلى .. فهل تبيت عندى الليلة ؟ »

قال سعيد : « لابأس من ذلك » وسارا فى طريقهما ، وقد سرَّ الفقيه بنزول سعيد عليه لأنه أراد الاستعانة به فى اقناع الأمير عبد الله بما أراده ضد أخيه الحكم .. ولم يعلم ان سعيدا أكثر منه رغبة فى ذلك ، ولكنه كان أكثر دهاء وأوسع صدرا

دعا الفقيه سعيدا الى غرفة واسعة فيها سراج مضىء ، وقد فرشت أرضها بالحصر والأبسطة المتواضعة .. وأمر الفقيه خادمه أن يعد لهما فراشين فى تلك الغرفة ففعل . وأخذ الفقيه فى تبديل ثيابه وأحضر لسعيد ثوبا خفيفا لتبديل ثيابه أيضا .. وبعد أن فرغا من ذلك ، جلس كل منهما على فراشه وسعيد يقرأ كل حركة من حركات الفقيه ، كأنه فى ضميره ، والفقيه يحاول أن يحتال فى اغرائه على الأمير عبد الله

— ٢٢ —

المؤامرة

فلما جلسا ، قال الفقيه لسعيد : « اننا قمنا بأشياء كثيرة فى هذا اليوم »

قال سعيد : « ولكنه انتهى بخير .. ان الأمير عبد الله رجل فاضل عاقل ، وأظنك تتردد عليه كثيرا .. فليتك تقيم عندنا ، فنسكن معا وتتعاون على الدرس ، وتتفرغ لخدمته . انى أشعر بميل شديد اليه ، ولا أدخر وسعا فى تحقيق كل ما يرضيه لما آنسته من لطفه وتواضعه »

فقال الفقيه : « كثيرا ما دعانى للاقامة فى قصره ، وأنا أتردد . وأما الآن فانى سأستجيب لرغبته وأنتقل اليه » ثم اعتدل فى مجلسه والتفت الى سعيد والسراج خلف ظهره ، فوقع ضوءه على عينى سعيد فزادهما لمعانا واشراقا ، وتخيَّل فيهما قوة كادت تسيطر عليه فقال : « ان من يحب الأمير عبد الله ينبغى أن يدعه يعرف حقيقة مركزه »

فقال سعيد : « ظهر لى انه كثير التواضع راغب فى العزلة والابتعاد عن السياسة .. ولولا ذلك ما ظننت أن أخاه الحكم ينال الخلافة دونه »

فأشرقت أسارير الفقيه فرحا بهذا التصريح وقال : « وقد تعبت وأنا أشرح له ذلك وهو ينكره علىَّ ، فاذا ساعدتنى أقنعناه .. فانى أرى فى عينيك قوة الاقناع »

قال سعيد : « أنا لا ألتمس اقناعه بالقوة ، ولا أظنه يحتاج الى اقناع بأنه أفضل من أخيه .. ولكنه يخشى اظهار ذلك ، فاذا كان واثقا من محدثه صرَّح بما يدور فى خلده .. ثم هو لا يكفيه

أن يفضّل نفسه على أخيه بالقول ، وانما لابد من العمل ؟

فقال الفقيه : « نبدأ أولا بالقول .. هل تقنعه انه أولى بالخلافة من أخيه ؟ » ..

قال سعيد : « يجب أن تبدأ أنت بذلك .. اقنعه أولا بأن أخاه الحكم متكبّر ، يتوهم انه فوق اخوته وسائر أهله ، وأظهر له ان فى قرطبة وسائر الأندلس أحزابا كبيرة ليسوا راضين عن بذخ الخليفة عبد الرحمن الناصر واسرافه فى بنـاء القصور وغيرها ، وانهم ناقمون على الحالة الحاضرة .. وربما بايعوا واحدا من غير أبناء عبد الرحمن الناصر ، وهو أولى بهذه المبايعة .. ولاشك فى أن هذا يهوّن عليه القبول .. » ..

وكان الفقيه مصغيا بكليته الى ما يقوله سعيد ، وقد أدهشه دهاؤه ، وشعر بالفرق العظيم بين رأييهما ، وتحقق انه اذا أتى الأمير عبد الله من هذه الناحية أقنعه .. ولكن كبرياءه منعته من التصريح بفضل سعيد فى ابداء هذا الرأى ، فقال : « بورك فيك من رجل عاقل .. وهـذا ما خطر لى أن أقوله للأمير عبد الله ، ولكننى أخشى ان يسـألنى أين هـذه الأحزاب أن أعجز عن الجواب .. »

فأشار سعيد بأصبعه السبابة الى صدره وقال : « اسألنى عند الحاجة فأرشدك . واحذر اذا ذكرت ما تقدم للأمير عبد الله أن تشير الىّ أو تذكر اسمى ، الا اذا سألك عن الأحزاب فقل له :

سنسأل سعيدا الوراق لعله يعرف ، لأنه كان كثير الاختـلاط بالناس .. هل فهمت ؟.. »

فأعجب الفقيه برأى سعيد بأن لايذكر اسمه فى ذلك ، فيحسب الأمير عبد الله أنه هو صاحب تلك الآراء فيعلو قدرا فى عينيه ، فقال : « فهمت .. أنت لا تريد أن أروى شيئا من ذلك عنك »

قال سعيد : « نعم .. لأن الغرض تقـديم النصيحة للأمير عبد الله ، ولا عبرة فيمن يقدمها »

ففرح الفقيه بذلك ، وأراد أن يختتم الحديث فقال : « سأفعل كما أمرت .. أظنك فى حاجة الى النوم الأن.. أستودعك الله الى صباح غد » ..

وصفق الفقيه فجاء الخادم فقال له : « أخرج هذا السراج من هذه القاعة » فأخرجه وتهيأ للنوم

فنام كلاهما ملء عينيه ، والآمال ملء صدره ، وأكثرهما رجاء الفقيه .. فانه تصور ان الفوز طوع ارادته ، وانه متى غضب الأمير عبد الله على أخيه مَلَكَ ناصية الدولة .. ولم يفكر فيما يعترض ذلك من العوائق ، وما يقتضيه تغلب عبد الله من المشقة .. اذ كان من أصـحاب الأوهام الذين يقنعهم الخيال ، ويكتفون بالقشور الظاهرة أو التمنيات القلبية .. وقلما يدرسون المسـائل من الوجهة العملية ، فيغلب الفشل على مشاريعهم

- ٢٣ -

عبد الله يناجى نفسه

أما الأمير عبد الله فلما خلا بنفسه بعد ذهاب سعيد والفقيه ، مكث برهة وأفكاره تائهة ، والكتاب فى يده يقلّب صفحاته كأنه يتصفحه ، ولكنه لم يكن يرى شيئا لاستغراقه فيما أشارا اليه ، وقد جاش فى صدره أمر لم يخطر بباله من قبل .. فمنذ أن أسندت ولاية العهد لأخيه ، لم يخطر له أن أحدا من الناس يراه أولى بها منه ، ولا هو خطر له شيء منذلك ولكن الانسان لايبرح ضعيفا متقلبا ما دام محبا لنفسه يؤثرها على غيرها ، ويرى فيهـا من الفضائل ما ليس فى سواها.. فهو ضعيف منهذه الناحية ، بحيث اذا أردت اغراءه أو تحريضه على أمر لا تجده راغبا فيه ، فانك اذا بيّنت له علاقته به وما يعود عليه منه ، فانه لا يلبث أن يهتم به

والأمير عبد الله لم يكن يخطر له أن يزاحم أخاه الحكم على الخلافة ، ولذلك فانه استغرب تعريض الفقيه بشيء من هذا الشأن وانتهره .. لكنه ما أن اختلى وحده حتى أخـذ يناجى نفسه ، ويحدثها بما لايمكن أن يكاشف به أحدا .. وأفكار الانسان من حيث مكاشفة الآخرين بها ثلاث طبقات : الأولى أسرار يطلع عليها أصـدقاؤه ومعارفه ، والثانية أسرار لا يطلع عليهـا الا أخص أصدقائه أو زوجته ، ولا يتجاوز بها غيرهم ، وهو حريص على

كتمانها عن سواهم ، وهناك خواطر لا يطلع عليها أحدا ولو علم أن سواه يعرفها لتنغص عيشه وافتضح أمره .. وتنطوى هـذه الخواطر على حقيقة ضمير الرجل وكنه طبيعته ، وقد يكون ثمة بينها وبين ما يظهره للناس من أفكار تناقض عجيب . وقد تتقارب ولا تختلف الا قليلا ، وأكثر الناس دهاء أبعدهم ما بين ظاهرهم وباطنهم ..

ولم يكن الأمير عبد الله من أهل الدهاء ، ولكن ما سمعه تلك الليلة أثار فى قلبه الحسد لأخيه على ولاية العهد ، وبالغ فى كتمان ذلك حتى ود لو يكتمه عن نفســه . وفكر فى حاله وعجزه عن مناوأة أخيه ، فأخذ يتعلل بما يغنيه عن أبهة الدولة ويبعده عن متاعب الملك ، فقال فى نفسه : « ان متاعب الحكومة كثيرة ، وما الذى يرجوه الانسان من دنياه غير التمتع بالحياة بأيسر الطرق وأنفعها ، وأنا لا ينقصنى شيء من مطالب الحياة وضروراتها ، وليس علىَّ من واجبات الخلافة ما يشغلنى عن مطالعة الكتب والتبحر فى العلم ، ولا ينقصنى شيء من الوسائل التى للخلفاء لتهيئة أسباب الراحة والنعيم » وخطر بباله على الفور ما سمعه تلك الليلة من عابدة ، فأحس براحة ولذة وقال فى نفسه : « ان جلوسى مع هذه الفتاة أطارحها الأشعار ، وأحادثها وأسمع غناءها خير من الأمر والنهى ، وما يبوبهما من تعب القلب وخشية الفتنة أو الحذر من أهل الدس وغيرهم »

وكان يفكر فى ذلك وهو واقف أمام منضـــدة عليهـــا كتاب (العقد الفريد) ، وأخذ يقلّب صفحاته والحاجب واقف بالباب ، ينتظر أمره فيما يريد من وسائل الراحة .. ثم انتبه الأمير عبد الله لنفسه ، فالتفت فرأى المائدة لا تزال هناك وعليها الفاكهة ، فتناول تفاحة وقطعها وأكل جانبا منها وهو غارق فى بحار الهواجس ، ولم ينشرح خاطره لأنه لم يستقر على رأى يعول عليــه ، فأخــذت الخواطر تتقاذفه بين أن يصغى لقول الطاعنين على أخيه الحكم ، أو يبقى على ما كان عليه من حسن الظن فيه

وأخيرا رأى أن حسن الظن أدعى الى السلامة والوفاق ، فطرد تلك الخواطر من ذهنه ، وأراح ضميره من جهة أخيه وذهب الى فراشه . فعادت الى ذهنه صـــورة عابدة ، وتذكر ما سمعه من حديثها فأحس بلذة ، وشعر أن وجودها فى منزله من أكبر أسباب التسلية ، وأخذ يمنّى نفسه بمجالستها والتمتع بأدبها

بات الأمير عبد الله تلك الليلة على عزم الاخلاص لأخيه الحكم والتسليم له بحق ولاية العهد ، فلما أصبح الصباح دخل مكتبته وكانت تشغل قاعة كبيرة ثبّتت على جدرانها رفوف وضعت عليها الكتب بدون ترتيب ، فوضع كتاب (العقد الفريد) فى صدر كتب الأدب بحيث يسهل تناوله عند الحاجة اليه ، وأخذ يقلّب ما بين يديه من كتب الفقه والحديث ، ويعود الى الأدب والشعر ، فكان يرى مشقة فى الوصول الى الكتب ، فأخذ يعلل نفسه

بترتيبها متى عاد سعيد ..

— ٢٤ —

رسول ولى العهد

مضى معظم النهار ولم يعد سعيد ولا الفقيه ، فلما كان الأصيل سئم الأمير عبد الله من الانتظار .. فتذكر عابدة ، فأمر ساهرا حاجبه أن يأمر القهرمانة بارسالها اليه فى القاعة ليستمتع بحديثها ريثما يأتى سعيد والفقيه أو أحدهما ، وقد أحس بشوق الى لقياهما كى يعاود حديث الأمس ، ويظهر لهما ما عوّل عليه من اغفال أمر ولاية العهد ، ويتوقع أن يوافقــاه على رأيه ، فيزداد رسوخا فى الأمر

وعاد الحاجب يقول للأمير عبد الله : « ان جاريتك عابدة آتية » فأمره أن يعد مائدة من الفاكهة والحلوى وألوان الشراب المنعش ، فأعدها الخدم فى غرفة الأمس .. وجلس الأمير عبد الله وبيــده كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة يقلّب فى صفحاته

وبعد قليل جاءت عابدة ، وهى أجمل مما كانت بالأمس ، فتلقاها بالترحاب وأمرها بالجلوس ، وسألها عما اذا كانت تحسن العزف على العود ..

فأجابت عابدة : « نعم .. »

فأمر الأمير عبد الله باحضار عود ، فتناولته عابدة .. ولاحظ عليها علامات الخجل والانقباض ، فظن ان ذلك بسبب انشغالها لغياب سعيد ، فابتدرها قائلا : « كيف وجدت نفسك عندنا يا عابدة ؟ »

قالت عابدة : « انى بخير يامولاى .. وكيف لا أكون سعيدة ، وأنا فى رعايتك .. »

قال الأمير عبد الله : « يظهر انك فى شاغل لغياب سعيد .. وأنا أيضا فى قلق لغيابه ، ولكنه لا يلبث أن يأتى قريبا ولن يتكرر غيابه » ..

فلما سمعت عابدة ذكر سعيد صعد الدم الى وجهها ، فظن الأمير عبد الله أن ذلك نتيجة الخجل ، ولم يعلم ما يختلج فى قلبها من الهيام بسعيد ، فقال : « لا يلبث سعيد أن يأتى ، وقد شعرت بالحاجة اليه فى هذه الساعة ، حين دخلت مكتبتى ووجدت الكتب فيها مبعثرة ، وسأكلفه بترتيبها .. انه رجل حكيم وقد وقع من نفسى موقعا حسنا.. ويكفى من فضله انه كان السبب فى معرفتك»

فازداد تورد وجنتيها ، وعمدت الى التخلص ، فقالت : « لعل هذا السبب الأخير أقل حسناته بالنسبة الى مولاى الأمير ، وأما بالنسبة الى هذه الجارية فهو فضل كبير »

ففرح الأمير عبد الله من رقة أسلوبها ، وتحقق انها راضية بالاقامة فى قصره ، فقال : « لا .. بل الفضل له علىّ فى ذلك ،

وأرجو أن أستطيع مكافأتك على هذا الصنيع .. »

فتنهدت عابدة وقالت وهى تصلح العود فى حجرها : « ان سعيدا يستحق ثقة مولاى الأمير ، واذا اختبره وجده حكيما عاقلا صاحب رأى وهمة يتفانى فى خدمته .. »

فقطع الأمير عبد الله كلامها بلطف وقال : « لا نريده الا سالما معافى ، ولنا فيه خير مساعد يرتب مكتبتنا ، ويهدينا الى ما نطلبه من الكتب النفيسة .. »

قالت عابدة : « نعم .. ولكنه يفيد فى كل أمر يستشار فيه »

قالت ذلك وهى تتشاغل باصلاح وتر معوج ، وأظهرت عند الفراغ من هذه الجملة ان العود قد تم اصلاحه ، وعزفت عليه لحنا من الألحان المطربة ، وغنّت فطرب الأمير عبد الله . وتقدم اليها بعض الفاكهة والحلوى ، وأخذ فى تقريظ الصوت الذى سمعه واطراء أدائها له .. وهى تتواضع وتجيد فى العزف والغناء ، والأمير عبد الله متكىء على وسادة لايزداد الا اعجابا بالفتاة وطربا ، وقد قرر أن يكتفى بها عن سائر مطامع الخلافة

وبينما هما فى ذلك ، اذ دخل الحاجب ووقف بحيث يعلم الأمير عبد الله انه يريد أن يخاطبه ، فالتفت اليه وأشار بيده يسأله عن غرضه فقال : « ان بالباب رسولا من مولانا ولى العهد يحمل كتابا الى مولاى الأمير »

قال الأمير عبد الله : « ولى العهد ؟ » وقد ساءه الرجوع الى

شيء من أمره ..

فقال الحاجب : « نعم ياسيدى .. »

فقال الأمير عبد الله : « أين الكتاب ؟.. »

فخرج الحاجب وعاد والكتاب بيده ، فسلمه الى الأمير، فتناوله وهو يجلس ، وفضه وحوّل وجهه نحو نافذة يدخل منها النور، وأخذ يقرؤه وقد توقفت عابدة عن الغناء ، وأخذت تراقبه .. فرأت على وجهه تغيرا وهو يتفرس فى الكتاب ويعيد قراءته ، ثم اعتدل فى مجلسه وطوى الكتاب وجعله تحت الوسادة ، وأراد التظاهر بعدم الاكتراث .. ولم يخف على عابدة ما تولاه من الاضطراب ، ولكنها لم تعرف السبب .. فرأت من الأدب أن تبقى صامتة تنتظر أمره ..

أما الأمير عبد الله ، فانه بعد أن أطرق برهة وقف وتظاهر انه يطلب حاجة فى الغرفة الأخرى ، فمشى نحو الباب ثم رجع كأنه تذكر شيئا يستدعى رجوعه ، وجلس فى مكانه وعاد فأخرج الكتاب من تحت الوسادة وأعاد قراءته ، ثم شعر بما ظهر من قلقه بين يدى عابدة ، فأراد أن يوهمها بغير الواقع فقال : « ما بالك لا تغنين يا عابدة ؟ »

فتناولت العود ، وقالت : « خشيت أن أشغل مولاى عن قراءة الكتاب ، ولعل فيه ما يهمه أو يدعو الى اعمال الفكر فيشوش عليه عودى »

قال الأمير عبد الله : « ليس فيه شيء » وبدا الانقباض على وجهه ، ثم قال : « غنى يا عابدة .. غنى ما شئت »

فأخذت عابدة العود وغنت أغنية أخرى ، فأوقفها الأمير عبدالله وقال : « غنى قول عمرو بن كلثوم الذى ذكرته بالأمس :

اذا ما الملْك سام الناس خسفا
أبينا أن تقرّ الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا »

فأدركت من طلبه ان فى الأمر سرا غاظه .. وكانت قد علمت ان الكتاب جاءه من أخيه ففهمت بعض الشيء ، فأخذت تغنى وتجوّد وهو يترنح لها والغضب ظاهر على محياه

— ٢٥ —

الجواب

ثم جاء الحاجب ووقف بجانب الستارة ، فتذكر الأمير عبد الله انه ينبغى أن يجيب الرسول على كتابه ، فقال : « لعل الرسول ننتظر منى جوابا ؟ »

فأشار ساهر برأسه أن : « نعم .. »

فقال الأمير عبد الله : « قل له ليس عندى جواب .. » قال ذلك بنغمة التهديد ..

فخرج ساهر وفعل ما أمره به الأمير عبد الله ، ولكنه تلطف فى الأسلوب ، فبدلا من أن يقول : « ليس عند الأمير جواب » قال : « سيجيب على الكتاب بعد الآن .. »

فقال الرسول : « اننى مكلف بأن أعود بالجواب فى هـذه الساعة .. »

فرأى ساهر ألا يبلغ الأمير كلام الرسول على تلك الصـورة فاستمهله ، وهـمّ بالرجوع ، وكانت الشـمس قـد قاربت الغروب ، فسمع وقع حوافر بغلة فى الحديقة ، ثم رأى الفقيه قادما على بغلته حتى اذا وصل ترجّل وهمّ بالدخول ، فرأى رسول الحكم بالباب فعرفه .. فتقدم الرسول وسلّم على الفقيه ، فسأله عن سبب وجوده هناك فقال : « جئت برسالة من مولانا ولى العهد وأنا واقف ألتمس الجواب »

فدخل الفقيه وهو يقول فى نفسه : « ماذا عسى أن تكون تلك الرسالة ؟ » حتى أقبل على مجلس الأمير وعابدة ، فاستأذن ودخل فدعاه الأمير عبد الله الى الجلوس والغضب باد على محياه ، فعلم الفقيه ان سبب غضبه متعلق برسالة ولى العهد الحكم ، فسرّه ذلك لأنه يساعده على تحقيق غرضه ، فقال : « مالى أرى مولاى الأمير غاضبا ؟ »

قال الأمير عبد الله : « لا شىء » وأراد أن يتظاهر بعـدم الاكتراث ..

فقال الفقيه : « رأيت رسول ولى العهد الحكم بالباب .. هل بلغك خبر مجيئه ؟.. »

قال الأمير عبـد الله : « نعم .. وقد أخليت سبيله .. ألم ينصرف ؟.. »

قال الفقيه : « رأيته لايزال واقفا .. »

فصفق الأمير عبد الله فدخل ساهر الحاجب ، فابتـدره قائلا : « ألم تصرف الرسول ؟ »

قال ساهر : « بلّغته أمر مولاى ، فقال انه يريد الجواب الآن .. »

فلم يتمالك الأمير عبـد الله عن التحفز للوثوب ، ثم تراجع وقال : « أخبره بأن ليس عندى جواب .. ولينصرف »

قال ساهر : « قلت له يامولاى .. ولكنه لم ينصرف .. »

فأظهر الفقيه مشاركته للأمير فى غضبه ، فقال : « عجبـا من هؤلاء .. أيأمره الأمير بالانصراف ولا ينصرف ؟ ! وهل هو الا رسول مكلف !.. » والتفت الى الأمير عبد الله وقال : « هـل يأذن مولاى أن أعرف رسالة هذا الرسول وأنا أصرفه حالا .. »

فمد الأمير عبد الله يده الى الكتاب وأخرجه من تحت الوسادة ودفع به الى الفقيه وقال : « هذا هو الكتاب .. اطلع عليه .. »

فتناوله الفقيه وقرأه ، وهذا ما جاء فيه :

« من الحكم ولى العهد الى أخيه الأمير عبد الله

« أما بعد .. فقد بلغنا ان جارية أديبة تحفظ الشعر وتحسن الغناء جاءتك ، فأحببنا أن نراها .. فاذا جاءك كتابى فأرسلها الى مع رسولى ، ودمت يا أخى بخير وعافية »

ثم رفع الفقيه بصره الى الأمير عبد الله ، فرآه ينظر اليه ويتوقع رأيه فقال : « قد قرأت الرسالة ياسيدى .. فماذا ترى ؟ »

قال الأمير عبد الله : « قد علمت رأيى ، وهل ترى أن أجيبه الى طلبه ؟ »

فرأى الفقيه أن يغتنم تلك الفرصة لاثارة نقمة الأمير عبد الله على أخيه الحكم ، فقال : « قد رأيت الصواب .. ولا أظن الحكم يعنى بطلبه هذا الا الاستئثار لنفسه بكل شيء ، كأنه يرى ذلك من حقوق ولاية العهد »

فاغتصب الأمير عبد الله ضحكة وقال : « نعم من حقوق ولاية العهد .. ألم يكفه سكوتى عن تلك الولاية حتى يعتدى الى هذا الحد ؟.. »

فقال الفقيه : « ومع ذلك فان هذا الأمر يتعلق بسعيد ، وله فيه الرأى الأول بعد أمر مولاى الأمير »

قال الأمير عبد الله : « مهما يكن من ذلك فليس لرسالة أخى جواب .. »

قال الفقيه : « لا أرى بأسا من الاجابة على رسالته بما تراه »

قال الأمير عبد الله : « وماذا أكتب اليه ؟.. »

قال الفقيه : « اكتب ماشئت .. اعتذر له بأنك لا تستطيع أن تجيبه على طلبه لأسباب عندك لا تستطيع بيانها »

فنادى الأمير عبد الله الحاجب ، فدخل فقال له : « أحضر لى دواة وقرطاسا » فجاءه الحاجب بهما . فتناول القلم وكتب :

« من عبد الله الى أخيه الحكم ولى العهد :

« أما بعد .. فقد جاءنى كتابك فتأملته وعلمت ما به ، ولكنى لا أستطيع اجابة طلبك .. فأرجو قبول عذرى .. والسلام »

وختم الأمير عبد الله الكتاب ودفعه الى ساهر الحاجب وقال له : « سلّم هذا الكتاب الى الرسول » فخرج وسلمه اليه ..

وعاد الأمير عبد الله الى ما كان فيه ، وأشار الى عابدة أن تغنى . وكانت قد لاحظت شيئا يهمها عندما سمعت ذكر اسم سعيد فى أثناء الحديث ، فراحت تغنى :

ستعلم فى الحساب اذا التقينا
غدا يوم القيام من الظلوم
وينقطع التلذذ عن أناس
من الدنيا وتنقطع الهموم
الى ديّان يوم الدين نمضى
وعند الله تجتمع الخصوم

فكانت تغنى والأمير عبد الله مطرق يهز رأسه ، وقد جاشت فيه عاطفة الاعتبـار ، ولما فرغت من البيت الأخير ردد قولها : « وعند الله تجتمع الخصوم » ثم قال : « رحم الله أبا العتاهية »

واغتنم الفقيه تلك الفرصة وجعل يمدح عابدة وصوتها ، وهى تجـوّد فى الغناء ؛ وأحس الأمير عبد الله بحاجة الى سعيد فقال : « هل تظن يا ابن عبد البر أن سعيدا سيأتى الليلة ؟.. » ثم نادى ساهرا الحاجب فتقدم اليه ، فقال له : « أضيئوا السراج »

فخرج الحاجب ، ثم جاء أحد الخدم بالسراج ، وفى أثناء ذلك أجاب الفقيه على سؤال الأمير عبد الله قائلا : « أظن أن سعيدا لايلبث أن يأتى ، وقد أصبح مجيئه ضروريا الآن على ما أظن .. »

قال الأمير عبد الله : « لابد من حضوره فانه صاحب رأى »

— ٢٦ —

المائدة

وبينما هم فى ذلك ، اذ جاء الحاجب يقول : « ان سـعيدا الوراق بالباب .. »

قال الأمير عبد الله : « دعه يدخل .. »

فدخل سعيد ووجهه يتدفق هيبة وذكاء ، فتلقاه الأمير عبد الله مرحبا ..

وكانت عابدة أكثرهم سرورا ، فانها لم تتمالك عند دخـول سعيد عن الابتسام ، ونظرت اليه فابتسم لها ، وجلس وهو يحيّى الأمير عبد الله ، ثم الفقيه ابن عبد البر

فقال الأمير عبد الله : « مرحبا بصاحبنا سعيد .. لقد أبطـأت فى الحضور ؟ »

قال سعيد : « لقد كنت مشتغلا بتدبير شئون منزلى ، حتى أتفرغ لخدمة مولاى الأمير » ثم أشار الى عابدة وقال : « كيف رأيت عابدة اليوم ؟ »

قال الأمير عبد الله : « انها تأتينا كل يوم بطرب جديد .. بارك الله فيها » ثم نادى ساهرا الحاجب وأمره بأن يهتم بتهيئة الطعام

وبعد برهة أعدت المائدة فقاموا اليها ، واغتنم الفقيه غفلة من الأمير عبد الله وقصّ على سعيد أمر الكتاب الذى جاءه من أخيه الحكم ، واجابته عليه . فلما جلسوا الى المائدة قال سعيد : « هذه أول مرة أتناول فيها الطعام مع الأمير عبد الله بن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، وهو شرف عظيم والفضـل فى وصولى اليه يرجع الى هذه الفتاة الأديبة » وأشار الى عابدة

فأجابت عابدة ، وعيناها تلمعان : « بل الفضل لك يامولاى فى وجودى هنا ، فلولاك لم أنل هذه النعمة بمنادمة الأمير »

فقطع الأمير عبد الله كلامها قائلا : « والحق يقال انكما صاحبا فضل علىّ ، فانى أعد هذا الاجتماع طالع سعد جديد لم أصادف

مثله من قبل » ..

وكان الفقيه ابن عبد البر صامتا ، فالتفت الى الأمير عبد الله وبيده صدر دجاجة ، يهيئه لوضعه فى فمه ، وقال : « أنتم جميعا أصحاب فضل الا ابن عبد البر المسكين ، وهو أول من فتح باب التعارف » قال ذلك ووضع اللحم فى فمه ، ونظر الى سعيد من طرف خفى وغمزه ، فأجابه باشارة لطيفة

فضحك الأمير عبد الله وقد سرى عنه ، وقال مازحا : « ليس الفضل لأحد منا ، وانما الفضل لابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، فان كتابه دلنا على هذا الكنز الثمين » وأومأ الى عابدة بيد والى سعيد باليد الأخرى

فتناول سعيد سكباجة بين يديه وناولها الى عابدة وهو يقول : « ما بالك لا تأكلين يا عابدة ، خذى تناولى من طعام الأمير واشكرى الله على نعمه .. انك لا تبغين نعمة فوق هذه .. »

فمدت عابدة يدها لتتناولها .. وقطع الفقيه كلامه وهو يمد يده لتناول قدح الماء من الخادم المكلف بخدمتهم وقال : « ولو كانت عند ولى العهد ؟ » جعل هذه الجملة تتمة لما قاله سعيد

فأجابه سعيد : « لست أظن أن ولى العهد اذا بلغه خبر عابدة ، ولو فى العراق ، أن يتركها تفلت من بين يديه .. لكننا لا نرضى عن مولانا الأمير عبد الله بديلا .. »

فلما سمع الأمير عبد الله ذلك الحديث انشرح صدره ، لأنه

توسم فى سعيد مساعدا له على رد طلب أخيه الحكم ، وهو يظنه يقول ذلك ولا علم له بكتاب ولى العهد الحكم ، فنظر اليه وقال : « ما قولك اذا جاءنا كتاب من أخى ولى العهد الآن ، يطلب منا فيه عابدة ؟.. »

قال سعيد : « لا أظنه يفعل ذلك بعد أن عرف انها دخلت منزلك ، فان ما ناله من شرف ولاية العهد يشغله عن أن يسلبك جارية تجد متعة فى حديثها .. ان ولى العهد أسمى من أن يبلغ به الطمع الى هذا الحد ، فهو يدرك انه نال بولاية العهد حقه وزاد عليه ، فهل لايترك لأخيه فتاة تسليه بحديثها ؟ »

فنظر الأمير عبد الله الى الفقيه وابتسم ، يزعم انه يفعل ذلك خلسة من سعيد ، ويذكره بما اطلعا عليه من كتاب ولى العهد الحكم فى ذلك المساء ، فتجاهل سعيد وأتم كلامه قائلا : « وقد جرت عادة الخلفاء وولاة العهد فى الاسلام أن يوسعوا لأخوتهم وأعمامهم أبواب الرزق، ويعطوهم الجوارى والسرارى، ويخصونهم بالاقطاعات الواسعة ، ويفرضوا لهم الرواتب الباهظة، ويهدوا اليهم الهدايا الثمينة ، تعويضا لهم عما خسروه من حق الملك وخوفا من نقمتهم .. ومولانا ولى العهد الحكم يعلم ذلك ، فكيف يعقل انه بدلا من أن يهدى أخاه عشرات من أمثال هذه الجارية يطمع فى أن يسلبه اياها !.. »

وكان سعيد يتكلم والفقيه يعجب بدهائه ، وحسن أسلوبه فى

الايحاء للأمير عبد الله بالاصرار على رفض طلب أخيه ، والأمير عبد الله يعتقد أن سعيدا يقول ما يقوله وهو لا يعلم بما حدث ، وكان يشعر عند سماع كلام سعيد ان الحق ظاهر فى كل كلمة من كلامه ، واقتنع بأقواله اقتناعا تاما ، فأصبح يعتبر طلب أخيه الحكم تعديا على حقوقه ، وسرّه انه رفض طلبه .. وتأسف لأنه لم يغلظ لأخيه فى القول ..

- ٢٧ -

كتاب آخر

ولما فرغوا من تناول الطعام انتقلوا الى قاعة الاستراحة ، وعادوا الى سماع الغناء وسعيد يبالغ فى مدح عابدة ، والأمير عبد الله يزداد طربا بصوتها واعجابا بأدبها وجمالها ، حتى انتصف الليل وكادوا ينصرفون ، واذا بساهر الحاجب يدخل وبيده كتاب ووقف حيث يعلم الأمير عبد الله انه يريد مخاطبته ، فناداه وقال : « ماذا تريد يا ساهر ؟.. »

قال ساهر : « كتاب ياسيدى .. »

قال الأمير عبد الله : « من الذى أرسله ؟.. »

فتقدم ساهر به اليه وهو يقول : « من مولانا ولى العهد .. »

فمد الأمير عبد الله يده وتناول الكتاب من ساهر ، فعلم من

عنوانه انه من أخيه الحكم ، فاختلج قلبه فى صدره تطلعا لما عساه أن يكون فيه ، ولاسيما انه بعث به اليه فى تلك الساعة ، وكانت يداه ترتعشان وهو يفضه . وتطاول الحاضرون بأعناقهم وهم يتكهنون بما يحويه الكتاب .. سوى سعيد ، فانه كان يعرف ما يحويه ، ولم يفته خبر الكتاب الأول لأنه هو الذى حفز ولى العهد على كتابته دون أن يشاهده ، ولكنه استخدم فى الوصول الى ذلك دهاءه وحسن تدبيره

ففضّ الأمير عبد الله الكتاب وقرأه ، ولم يتمالك أن رمى به الى سعيد وقال له : « لقد صدق ظنك بأخينا ولى العهد .. هذا هو كتابه .. اقرأه .. »

فتناول سعيد الكتاب وهو يقول : « وهل أقرأه بصوت مسموع ؟ » ..

قال الأمير عبد الله : « اقرأ .. فليس فينا من يحسن الحذر منه .. »

فأخذ سعيد يقرأ الكتاب والجميع منصتون :

« من الحكم ولى العهد .. الى أخيه الأمير عبد الله ..

« أما بعد .. فانى استبعدت أن تكتب الىّ بما كتبت ، وكدت أنكره عليك لو لم يكن بخطك وعليه خاتمك .. أطلب منك جارية تضن بها علىّ ، وأنت — رعاك الله — لا تجهل منزلة أخيك ولى العهد لدى أمير المؤمنين ، فاذا قرأت كتابى هذا فأرسل الجارية

مع رسولى الليلة ، وعهدى بفطنتك وحسن تدبيرك انك فاعل ان شاء الله .. والسلام .. »

وكان سعيد يقرأ الكتاب ويقف عند كل فقرة ، ويهز رأسه استغرابا ، حتى أتى على آخر الكتاب فدفعه الى الأمير عبد الله وأطرق . وكان الأمير عبد الله وهو يسمع ما يحويه الكتاب ينظر الى عابدة ، فرآها قد تركت العود من يدها وقد بدت الدهشة على محياها ، وتظاهرت بأنها تتهيأ للنهوض .. فعظم ذلك على الأمير عبد الله . فلما أعاد سعيد الكتاب اليه تناوله وقال : « أرأيت ما بلغ من طمع أخى فىَّ ؟.. أصانعه وأجامله وألتمس رضاه وهو يهددنى ويلح فى طلبه .. »

فقال سعيد وهو يظهر الدهشة : « لم يكن ذلك ليخطر ببالى أو أصدقه لو لم أقرأ هذا الكتاب بنفسى .. »

فقال الفقيه بنغمة الفائز الظافر : « أما أنا فلم أكن أستبعده ، وقد أشرت الى مولاى الأمير عبد الله بمثل ذلك ، لأنى كنت أتوقعه . وهو — حفظه الله — يحسن الظن بأخيه وربما أساء الظن بى ، وحسبنى أقول ما قلته لغرض لى . فهذا كتابه جاء شاهدا يؤيد قولى . فما عليك يامولاى الا الطاعة .. فان الرفض يجر الى البلاء .. »

فكبر على الأمير عبد الله تهديد الفقيه واستخفافه بعزمه أمام الفتاة ، فقال : « الطاعة ؟.. وهل لولى العهد الحكم طاعة علىَّ

فى مثل ذلك ؟.. لم يبق الا أن يطلب نسائى وأولادى اليه ، أو لعله يريد أن أكون فى خدمته أيضا » قال ذلك وهو يهز رأسه

فقطعت عابدة كلامه وهى تهم بالنهوض قائلة : « لا أريد أن أكون سببا فى الخلاف بين الأمير وأخيه ، فالأولى بى أن أخرج أنا من هذه الدار وأعود الى خبائى ، أو أرجع الى بلدى . ولست أنا أهلا لأن أكون موضع نزاع.. لقدعهدنا أبناء الخلفاء يتنازعون على الخلافة ، ولكنهم يتهادون الجوارى والمغنيات والمقاطعات..»

فمد الأمير عبد الله يده اليها وأمسك بثوبها وأجلسها ، وقد هاجت فيه الأريحية وقال : « ألا تعلمين ان خروجك من قصرى اهانة لى ، كأنى عاجز عن حمايتك فيه .. كيف يتسنى لأخى أن يأخذك منى قسرا ؟.. وان تمكن من ذلك فاننى أخرج من هذا القصر قبلك .. » قال ذلك وقد ظهر الغضب فى عينيه ..

فجلست عابدة وهى تتظاهر بالاذعان والانكسار ، وتنظر الى سعيد كأنها تستنجد به

فنظر سعيد الى الأمير عبد الله وقال : « تمهل يامولاى .. أعرنى سمعك لحظة »

فسكت الأمير عبد الله وقال : « تكلم .. انى مستمع اليك »

فتلفت سعيد فى أطراف القاعة ، كأنه يخشى أن يسمعه أحد ، وقال : « هل نحن فى مكان مصون لابأس علينا اذا تكلمنا من واش أو رقيب ؟.. »

قال الأمير عبد الله : « تمهل » وصفق .. فجاء الحاجب ، فقال له : « لا تدع أحدا يقرب من مجلسنا .. »

قال الحاجب : « سمعا وطاعة ياسيدى » وخرج وأغلق الباب خلفه ..

فقال الأمير عبد الله لسعيد : « تكلم .. »

فأرسل سعيد نظرة فى عينى الأمير عبد الله نفذت الى داخل أحشائه ، فأحس انه طوع ارادته .. فقال سعيد : « لاينبغى للأمير عبد الله أن يخرج عن رشده ويطعن على أخيه ولى العهد الحكم ، ويرد طلبه الا وهو على يقين مما يؤدى اليه ذلك من العواقب الخطرة .. فعليك أن تتبصر فى العواقب ثم تقول ما تريد . وقد ظهر لى من تلاوة هذا الكتاب ان ولى العهد كتب اليك كتابا مثله يطلب فيه عابدة فرددت طلبه ، فأعاد الطلب مشفوعا بالتهديد والوعيد .. فعليك اذا أزمعت الرفض أن تثبت فيه مهما كلفك ذلك .. والا فاذعن وأطع ، وكأنك لم تر عابدة ولا أتت الى قصرك .. »

فقطعت عابدة كلام سعيد قائلة : « اسمح لى ياسيدى أن أنبهك الى أمر لعله لم يغب عن فطنتك.. انى لا أرى من الحكمة أن تحمل الأمير عبد الله على مخاصمة أخيه وهو صاحب القول اليوم ، ولا أراه يستطيع أن يرد طلبه.. ولا أحب أن أكون سبب هذا الخصام، فالأفضل أن أخرج أنا من هذا المكان أولا ، فيكون عذره انى

غير موجودة هنا . وأخشى اذا رد مولانا الأمير طلب أخيه وأنا باقية هنا أن يعمد الى أخذى بالقوة ، وأنا أعترف لك انى لا أريد بديلا عن سيدى الأمير عبد الله فلا أبرح هذا المكان الا قتيلة .. »

فأعظم الأمير عبد الله تعلق عابدة به مع ما يتخلل قولها من العتاب الرقيق .. وأخذته الحمية فقال : « قلت لك يا عابدة انك فى رعايتى ، ولا يستطيع أحد أن يأخذك قهرا .. »

فقال سعيد : « اذا كان مولاى الأمير عبد الله عازما على الرفض فليفعل .. ولعله اذا تبصّر فى عاقبة ذلك يكون قد حقق ما فيه نفعه ونفع المسلمين »

فأطرق الأمير عبد الله برهة وهو يفكر فى مغزى كلام سعيد

فتصدى الفقيه ابن عبد البر للكلام قائلا : « أرجو أن يكون مولاى الأمير قد أدرك مغزى هذا القول .. وأنا أزيده بيانا » قال ذلك وزحف حتى التصقت ركبته بركبة الأمير عبد الله وقال بصوت منخفض : « أتذكر يامولاى ما قلته لك بالأمس عن ولاية العهد ومايقوله الناس عن أمير المؤمنين، واسناده اياها الى الحكم دون سواه ؟.. قلت لك يامولاى ان الحكم لا يراه الناس كفئا لهذا المنصب لأسباب ذكرتها لك . وهم غير راضين عنه ، لكنهم لا يجسرون على الكلام ان لم يجدوا من يطالب بها سواه وهم يرون الأمير عبد الله أولى بها من الجميع . فاذا طلبها وجد أنصارا كثيرين ، فاذا وافقتنى وقمت بهذا الأمر .. فما عليك الا أن تقول»

— ٢٨ —

الجواب الثانى

وكان الأمير عبد الله فى أثناء ذلك مطرقا يفكر وقد رجع اليه صوابه ، وأحس بثقل الأمر الذى يدفعونه اليه ، وندم على ما فرط منه ، لعلمه بعجزه عن القيام به .. لكنه استثقل الرجوع عن كلامه فى الحال ، فرأى أن يحتال فى التخلص فقال : « أرى كلام صاحبنا سعيد أقرب الى الصواب ، فاننا ينبغى لنا قبل الاقدام على هذا الأمر أن نتدبَّر وننظر فيه قبل أن نشعل نارا لا نقوى على اطفائها .. لاسيما وان أمير المؤمنين هو صاحب الدولة اليوم ، فقيامى بما تدعوننى اليه يعد خروجا عليه .. وهو لم يتعرض لى فى شىء ، ولا أرى عمل أخى الحكم الا من عند نفسه ، قد ارتكبه عن طيش . ولعل والدى أمير المؤمنين اذا علم به أثناه عنه .. »

فقال سعيد : « لقد قلت الصواب يامولاى ورأيت رأى أهل الحزم والعقل.. فماذا تنوى اذن ؟.. هل تطيع أخاك فيما طلب ؟»

قال الأمير عبد الله : « كلا .. بل أرده ، فاذا أصرَّ عليه رفعت الأمر الى أمير المؤمنين »

فقال الفقيه : « لا أرى من الحكمة أن تضيّع هذه الفرصة التى سنحت لك .. انها فرصة ثمينة يامولاى ولا تخش شيئا ، ان

فى قرطبة ألوفا فى انتظار كلمة من الأمير عبد الله ليبايعوه .. واذا أطعتنى وعملت برأيى أدلك على الطريق .. والا فالرأى لك .. »

فنظر الأمير عبد الله الى سعيد كأنه يستشيره ، فقال سعيد :

« ان ما يقوله الفقيه قرين الصواب ، وأنا أعلم الناس بخفايا هذا الأمر ، وأزيد على ما قاله ان فى قرطبة عصابات قوية تجتمع فى الخفاء ، وهى ناقمة على أمير المؤمنين نفسه لخروجه فى خلافته عن سائر الخلفاء الراشدين، وتقريبه الخصيان والصقالبة والعبيد دون أصحاب هذه الدولة ورافعى علم الدين الحنيف ، وهم يرون أن الدولة ستنتهى بذلك الى غير أهلها .. وكانت الآمال متعلقة بمن سيخلفه ، لعله ينهج طريقا غير طريقه ، ويرجع الى الصواب .

وكانت أفكارهم تتجه الى مولاى الأمير عبد الله يأملون أن تصير الخلافة اليه .. فلما رأوا أباه بايع أخاه الحكَم ولم يبايع الأمير عبدالله ، قطع حبل آمالهم ويئسوا من الاصلاح .. فاذا طلبها مولانا الأمير وجد من يشد ازره ، والا فاذا ظللت على بيعة الحكَم فأنا مبايعه معك وليس من الحكمة التسرع فى نقض البيعة ، فأنا لا أشير عليك بأن تفعل أو لا تفعل .. ولكننى أقول ما أعلمه وأنت صاحب الرأى »

فأعجب الأمير عبد الله بما تضمنه حديث سعيد من الاخلاص والحزم وصدق النصيحة ، لأنه ظل يعد نصيحة الفقيه ابن عبد البر مشوبة بالغرض ، بسبب نقمته على أخيه الحكَم ، وهو الذى

حرمه من منصب القضـــاء ، فقال : « لله درك من حكيم عاقل وقد فهمت مرادك .. فهل ترى سرعة البدء ؟ »

فأجاب سعيد وهو يظهر الجد : « لا .. بل أنا أدعوك الى التبصر فى العواقب ، فان ظهورك بمنازعة أخيك الحكم على ولاية العهد أمر عظيـم ، يؤدى الى فتن وحروب .. اذ لايســهل على الحكم التنازل عن شرف قلّده اياه أبوه ، ولا يصح للأميرعبدالله أن يطلب ذلك المنصب ثم يرجع عنه صاغرا .. واذا رجع هو ، فأنصاره الذين سيقومون بنصرته لايرجعون حتى يسندوا الخلافة الى أهلها الذين يعرفون قدرها ، ويقومون بشروطها .. لأن قيام هؤلاء ليس حبا فى شخص الأمير عبد الله ، ولكنهم أحبوا فضائله اللائقة بالخلافة رغبة فى مصلحة أنفسهم .. فاذا طالب بها هو ثم رجع عنها طلبوها لسواه .. أرانا قد خرجنا عن الموضوع ، ونحن فى مسألة طمع ولى العهد الحكم بعابدة ، فاذا رجع عن طلبه لم يبق ثمة داع للعجلة فى مناوأته ، والا فنرى ماذا يكون » ..

وكان الأمير عبد الله والفقيه وعابدة شاخصين الى سعيد .. يسمعون كلامه ويعجبون لما يبديه من الحماس ، ولا سيما الأمير عبد الله فانه فهم أشياء لم تكن تخطر بباله .. فهم ان ثمة عصابات وأحزابا تنكر مبايعة أخيه الحكم وتحب مبايعته . ولو كان من أهل المطامع لاتخذ من طلب أخيه ذريعة لشن حرب عليه ، لكنه كان ضعيف العزيمة .. وانما سيق الى ذلك بالاغراء ، وظل مع

ذلك يخشى مناهضة أخيه الحكم ويخشى سطوة أبيه ، فرأى أن يعمد للمسالمة .. وساعده على ذلك ما سمعه من ســعيد فقال : « قد علمت أشياء لم أكن أعلمها .. »

فقطع الفقيه كلامه قائلا : « والذى علمتــه أقل من الواقع يامولاى .. وستكشف لك الأيام قدر نفسك ، وتعلم انك رجاء الألوف وألوف الألوف .. »

فأومأ سعيد بيده الى الفقيه وقال : « لاينبغى أن تحرض مولانا الأمير .. فان الصــبر أولى والتأنى لابد منه .. فالآن ما الذى يراه مولانا ؟ »

قال الأمير عبــد الله : « انى أرى الفقيه متسرعا ، وأوافقك ياسعيد على التأنى وطول الاناة ، ولذلك فأنا مرجىء هذا الأمر الى فرصة أخرى لأنى لا أزال أرى ان أمير المؤمنين سينصرنى ويقف فى طريق أخى ، فيرده عن هذا التعدى .. فاذا لم يفعل ذلك فالأيام بيننا .. »

فقطع سعيد كلامه قائلا : « نعم الرأى رأيك ، وربما أدرك أمير المؤمنين عند اطلاعه على عمل ولى العهد انه أساء الاختيــار فيما عهده اليه ، فيرجع الى الصواب وينقل ولاية العهد اليك .. »

فازداد الأمير عبد الله تمسكا برأيه ، فقال : « فاذن نؤجل ذلك الى فرصة أخرى ، ونبحث الآن فى طلب أخى .. »

فقالت عابدة : « مهما يكن من رأى الأمير فى طلب أخيه فأنا

خارجة بأمره من هــذا القصر » قالت ذلك ونهضت وهى تجمع خمارها الى صدرها ، وقد ألقت العود من يدها

فأمسك الأمير عبــد الله بطرف ثوبها وأجلســها وقال لها : « كيف تخرجين ؟.. »

قالت عابدة : « أخرج بأمر مولاى لأنى أصبحت ســببا فى النزاع مع أخيه و .. و .. »

فقطع الأمير عبد الله كلامها قائلا : « لقد أمرتك بألا تخرجى .. وقد قلت لك انه لن ينال قلامة منظفرك ، وها أنا سأكتب اليه رد رسالته الساعة .. » والتفت الى سعيد كأنه يستشيره فيما يكتب

فقال سعيد : « اكتب اليه بما أرى ولا تشدد الوطأة ، فان الحكمة تقتضى حسن الأسلوب لئلا تتغير القلوب . واذا سمحت لى أن أكتب عنك ، كتبت .. فاذا استحسنت ما أكتبه وقعت عليه والا رفضته .. »

قال الأمير عبد الله : « اكتب .. »

وكانت الدواة والقرطاس لايزالان هناك ، فتناول سعيد القلم وكتب :

« من الأمير عبد الله الى أخيه الحكم ولى العهد ..

« أما بعد .. فقد تسلمت كتابك ، وعجبت لالحاحك فى طلب تلك الجارية بعد أن اعتذرت اليك عن ارسالها ، وأنت مع ذلك تهددنى وتعرض بما لك من المنزلة عند أميرالمؤمنين ـــ حفظه الله ـــ

وأمير المؤمنين أكبر من أن يجاريك فى طلبك .. ولعلك تحسب ذلك من حقوق ولاية العهد ... على رسلك ، ليس هــذا من الصــواب فى شىء ، وقد رأينــا الخلفاء فى الدولتين : الأموية بالشام . والعباسية فى العراق ، وفى دولة آل مروان هنــا ، اذا أكرموا أحد أبنائهم بولاية العهدعوضوا علىسائر الأبناء والأعمام بالعطايا الجزيلة ، ووسعوا لهم فى أرزاقهم ووالوهم بالهدايا من الجوارى والسرارى والقصــور والاقطاعات . فاذا علمت ذلك رجوت أن تعدل عن رأيك الى ما هو جدير بك ، فى مراعاة حرمة أخيك بعد أن هيأك بما نلته من حق الخلافة . وأنت أعقل من أن تغيّر قلبــه عليــك . ونحن أحوج الى التكاتف على عدونا من الانقسام فيما بيننا .. والسلام »

فلما فرغ سعيد من الكتابة دفع الكتاب الى الأمير عبد الله ، فقرأه ، فأعجبه أسلوبه .. ولم يدرك ما فيه من التهديد ، فوقّع عليه وختمه ونادى الحاجب وأمره أن يدفع به الى الرسول..ففعل

– ٢٩ –

ختام الجلسة

أما سعيد فأراد أن يشغل الأمير عبــد الله عن ذلك الشأن ، فقال : « هل يأمر مولاى أن يسمع أغنية من عابدة قبل الذهاب

الى النوم ، أم يفضل سماع الأحاديث والأشعار ؟ »

قال الأمير عبد الله : « نسمع شيئا من أخبار العرب »

فالتفت الى عابدة وقال : « قصى علينا ما تعرفينه يا عابدة ..»

قالت عابدة : « وما عساى أن أقول بعد ما سببته من الخلاف بين الأمير عبد الله وأخيه ولى العهد الحكم . أود لو انى لم أخلق ، أو انى لم أخرج من بغداد ولا أكون سببا لهذا الخلاف »

فقطع الأمير عبد الله كلامها قائلا : « أنت تنقمين على وجودك ، ونحن شاكرون له ، لأنك ريحانة مجلسنا .. واذا وقع خلاف بينى وبين أخى ، فهل هو أول خلاف وقع بين أخوين؟.. ولو استطعت الصبر على الضيم لم أرض بالخلاف .. ولكن أخى تجاوز حده .. مالنا ولذلك ، قصى علينا ما يسلينا ساعة .. ثم ننصرف »

فقصت عابدة بعض الأخبار وأنشدت بعض الأشعار بعبارة فصيحة زادت الأمير عبد الله تعلقا بها .. وأخيرا ذهب كل منهم الى فراشه ، ولكل منهم هاجس . وأشد تلك الهواجس عند الأمير عبد الله ..

فانه حين توسد الفراش أخذ يراجع صيغة كتابه الى أخيه ، فتذكر عبارات لا تخلو من الشدة ، ولكنه استسلم للقضاء ، وقال فى نفسه : « لعلها فرصة يعود خيرها علىّ » واستسهل العمل بمشورة الفقيه فى المطالبة بولاية العهد ، وعلل نفسه بأن أباه لايدع الخلاف يتمكن بين الأخوين الى هذا الحد

قضى تلك الليلة قلقا وهو يتقلب فى فراشه .. وما أن طلع الفجر حتى أسرع الى المكتبة ، وبعث الى سعيد فجاء وقد تأهب لترتيب الكتب.. فطلب الىالأمير أن يسعفه ببعض الخدم لمعاونته.. فجمع كتب الأدب على حدة ، وكتب الفقه وحدها ، وكذلك فعل بكتب الحديث والتفسير والشعر ، ولم يجد بينها كتابا فى الفلسفة أو الطبيعيات أو نحوها من الكتب المترجمة عن اليونانية ، لأنهم كانوا يعدون اقتناءها من قبيل الزندقة . وكان الأمير عبد الله مشهورا بالتقوى والزهد حتى سموه الزاهد (١) . وقد رأيت فيما تقدم انكاره أمر هذه الكتب على أخيه حينما قيل له ان أخاه يقتنيها . وكان ذلك الاعتقاد شائعا فى العالم الاسلامى مسايرة لما يريده الخلفاء ، وهؤلاء كانوا ينكرون أمر هذه الكتب مراعاة للدين على ما يفسره الفقهاء فى ذلك العهد . وكان رجال السلطة يراعون أقوال الفقهاء احتفاظا بنفوذهم لدى العامة

فكان للفقهاء فى الدول الاسلامية يومئذ نفوذ عظيم ، وقد يكون الخليفة أو السلطان المسلم لاينكر الفلسفة ولا يعتقد مخالفتها للدين ، ولكنه يضطهد أصحابها مراعاة لشعور العامة

على ان الفلسفة لم يكن لها وجود فى الأندلس الا بعد زمن الناصر ، أى بعد أن دخلتها رسائل اخوان الصفا فى أواسط القرن الرابع ، فنبغ فيها ابن باجة ، وابن رشد ، وابن الطفيل فى

(١) المقرى ــ الجزء الثانى

القرن السادس للهجرة .. أما فى أيام الناصر التى تتحدث عنها ، فقد كان قرّاء الفلسفة قليلين .. وكان قد دخل بعض كتب الفلسفة فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، فأخذ بعضهم بشيء منها ومن علم النجوم والرياضيات ، ولم ينبغ من العلماء فى هذه الفنون الا عدد قليل .. وانما كان رجال الدين يحرمون هذه الموضوعات اقتداء بالدولة العباسية ، فانها كانت تطارد رجال الفلسفة وتتهمهم بالكفر فى أوائل التمدن الاسلامى

— ٣٠ —

طبيب ماهر !

كان عبد الله يراقب حركات سعيد فى انتقاء الكتب حسب الموضوعات ، وربما ساعده فى فرزها وهو فى شغل من نفسه بأمر أخيه وعابدة .. ونحو الظهيرة أحس بتعب وانحراف فى صحته ، فأخبر سعيدا بأنه مضطر للراحة .. وبقى سعيد ثم جاء الفقيه ، فلما قيل له ان عبد الله فى فراشه أخذ يعاون سعيدا ويحادثه ، ويتكهن كل منهما بما عساه أن يكون جواب الحَكَم على كتاب عبد الله الأخير مع ما فيه من المغامز .. فكان الفقيه يزعم انه موقن بما سيكون حتى قال : « كأنى أرى جند الحكم وأعوانه قادمين للقبض علينا وعلى عابدة »

فهز سعيد كتفيه كأنه يقول : « لا أعلم » ثم قال : « لا أحسب أن ولى العهد يفعل ذلك .. ومهما يكن من أمر ، فان عابدة لن تذهب اليه ولو رضى الأمير عبد الله »

فضحك الفقيه واقترب من سعيد ، وفى يده كتاب ينفض عنه الغبار ويقدمه اليه ليضعه فى مكانه وقال : « وخلاصة القول ان النفور قد وقع بين الأخوين ، ولا يلبث أميرنا أن يوافقنا على القيام ضده .. وأنت ترشدنا الى الأحزاب المناصرة لنا ، فلا يمضى العام الا وقد انتقلت ولاية العهد أو الخلافة الى صاحبنا »

فنظر سعيد فى عينى الفقيه ، وقد استغرب تسرعه فى الحكم . كيف انه تصور بلوغه الى أقصى المراد وهم لايزالون فى أول الطريق ، بل هم لم يخطوا خطوة واحدة بعد .. ومن الناس من تراه سريع التمسك بحبل الأمل حسن الظن بالدهر ، اذا تصور عملا يعود عليه بالنفع ، فبمجرد التصور أو الظن يحسب أن الأمر قد قضى وانه سينال ما يريد .. فهذا وأمثاله لايرون الدنيا الا من وجهها الأبيض ويعبَّر عنهم بالمتفائلين ، لأنهم لايتوقعون دائما الا الخير ، وكان الفقيه منهم .. خلافا للفئة الأخرى التى لا يتوقع أصحابها فى أعمالهم الا الفشل وهم المتشائمون ..

ولم يكن سعيد من المتفائلين أو المتشائمين .. وانما كان يقيس المستقبل على ما يراه فى الحاضر. فكان رأيه فى نتيجة تلك المغامرة يختلف عن رأى الفقيه ، ولكنه كان لدهائه يتظاهر بالجهل

والسذاجة حتى يوحى بما يريد الايحاء به من الأغراض . وكان ينظر الى الفقيه كأنه طفل لايعرف من أحوال الدنيا شيئا ، ولذلك فانه يستطيع أن يوجهه كيفما يشاء

قضـــوا ذلك النهار فى المكتبة .. والأمير عبـــد الله لم يغادر فراشه . ولما أمسى المساء ذهب الفقيه للسؤال عن الأمير ، فقيل له انه محموم وعنده ساهر الحاجب ، فاســتأذن فى الدخول عليه فأذن له ، وسأله عن حاله ثم قال له : « ألا تأمر بطبيب يراك ؟ »

قال عبد الله : « وأى طبيب ؟ »

قال الفقيه : « الأطباء كثيرون فى قصر أمير المؤمنين ، واذا شئت استحضرنا لك سلمان بن تاج طبيب أمير المؤمنين نفســـه ، أو أحمد بن جابر طبيب ولى العهـــد (١) أو غيرهما ، ان الأطبـــاء كثيرون »

فهز رأسه وقال : « لا هذا ولا ذاك .. »

فقال الفقيه : « أو اذا شئت استشرت سعيدا صاحبنا فانه عالم بفن العلاج مثل علمه بسائر العلوم .. انه رجل عجيب »

فلما ذكرسعيدا أحسَّ الأمير عبدالله بارتياح وقال : « ان هذا الرجل من نوادر الزمان . وأشكر الله على أنى وفقت للوصول اليه .. ولك الفضل فى ذلك »

فأطرق الفقيه تأدبا وقال : « فى الحق ان سعيدا نادر المثال .. »

(١) طبقات الاطباء ٤٦ ـ الجزءالثانى

فقال الأمير : « وعابدة ؟ أليست نادرة المثال أيضا ؟.. هل رأيت فتاة أديبة تعرف الشعر والغناء مثلهـــا ؟ » وكأنه تذكر حديث الأمس فانقبضت نفسه ، فابتدره الفقيه قائلا : « هل يأذن سيدى فى استقدام سعيد لعله يصف لك علاجا ؟ »

قال عبد الله : « ادعه .. ان لم يكن للعلاج بدوائه فللاستئناس برؤيته » ..

فأشار الى ساهر ، فخرج وعاد وسعيد معه ، وكان الليل قد أسدل ستاره وأنيرت المصابيح ، ولحظ سعيد من احمرار عينى الأمير ان الحمى شديدة عليه ، فأخذ يده فجس نبضـــه وأطرق كأنه يتأمل حركة النبض ثم قال : « ألم يجمع مولانا الأمير ماءه (البول) (١) »

قال عبد الله : « قد جمعته فى هـــذه القارورة » وأشار الى الغلام فأتاه بقارورة قد جمع فيها البول.. فتناولها سعيد وتطلع اليها هنيهة ثم قال : « ان مولانا مصاب بحمى غضبية ، وهـــذا النوع من الحمى لا خوف منه ، وان اشتد »

فأعجب عبد الله بسرعة تشخيصه .. ووافق ذلك ما فى نفسه لأنه كان يعتقد ذلك . وكانت هـــذه الحمى معروفة عندهم بهذا الاسم ، فقال : « أظنك عرفت الحقيقة لأنى أصبت بها مرة من

(١) كانت العادة فى ذلك العصر انالانسان حالما يشعر بانحراف فى صحته يبادر الى جمع البول فى قارورة يحملهاالى طبيبه كى يستعين بها على تشخيص المرض ، وقد يكتفى بارسال القارورة

قبل وشفيت منها .. يظهر انك طبيب ماهر »

قال سعيد : « ان معرفة هذه الحمى أمر يسير »

قال عبد الله : « كيف عرفتها ؟.. وعلى من قرأت الطب ؟ »

قال سعيد : « تعلمته بالمزاولة على امام الأطباء الشيخ محمد ابن زكريا الرازى رئيس بيت الشفاء فى بغداد ، وهو الذى دبَّر مارستان الرى وألّف كتاب الحاوى الذى يعتمد عليه الأطباء اليوم فى دار السلام »

قال عبد الله : « صدقت ان الرازى امام أهل الطب ، ولكننى أحسبه مات »

قال سعيد : « نعم ، انه مات منذ بضع عشرة سنة ، وقد جاء فى كتابه المشار اليه وصف كاف عن هذه الحمى »

قال عبد الله : « وما العلاج ؟ »

قال سعيد : « انه يعالجها بالمفرِّحات وسماع الطيب من الحكايات ، واللعب ، والاستحمام بالماء الفاتر ، والتمرخ بدهن كثير ، والتغذية بما يبرد ويرطب (١) »

فقال الفقيه : « لله درك من طبيب نطاسى .. ان العلاج سهل . أما المفرّحات فهذه عابدة قريبة ، وعودها رخيم ، والحمّام الفاتر سهل المنال »

فأشار عبد الله الى الغلام أن يعد له حماما فاترا ، والتفت الى

(١) القانون

سعيد ، وقال : « سأدخل الحمام بعد قليل ، ومتى خرجت منه تأمر عابدة أن تغنينا أغنية مفرحة »

فنهض سعيد وهو يقول : « سأعود الى الأمير بعد قليل ومعى عابدة .. عجبا لها من فتاة ، لها نفع كثير »

وخرج ومعه الفقيه ثم أحضر له المروخ ليتمرخ به عند الخروج من الحمام . وبعد ساعة بعث الأمير اليه انه استحم وتمرخ ، فجاء سعيد ومعه عابدة تحمل عودها . وجاء الفقيه ودخلوا على الأمير فى غرفته ، وأخذت عابدة تعزف على عودها وتغنى .. وكان الأمير قد أحس براحة منذ خرج من الحمام ، فانشرح صدره لسماع الغناء ، واستأنس بالفتاة وزاد تمسكا بها ، وشعر براحة تامة كأنه لم يكن به بأس . فلما انقضى جانب من الليل أشار سعيد عليه بالنوم مبكرا التماسا للراحة ، فأطاعه ، وخرجوا على أن يبكروا فى الغد . وذهب كل الى منزله فى قصر مروان

وفى صباح اليوم التالى خلا سعيد بعابدة يعلمها شيئا من الشعر . وهى انما كانت تتلذذ بمجالسته شغفا بحديثه وتمتعا برؤيته لما علمته من تعلقها به .. فقد كانت تهيم به وتتفانى فى حبه ، ولا تبالى بما تتجشمه فى سبيل طاعته ..

— ٣١ —

طارق

وبينما كان سعيد فى ذلك ، اذ جاءه رسول الأمير يستقدمه اليه فأسرع ، وقبل وصوله الى باب القصر لاحظ ان بالباب رسولا صقلبيا من صقالبة الناصر ، وتأكد من ذلك حين أقبل على الباب ، فرأى الرسول واقفا هناك وقد ترجَّل عن جواده ، وبجانب الجواد هودج عليه ستائر .. كأن فيه امرأة

فلما أقبل على الباب تقدم الحاجب ساهر واستقبله ، وأشار اليه أن يدخل على الأمير ، فدخل توا فرآه لايزال فى فراشه ، وقد نزع عمامته ولبس قبعة النوم . ورأى الفقيه بين يديه ، وكلاهما ساكت .. وفى يد الأمير رق عرف من العلامة التى على ظهره انه كتاب من أمير المؤمنين . فتجاهل وحيًّا وهو يتبسم وينظر الى الأمير نظرة مستفهم عما هو فيه ، وابتدره قائلا : « كيف أصبح مولانا ؟ »

قال عبد الله : « أصبحت بخير من فضل الله ، وقد فارقتنى الحمى ، لكننى لا أظنها الا عائدة الىَّ قريبا »

قال سعيد : « لا تخف ياسيدى .. انها لا تعود بعد ذهابها . وماذا أرى ؟ » وأشار الى الرق

فأشار عبد الله الى الفقيه أن يغلق الباب ، ومد يده وناول

الرق الى سعيد ..

فتناوله سعيد وقرأه وأعاد قراءته ، ثم نظر الى الفقيه فرآه ينظر اليه وينتظر ما يبدو منه ، فتلفت سعيد حوله ، ثم وجَّه كلامه الى الأمير عبد الله قائلا : « هذا شأن آخر .. لم يخطر لى على بال .. »

قال الفقيه : « لم يخطر لك ولا لمولاى ولكنه خطر لى .. وقلته ولم تصدقونى »

قال سعيد : « لم يخطر لى ان أمير المؤمنين يمالىء ولى العهد على طلبه » ..

فقال الفقيه : « استغرب كيف لم يخطر لك ذلك وأنت الحكيم العاقل الذى لايفوته شىء .. ألا تعلم ان الرجل اذا انغمس فى الترف والقصف طلب الزيادة منهما ؟ واذا تعود الاستبداد هان عليه الظلم ؟ »

وكان عبد الله مطرقا يفكر فرفع رأسه وقال : « يهون عليه أن يظلم ابنه أيضا ؟ »

فقال الفقيه : « هو لم يظلم ابنه ، ولكنه ظلم الأمير عبد الله التقى الزاهد انتصارا لابنه العامل على رأيه فى كل شىء .. انتصر لولىِّ عهده »

فقطع سعيد كلامه قائلا : « انه لم ينصر ولى العهد وانما يطلب عابدة الى قصره »

قال عبد الله : « يطلبها اليه ليعطيها لولى عهده .. » قال ذلك وصرّ على أسنانه واستلقى على الفراش وتنهد

فقال سعيد : « لا تغضب ياسيدى .. كن على يقين ان ولى العهد لن ينالها ، وقد سمعت من عابدة نفسها فى الأمس انها لن تذهب اليه ولو قطعوها اربا »

قال عبد الله : « ولكن هل نعصى أمر والدى فى ارسالها ؟ ألا ترى انه يطلب انفاذها اليه فى هودج القصر ؟ ألم تر الهودج فى الحديقة ؟ » ..

قال سعيد : « نعم رأيته .. واذا ذَهَبَتْ الى القصر فهو قصر الزهراء لا يقيم فيه ولى العهد كما تعلم »

قال الفقيه : « ولكنه يحتال هذه الحيلة علينا لعلمه ان الأمير عبد الله لا يمكن أن يعصى أمر والده ، فيرسل الفتاة حالا ، ومتى صارت فى قصر الخليفة سلمها الخليفة الى ولى عهده »

فأطرق سعيد هنيهة وهو يفكر .. ثم أعاد النظر الى الرق وقرأه ثانية وقال : « لا يمكن أن يفعل ما تقول فانه يطلب ارسال عابدة ليراها بعد أن سمع بأدبها ورخامة صوتها . نعم هو يقول انه سمع ذلك من ولى العهد ، ولكنه اذا رآها لا يعطيها له »

قال الفقيه : « وهل تظن ان ولى العهد يسكت عنها ولا يطلبها من أبيه ؟ واذا طلبها منه هل تظن ان أمير المؤمنين يغضبه ويحول بينه وبينها ؟ »

قال سعيد : « أظن انه يغضبه ، ولا يسلمها له »

فقال الفقيه : « وهل يرضى الحكم بذلك ؟ ويرضخ كما يفعل مولانا الأمير ؟ »

فقطــع الأمير كلامه قائلا : « ان طاعة والدى فرض علىَّ وعليه ، فاذا لم يرض أو اذا آثره والدى علىَّ بهذه الجارية .. » ولما وصل الى هنا اعتدل فى مجلسه ، وقد تملكه الغضب ، وجعل يحك أنفه ويهز رأسه .. متشاغلا عما جال فى خاطره

فقال الفقيه : « اسمع يامولاى .. اذا امتنع أمير المؤمنين عن تسليمها لأخيك ، وغضب هذا وتنافرا ..كان ذلك غاية ما نرجوه ، لأن الخليفة يرجع عند ذلك عن قراره ويجعل ولاية العهد اليك . ولكن ما قولك اذا لم يتغاضبا عليها ؟ »

وكان الأمير عبد الله قد اشتد حنقه حتى عجز عن كظمه وخاصة لانحراف مزاجه .. والرجل أثناء المرض تبدو له الأمور غير ما تظهر فى حال صحته ، وكثيرا ما تهون عليه وهو فى اعتدال مزاجه وتمام صحته أمور لا تهون عليه وهو مريض ، وذلك أمر مشاهد لاريب فيه .. حتى التوعك البسيط ، يبعث صــاحبه على حدة الطبع والخروج عن الاعتدال ، فيخونه الصبر ويعصاه الكظم ، فيقول ما لايرضاه لنفسه وهو فى صحته .. فالأمير عبد الله كان يحمّل نفسه مضض الكظم خوفا من الفشل ، وكان يرجو نصرة أبيه ، فلما رأى أباه يطلب نفس ما طلبه أخوه غضب وهان عليه

الخروج عن طاعته .. فلما سمع سؤال الفقيه : « واذا لم يتغاضبا ؟ » صاح : « اذا لم يتغاضبا .. سوف أغضب أنا »

فقال الفقيه : « وهل تعرف الغضب ياسيدى ؟ ! »

فنظر سعيد الى الفقيه شزرا وقال : « أراك لا تحسن التعبير يا فقيه .. ان العاقل لا يغضب الا قليلا ، واذا غضب كان غضبه عظيما . ألا تذكر ما كان من صبر مولانا وطول اناته ، وكم أردت اغضابه ولم يغضب لأنه كان يتوقع بابا للفرج محافظة على كرامة أميرالمؤمنين ، ومراعاة لحقوق أخيه .. فلما لم يفد الصبر غضب ، وليس غضب مثله يجوز فى كل حال لأنه لايغضب ويرضى فى كل ساعة كالأطفال ، وانما يصبر ويكظم حتى اذا يئس من المسألة غضب ، فتغضب لغضبه الأمة برمتها ، ولا ترضيه عند ذلك كلمة لطيفة .. وانما يرضيه أن يعود اليه حقه بعد ضياعه » وكان يتكلم بلهجة الجد ، فلما وصل الى هنا تراجع وأظهر انه صرح بما لم يكن يريد التصريح به

— ٣٢ —

الى أمير المؤمنين

فتأثر الأمير عبد الله من قوله ، ورأى أن الحق فى جانبه ، وحاول مع ذلك أن يمسك نفسه فلم يجد له مسوغا بعد أن رأى

أباه قد ساند أخاه على سلبه تلك الجارية ، فلاح له عند ذلك أن يتثبت من المساعدة التى يرجو أن ينالها اذا ناهض أباه ، لكنه تهيب أن يطلب ذلك من تلقاء نفسه . ونظر سعيد فى عينيه نظرة اكتشف بها مكنونات قلبه ، وأدرك ما يجول فى خاطره .. فعلم ان النبتة أوشكت ان تؤتى أكلها ، فأراد أن يتعجل نضجها .. فدنا من مجلس الأمير ونظر اليه نظرة الجد والاهتمام وقال : « اعلم يامولاى انك لم تدخر وسعا فى مجاملة أخيك ، وأنت الآن ينبغى لك أن تجامل أباك ، على شرط أن لا يقلل من منزلتك ولا يميز أخاك عنك ، فاذا أنصفك فهو أمير المؤمنين . والا .. فلا يعدم الحق أنصارا »

قال الأمير : « ترى اذن أن أرسل اليه عابدة ؟ »

قال سعيد : « ألا يقول فى كتابه انه يحب أن يراها ثم يعيدها ؟ وأنا سأكون معها كما أنا معها هنا لأعلمها وأفقهها ، فلا تخف أن يضيع شىء من حقك »

فتصدى الفقيه قائلا : « اذا دخلت عابدة قصر الزهراء ، فانها لن تعود الينا .. اعلم هذا من الآن »

فقال عبد الله : « اذن لا أخرجها من منزلى الا بالتوة »

فقال سعيد : « ليس هذا من حسن السياسة فى شىء .. سنذهب الآن واذا مضى يومان ولم يؤذن برجوعنا حق لك كل ما تريد » ..

وكان الفقيه يفكر فى الأمر ، ولا يرى ان هذه الطريقة تحقق غرضه ، فقد يحبس سعيد هناك ، ولا يبقى له من يعول عليه فى نصرة الأمير للقيام ضد أبيه ، فقال : « لا نأمن اذا دخلت قصر الزهراء أن تُحجز فيه ... »

فقطع كلامه قائلا : « لا تخف »

وبينما هم فى ذلك اذ جاء ساهر وقال : « ان الرسول يطلب الجواب حالا »

فالتفت سعيد الى الأمير فرآه ينظر اليه فقال : « اكتب الى أبيك انك أطعت أمره وأرسلت الجارية مع أستاذها ، واطلب اليه أن يعيدها اليك بعد يومين .. هل أكتب عنك لأنك مجهد بسبب الحمى ؟ »

قال عبد الله : « افعل »

فتناول سعيد قرطاسا وقلما وكتب :

« الى أمير المؤمنين الناصر من ولده عبد الله

« أما بعد ، فقد أخذت كتاب سيدى الوالد الذى يطلب فيه الجارية الأديبة التى كان أخى الحكم قد طلبها لنفسه فدفعتــه بالحسنى ، على أن يكتفى بما منح من نعم الله وفضل أمير المؤمنين ، ويترك لى هذه الجارية أتمتع بأدبها وغنائها فى وحدتى وانقطاعى . ثم جاءنى كتاب مولاى بارسالها اليه ليراها ثم يعيدها ، فأطعت وفعلت .. وقد أرسلتها مع أستاذها سعيد الوراق . وهو الذى

جاءنى بها واشترط أن يكون فى صحبتها ليقرئها الأدب ويحفظها الشعر ، وهو أهل لثقة أمير المؤمنين .. وعهدى بالوالد ــ حفظه الله ــ أن يعمل بما قال ، وعنده ألوف من الجوارى الحسان على اختلاف الأصناف ، فلا يبخل علىَّ بهذه وقد استأنست بأدبها .. وهو فاعل ان شاء الله »

ودفع الكتاب الى الأمير عبد الله .. فقرأه ووقع عليه باسـمه ودفعه الى ساهر ليعطيه للرسول ، واسـتأذن فى الذهاب الى عابدة ، وكانت فى غرفتها تنتظر أمر عبد الله فى الخروج اليه . فلما رأت سعيدا قادما اليها خفق قلبها فرحا برؤيته ، فهش لها وسلَّم عليها ومد يده لمصافحتها ، فصافحته وقلبها يرقص فرحا ، ولبثت تنتظر ما يقول ..

فأجلسها وجلس الى جانبها وهو ينظر فى عينيها ، فلم تتمالك الا الاطراق فقال : « قد وفّقت الى ما يسرك »

فأجفلت وقالت : « هل آن لنا أن نجتمع ؟ »

قال سعيد : « نعم .. »

فضحكت فرحا وقالت : « أين ؟ »

قال سعيد : « فى قصر الزهراء »

فدهشت ولم تفهم مراده ، وظهر الاسـتغراب على وجههـا وقالت : « مالى ولذلك القصر ؟ »

قال سعيد : « ان المهمة التى جئت من أجلها لا تتم الا هناك »

قالت عابدة : « انى لا أطلب القصور »

فقال سعيد : « ألا يسرك أن نكون معا هناك ؟ »

قالت عابدة : « كلا .. لأنى هناك لا أكون لك »

قال سعيد : « لايتم لنا ما نريده الا بعد الذهاب الى ذلك القصر ، وستكونين هناك جارية منادمة وأدب الى أجل مسمى..»

فقطعت كلامه قائلة : « لا .. لا أريد القصور .. أفضل أن أكون معك فى كوخ حقير على أن أكون ... »

فقطع كلامها وقال وهو قابض على يدها ينظر فى عينيها : « أريد أن نكون معا هناك ، وقد وعدت أن تساعدينى فى تحقيق الغرض الذى قمنا من أجله »

فأحست بقشعريرة ذهبت بارادتها ، وشعرت انها طوع ارادته ولم تتمالك أن قالت : « افعل ما تريد .. اذا كان ذلك يسرك »

قال سعيد : « لايسرنى فقط ، ولكنه واجب لابد من قضائه ، فاذا فرغنا من هذه المهمة تفرغنا للحياة معا .. هل أنت على وعدك بأن تفعلى ما أوصيك به ؟ »

قالت عابدة : « نعم .. »

فمد يده الى جيبه وأخرج حقا فيه مسحوق وقال : « احتفظى بهذا العقار لأنبئك بما يلزم أن تعملى به »

فتناولت الحق وجعلت تنظر فيه فقال : « لا تنظرى فيه طويلا سوف تعلمين ماذا تفعلين به .. خبّئيه بين ثيابك وانهضى لنذهب

معا ، ان الهودج فى انتظارك خارجا »

فنهضت وأصلحت من شأنها وهى مسرورة بأنها تفعل ما أمرت به ، ونسيت نفسها وتغاضت عن أمنيتها كأنها نوّمت تنويما مغناطيسيا ..

خرجت وركبت فى الهودج ، وتوجه هو الى الأمير عبد الله فودعه وودع الفقيه وطمأنها ، وركب بغلته وسار فى اثر الهودج يطلبون قصر الزهراء

ولم يكن نهم بد من المرور على القنطرة فوق الوادى الكبير ، فتجاوزوها والرسول يتقدمهم وهم يسيرون فى أثره ، وسعيد يهيىء ما يقوله ، وعابدة داخل الهودج تسترق النظر اليه منخلال أستاره ، كلما سنحت لها الفرصة .. وكلما رأته تتنهد وتقول كأنها تخاطبه : « ما لنا وللملوك وللدول ، دعنا من هذه المطامع ولنعش معا فى رغد وهناء .. وليس فى صحبة الملوك غير العناء ، ولكن أبَت مطامعك الا أن تشقى وأشقى أنا معك .. ولا تدرى مصيرنا أين يكون ؟ »

— ٣٣ —

قصر الزهراء

وبعد أن قطعوا الجسر عرجوا غربا بجوار القصر الكبير ، ثم ساروا شمالا يطلبون الزهراء ، وهى سفح جبل أسود على بعد

أربعة أميال منّ قرطبة ، والطريق بينها وبين قرطبة صحراء رملية

أقبلوا على الزهراء عن بعد قبيل الظهر ، وكان يوما صحوا صفا جوه .. فبدت أبنية الزهراء كالجبال الراسخة تتخللها الأغراس من الشجر والرياحين ، وتنعكس الأشعة على جدرانها الملونة بأنواع الرخام ، أو الأصباغ .. وبينها القباب والمآذن والقناطر والعقود والأعمدة ، وعليها النقوش والصور .. عدا الأحواض فوقها التماثيل من المرمر المصفح بالذهب ، فدهش سعيد لتلك المناظر ولم تكن أول مرة رأى فيها الزهراء ، ولكنه لم يكن قد تبين تفاصيلها ، فرأى أن يلهو بقية الطريق بالاستفهام عنها ، فنادى الرسول الصقلبى ، فوقف .. فقال له سعيد : « انى أرى الزهراء أعجب ما صنعه الآدميون » ..

قال الرسول : « نعم ياسيدى .. لقد أجمع الذين شاهدوها انها أعظم ماصنعه الانسان ، وقد تكلفت ما لايقدر من النفقات.. فان أمير المؤمنين أخذ فى بنائها منذ بضع عشرة سنة ، ولا يزال العمل جاريا .. ولا أظنه يفرغ قبل مرور عدة سنوات »

قال سعيد : « هل تعرف كم بلغ مقدار هذه النفقات ؟ »

قال : « لا أعرف مقدارها تماما ، ولكننى أعلم أن عدد الفعلة فيها ١٠٫٠٠٠ عامل ، وعدد الدواب ١٥٠٠ دابة . وقدروا ما يستهلك فيها من الصخور المنحوتة كل يوم بستة آلاف صخرة سوى الآجر . وأما الرخام فهو كثير فى هذا القصر كما ترى ، ومع

ذلك فان أمير المؤمنين يثيب عن كل رخامة صغيرة أو كبيرة عشرة دنانير ، ولم يدع بلدا فيه رخام الا بعث فى شراء رخامه حسب الأنواع .. فجلب اليها الرخام الأبيض من المرية ، والمجزّع من رية ، والوردى والأخضر من اسفاقس وقرطاجنة .. وفى أحد هذه القصور حوض من الرخام منقوش بالذهب .. أحضره من القسطنطينية ، فتأمل هذه الهمة العالية .. هل سمعت بمثلها بين الملوك ؟ » ..

فأحب سعيد أن يستزيده شرحا عما فى تلك القصور من مظاهر البذخ والاسراف فقال : « لم أسمع بمثلها .. ولكننى سمعت عن ملوك لايكتفون بالرخام فى أبنيتهم ، وانما يدخلون فيها فضلا عن ذلك الذهب والفضة .. »

فقطع الصقلبى كلامه ، وقال وهو يضحك ويشير بيده الى قصر نحو الشرق : « هل ترى هذا القصر الشاهق هناك ؟ انك لاترى منه الا ما يكاد يخطف البصر من الأشعة اللامعة المنعكسة عن الجدران والنوافذ .. ولو اقتربت منه لرأيت عجبا ، ان هذا القصر يعرف بالمؤنس .. ويسمى أيضا المجلس الشرقى ، وفيه غرف النوم . وفى هذا البيت اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدرّ النفيس من انتاج دار الصناعة فى هذه المدينة ، بينها صورة أسد الى جانبه غزال فتمساح ، وغيرها من أنواع الحيوانات مصنوعة من الذهب المرصع ، ويخرج الماء من أفواهها الى حوض

كبير .. ان بناء هذا القصر كلّف أمير المؤمنين مبالغ طائلة .. ولم يعتمد فى الاشراف على بنائه على غير ابنه ولى العهد ، ولا يزال العمل جاريا فيه ..

« وقد سمعت صديقا لى من خصيان هذا القصر يقول : « ان أمير المؤمنين ينفق ثلث جباية المملكة فى بناء هذه القصور »

فصاح سعيد : « ثلث الجباية ؟ ان ذلك كثير .. أتعرف مقدار الجباية يا صاحب ؟ »

قال الرسول : « أعرف انها نحو ستة آلاف ألف ألف دينار.. هكذا يقولون (١) »

فقال سعيد : « فاحسب كم يبلغ ثلثها .. ان هذا القول لايخلو من مبالغة »

قال الخصى : « لا .. لا أظنك تجد فيه مبالغة اذا عرفت كيف بنى قصر الخلافة أيضا ، وهو البناء الذى تراه فى وسط هذه القصور .. ان قصر الخلافة هذا جدره من الذهب والرخام السميك ، وفى وسطه اليتيمة التى جاءتنا هدية من اليون ملك القسطنطينية . ويكفى أن تعلم ان قراميد هذا القصر من الذهب والفضة (٢) غيرالصهريج القائم فى وسطه المملوء بالزئبق، ولمجلس هذا القصر أبواب عقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سوارى من الرخام الملون

(١) المقرى ٢٧٠ ـ الجزء الاول

(٢) المقرى ٢٥٠ ـ الجزء الاول

والبللور الصافى . ولا حاجة بى الى زيادة التفصيل ، اذ لا تلبث أن ترى ذلك رأى العين .. فلا تدهش حينذاك مهما قدّرت النفقات » ..

فقال سعيد : « لا تستهن بمقدار الجباية ، ولكننى سمعت من بعضهم ان مقدار النفقة تبلغ كل عام ٣٠٠٠٠٠٠ر٣ دينار ، فانظر كم يجتمع من ذلك حتى يتم البناء فى أربعين سنة »

وكانت عابدة تسمع حديثهما وتعجب ، وتاقت نفسها الى رؤية ما هنالك من التحف ، وقد ذهبت وحشتها من ذلك الانتقال

وكانوا يقتربون شيئا فشيئا حتى أقبلوا على باب الزهراء الأول ، ويعرف بباب الأقباء ، وقد وقف عنده الحرس من الفرسان العبيد وبعض الحشم . فلما رأوا الصقلبى عرفوا انه رسول الخليفة ، ففتحوا له حتى دخل بالهودج ، وسعيد معه يتفرس فى وجوه الناس هناك فرأى أكثرهم من العبيد . فمشى مسافة حتى أقبلوا على الباب الثانى من أبواب الزهراء ، ويعرف بباب السدة وهو عظيم قائم على أعمدة ، وعليه البوابون وأعوانهم بالملابس الخاصة بهم. وبعد أن دخلوا هذا الباب جعلوا يمرون بين الأشجار وبينها طرقات مرصوفة بالحصى الملونة .. وقد تزينت جوانبها بالرياحين والأزهار . ونظر سعيد الى ما حوله فوجد نفسه محاطا بالقصور من كل ناحية . وأول ما استقبله القصر المرد وفيه السطح المرد يجلس فيه الخليفة فى الاحتفالات الكبرى ، والى يساره

قصر الخلافة يجلس فيه الخليفة للعمل ، والى اليمين قصر المؤنس وفيه غرف النوم وغرف الجوارى

— ٣٤ —

ياسر

وشغل سعيد بمشاهدة الذين كانوا فى تلك الحدائق من الغلمان الوصفاء عليهم الملابس الملونة ، تزيدهم جمالا .. وقد تقلدوا السيوف المزينة ، وكبار الخصيان وذوى الأسنان . ولم يلتفت أحـد منهم الى الهودج وأصـحابه لأنهم كثيرا ما كانوا يرون الجوارى تحمل به الى هناك

وكان سعيد يبحث بنظره بين هؤلاء لعله يجد ياسرا صاحبه ، ثم فطن الى انه لابد أن يراه ليسلم اليه عابدة ، لتكون فى عهدته حتى يطلبها الخليفة ، فنادى الرسول فوقف .. فقال له : « أين ياسر رئيس الخصيان ؟ »

فأشار بيده نحو قصر المؤنس وقال : « نحن ذاهبون اليه »

فمشى سعيد معه حتى اذا اقترب من ذلك القصر رأى الرسول يترجّل بسرعة ، فأدرك انه يفعل ذلك لأنه رأى أحدا من ذوى المراكز الكبيرة قادما .. فالتفت فاذا هو بياسر قادم وحوله الغلمان كأنه ملك بين الأتباع والأعوان ، فأسرع الرسول اليه وقبّل يده

ووقف متأدبا فسأله عن خبره ، فدفع اليه كتاب الأمير عبد الله وأشار الى سعيد.. فالتفت ياسر اليه ، وحين وقع نظره عليه عرفه وتقدم نحوه فأسرع سعيد اليه وحياه ، فابتسم ياسر له وتفاهما . ثم أشار ياسر الى الغلام أن يأخذ عابدة الى غرفة خاصة ، وأن يحسن وفادتها حتى يأمره باستقدامها ففعل

ومشى وسعيد الى جانبه بين أعمدة قائمة هناك ، وفوقها عريش قد تسلقت عليه الأعشاب ، فلما خلوا قال ياسر : « انى مسرور بقدومك » ..

فقال سعيد : « لولا علمى ان قدومى يسرك لم آت .. كيف أنت وكيف مولانا ؟ »

قال ياسر : « مولانا كما تعهده لا يهمه الا الانفاق ، وأنتم تعيبون عليه مسايرته لغير العرب ، ونحن لانراه يحسن مسايرتنا ، فلا العرب راضـون ولا غيرهم . وأنت تعلم منزلتى وبلائى فى خدمته . ومع ذلك فانى أراه يفضّل تمّاما عنى .. ولا يخفى عليك من هو تمّام هذا ، فقد قدمته أنا حتى بلغ هذه المنزلة .. دعنا من ذلك . ما الذى جئت من أجله اليوم ؟ »

قال سعيد : « لا تغيّر الموضوع .. انت تستغرب حال تمّام معك ، وتعجب كيف يريد أن يحط من قدرك.. ألا تعلم السبب؟»

قال ياسر : « لا .. »

قال سعيد : « السبب أنك أحسنت اليه ، ولعلك أحسنت الى

شخص آخر فسانده عليك » ..

فأطرق ياسر لحظة وقال : « صدقت ، صدقت .. انك رجل حكيم .. قد أصبت الحقيقة ، عرفت الآن سبب هذا التغيير »

قال سعيد : « لا أعجب اذا عرفته أنت الآن ، وأنا عرفته منذ أيام » ..

قال ياسر : « ما هو ؟ »

قال سعيد : « السبب يرجع الى الشخص الذى أنت سبب نعمته .. نسى الآن فضلك عليه فناصر أعداءك »

قال ياسر : « أنت تعنى الزهراء صاحبة المقام الأول عند أمير المؤمنين ، وهى ليست بريئة من هذه التهمة ، لكنها أطاعت تمامًا الخبيث .. فذكرتنى ببرود عند الخليفة ففترت رغبته فىَّ ، وان كان لايزال يظهر رضاءه عنى .. ولكننى أعلم كيف أنال منهما . دعنا الآن من ذلك وأخبرنى عما جئت من أجله .. »

قال سعيد : « ألم تأخذ الكتاب ؟ »

قال ياسر : « نعم .. لكنه كتاب الى أمير المؤمنين لم أفتحه »

قال سعيد : « هو من الأمير عبد الله أرسله مع هذه الجارية الى أبيه » ..

قال ياسر : « أرسلها هدية له ؟ »

قال سعيد : « برغم ارادته ، وكانت هذه الجارية عندى ، وهى جارية منادمة وأدب.. فرغب الأمير الىَّ أن أتركها له وأكون معها

فى قصره ، أرتب خزائن كتبه .. فأطعته ، فلما سمع ولى العهد بخبرها كتب الى أخيه أن يرسلها فلم يرض ، فشكاه الى أبيه فبعث الناصر يطلبها لنفسه ، فلم يسع الأمير عبد الله الا الطاعة ، ولكنه كتب اليه هذا الكتاب يرجوه فيه أن يعيدها اليه بعد أن يراها .. ولا أظنه يفعل »

فقال ياسر : « واذا لم يفعل .. ما ظنك بعبد الله ؟ »

قال سعيد : « هل تحسبه لايزال على سذاجته وتساهله ؟ ان الأمير قد تغيَّر »

قال ياسر : « قد تغيَّر ؟ بشرك الله بالخير .. هل فطن لنفسه وما آلت اليه حال الدولة ؟ »

قال سعيد : « لاحظت منه انه لايسكت على الضيم اذا سامه اياه أبوه »

وكانا يتحادثان وهما يمشيان فى ذلك العريش ، يسمعان تغريد البلابل وأصوات الكراكى ، وقد بهر سعيدا كل ما رآه هناك .. وان لم يصل بعد الى الموضوع الذى يهمه حقيقة ، ولكنه استبشر بقرب الوصول اليه وهو على قاب قوسين منه . ورأى انه أبطأ فى ايصال الكتاب الى الناصر فقال : « ألا تأخذ الكتاب الى صاحبه ؟ »

فقال ياسر : « بلى .. هل تأتى معى ؟ »

قال سعيد : « أرافقك الى قصر الخلافة .. واذا أمر الخليفة بادخولى ، فعلت »

— ٣٥ —

مجلس الخليفة

قال ياسر : «حسنا» ومشى وسعيد يمشي الى جانبه ، واتجهت أنظار الخدم نحوه هذه المرة ، لأنه مع ياسر رئيس الخصيان وهو صاحب النفوذ الأكبر فى قصر الناصر، والناس لايعرفون ما جدّ فى العلاقة بينه وبين الخليفة . ولكن سعيدا شغل عن كل ذلك بفخامة قصر الخلافة ، فما أطل على بابه حتى بهره ما زيّن به من الذهب ، وما على عتبته من بديع النقش .. وقد وقف الحجاب تعظيما لياسر ، فحياهم ثم سألهم : «هل عند أمير المؤمنين أحد ؟»

فأجابه رئيس الحجاب : « ليس عنده سوى القاضى منذر بين سعيد » ..

فتذكر سعيد هذا الرجل وقد حضر خطبته يوم الاحتفال برسل ملك الروم ، وأدرك انه انما نال منصب القضاء بسبب ذلك

أما ياسر فدخل وسعيد معه ، فدهش سعيد بداخل ذلك القصر أضعاف ما أدهشه مظهره الخارجى ، فقد كانت جدرانه الداخلية مبطنة بالرخام السميك الملون على اختلاف أنواعه .. وسقفه قد

طعّم بالذهب ، فمشيا فى دهليز حتى انتهيا الى باحة كالبهو ، سقفها مزين بأنواع الأصبغة المذهبة ، والصقالبة وقوف بالحراب والسيوف ، وكان سعيد يمشي ولا يتكلم ، وقد أخذ بذلك البذخ العظيم ، ولاحظ ياسر دهشته فقال : « أراك قد دهشت لما تراه ونحن لم ندخل مجلس الخليفة بعد .. فاذا دخلته فهناك الدهشة حقا .. »

فقال سعيد : « وهل فى الامكان أفخم من ذلك .. لقد شاهدت قصور الخلفاء فى بغداد ودمشق فلم أر مثل هذا »

قال ياسر : « ان أولئك كانوا يستنكفون من استخدام الذهب فى أبنيتهم .. امكث هنا حتى أدخل وأعود اليك »

فوقف وشغل بمشاهدة ما على رخام الجدران من الرسوم الجميلة المحلاة بالذهب ، وما على الأرض من الطنافس المزركشة. وبينما هو فى ذلك اذ رأى الحجاب الصقالبة فى حركة كأنهم يتأهبون للسلام على قادم . فالتفت فرأى منذر بن سعيد خارجا من مجلس الخليفة ، فأصبح يتوقع سرعة استدعائه اليه ، لكنه مكث طويلا ولم يطلب فشغل خاطره . ثم جاءه أحد الخصيان يطلب اليه الدخول على أمير المؤمنين .. فدخل متأدبا ، وكان قد شاهد الناصر فى قصره بقرطبة يوم استقبال رسل ملك الروم ، وكان أبناؤه الى جانبيه . أما فى ذلك اليوم فلم يكن فى مجلسه سواه بعد أن صرف قاضيه منذر بن سعيد

فلما دخل سعيد على الخليفة رآه فى صدر المجلس جالسا على سرير من الذهب الخالص . والمجلس المذكور قاعة كبيرة جدا فى وسطها بركة يأخذ لمعانها بالبصر ، لأنها مملوءة بالزئبق تقع عليه أشعة النور من نوافذ فى جدران المجلس ، يغشاها زجاج ملون ، فيتلون سطح الزئبق ألوانا جميلة يزيدها لمعان سطحه جمالا

وللمجلس أربعة جدران فى كل جدار منها ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب ومختلف أنواع الجواهر، وقد قامت على سوارى من الرخام الملون والبللور الصافى . وقد دخلت الشمس من تلك الأبواب ، فانعكست أشعتها على صدر المجلس وجدرانه .. فتولد من ذلك نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ الى أحد صقالبته ، فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحضور أن المجلس قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك (١)

ومع رباطة جأش سعيد وكبر نفسه لم يتمالك عن الدهشة من فخامة ذلك المجلس . ولو نظر الى السقف لرأى قراميده من الذهب والفضة مرتبة فى هندسة جميلة ، ولكنه اشتغل بالمثول بين يدى الخليفة فوقف عن بعد ، وحنا رأسه ثم حيا الناصر بتحية الخلافة فقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله

(١) المقرى ٢٥٠ ــ الجزء الاول

وبركاته » ، وظل واقفا فوقع صوته فى أذنى الناصر موقعا جميلا، فأشار اليه الناصر أن يتقدم فدار حتى وقف بين يديه ، فأومأ اليه أن يجلس فجلس ، وياسر لايزال واقفا . ثم انصرف ياسر ولم يبق فى ذلك المجلس الكبير الا الخليفة وسعيد

وتأدب سعيد فى جلوسه ، وأطرق فوقع بصره على الزئبق فشغله لمعانه الباهر، ولكنه مكث صامتا ينتظر أمر الخليفة.. وكان قد لاحظ على وجه الناصر انقباضا ، وكأنه شاهد فى عينيه دموعا ، فافتتح الخليفة الكلام فقال : « أين الجارية التى بعث بها ولدنا ؟»

قال سعيد : « هى فى قصر أمير المؤمنين ، استلمها عبده ياسر رئيس الخصيان »

قال الناصر : « من أين أتيت بها ؟ بلغنى من كتاب ولدى هذا انك صاحبها تعلمها وتهذبها »

قال سعيد : « هى يا أمير المؤمنين جارية أدب ومنادمة من مولدات بغداد »

قال الناصر : « بلغنى انها تحسن الغناء أيضا ؟ »

قال سعيد : « نعم ياسيدى .. انها كذلك »

فقال الناصر وهو يمشط لحيته بأنامله : « بارك الله فى بغداد انها لا تزال تأتينا بالتحف والذخائر .. وهل أنت من بغداد أيضا ؟ » ..

قال سعيد : « ان عبد أمير المؤمنين من هذه الديار ، ولكننى

رحلت الى بغداد والشام فى طلب الكتب وجمع نوادر الأدب »

قال الناصر : « بلغنى انك من نوابغ الرجال »

فوقف سعيد تأدبا وحياء وقال : « لست شيئا من ذلك ، ولكننى أكون كما يشاء أمير المؤمنين »

فقال الناصر وهو يشير اليه أن يجلس : « اجلس ولا ينبغى أن تتهيب من مجلسنا ، فقد علمت من خادمنا ياسر انك من أهل العلم الواسع ، ونحن نحب العلم ونكرم العلماء »

فتحفز سعيد للوقوف ثانية ، فأجلسه الخليفة وقال : « قلت لك لا تتهيب .. ان العلماء ملوك العقول ، ولا يستغنى ملوك الرقاب عنهم .. كن مطمئنا ، ولأزيدك اطمئنانا أقول لك انظر الى عينى » ..

فرفع سعيد بصره ونظر فى عينى الخليفة فرأى الدمع فيهما ، وأحس الخليفة عند وقوع بصره على بصر سعيد بقوة أثرت فيه ، كأن سعيدا أرسل من عينيه أشعة نفذت الى أحشاء الناصر . ولكنه أتم حديثه فقال : « أرأيت الدمع فى عينى ؟ انه من احترامنا لأقوال أهل العلم .. أرأيت قاضينا خارجا الآن ؟ »

قال سعيد : « نعم يامولاى »

قال الناصر : « وقد كان عندى الساعة ، ولعلك تعلم انى وليته القضاء بالأمس ، فما عتم أن خطب فى المسجد وجعل موضوع كلامه نقد تشييد البنيان والافراط فى الزخرفة والاسراف فى



« قال الناصر : بلغنى انك من نوابغ الرجال .. فوقف سعيد تأدبا وحياء وقال : لست شيئا من ذلك ، ولكننى أكون كما يشاء أمير المؤمنين ... »

الانفاق ، وأغرق فى ذلك فعرفت انه ينتقد ما أنشأته من هـذه الأبنية ، فما ملكت أن بكيت ، ثم استقدمته الىّ اليوم لأسأله عما أراده ، فما كتمنى قصده وأتانى بآيات من القرآن الكريم تقبح عملى ، فأشفقت على نفسى وبكيت .. وانما صارحتك بهذا القول لتطمئن نفسك وتخلص لى الخدمة »

فحنا سعيد رأسه وقال : « انى عبـد أمير المؤمنين وطوع ارادته » ..

قال الناصر : « انى أعرفك قبل الآن يا سعيد ، وقد طالما قرأت اسمك على الكتب التى أحضرت لنا على يدك .. فهل عندك كتب جديدة ؟ »

قال سعيد : « لا يخلو الأمر من كتب سأعرضـها على أمير المؤمنين ، ولكننى أتيته بكتاب حى ناطق لا يسأل عن أدب أو شعر الا نطق به »

فشخص الناصر فيه كأنه يستفهم منه عما يقصد ، فقال : « أعنى الجارية عابدة التى صارت فى قصر الزهراء الآن فهى تغنى عن الكتب ، وقد انقطعت عن سائر الأعمال فى سبيل تعليمها »

قال الناصر : « سنحضرها ونشنف أسماعنا بحديثها .. وأما الآن فاصدقنى ، قد بلغنى انك بارع فى فن التنجيم »

فقال سعيد : « ذلك شىء تعلمناه من الصغر ، ولا يزال بعضه عالقا بالذهن »

قال الناصر : « ان خير العلم ما أخذ فى الصغر لأنه يكون كالنقش فى الحجر »

— ٣٦ —

التنجيم

وقد كان الملوك فى عصر الاستبداد يشعرون بحاجتهم الى المنجمين ، لكثرة من كانوا يحيطون بهم من أهـل الدسـائس والمتملقين ، فهم لايثقون بهم ولايرون لهم غنى عنهم .. فاذا كانوا يؤمنون بالتنجيم استعانوا به على استطلاع الأسرار وكشف المؤامرات . وكان الناصر قد سمع عن سعيد الوراق من قبل ، وعن مهارته فى كل فن . ولما دخل عليه ياسر بكتاب ابنه عبد الله ذكر سعيدا بالخير ، وأطرى علمه وبراعته فى التنجيم ، فوقع من نفسه موقعا حسنا . ولم يكن الناصر ساذجا فلم يشأ أن يستسلم لسعيد قبل أن يتدبر أمره ، فسأله عن قبيلته فقال له ياسر: « انه غريب لا أهل له ، ولا يهمه غير الاشتغال بالكتب وبيعها » فسبق الى ذهنه حسن الظن به وفتح له قلبه من أول لقاء .. وحينما كلمه شعر بقوة فيه ارتاح لها ، وتوقع أن يكون عونا له ..

أما سعيد فلم يفته شىء مما جال فى خاطر النـاصر ، فأخـذ يستعد لتدبير ما جاء من أجله فقال : « لا ينبغى لمولاى ــ حفظه

الله — أن يستسلم لحقير مثلى ، ولا أن يركن الى التنجيم كثيرا فانه قد يخطىء » ..

فأعجب الناصر بتواضعه وزاد ثقة به ، فقال : « ان قولك هذا يزيدنى ثقة بعلمك .. فانى لم أر بين المنجمين الكثيرين فى قصرى من يعترف بالقصور مثلك »

فرفع سعيد بصره الى الناصر وحدق فى عينيه وقال : « ولكننى لا أحب أن أُدْعى منجما .. فاذا شاء مولاى أن ينتفع بشىء من علمى فأرغب اليه أن يكتم خبرى عن خاصته ، ولا يعدنى فى جملة المنجمين ، بل يجعلنى فى جملة الخدم .. ويتخذنى معلما لتلك الجارية ، وأنا لا أدخر وسعا فى بذل روحى فى خدمته من كل وجه »

فاستحسن الناصر رأيه وقال : « سأفعل ذلك ، أما الآن وقد فتح الحديث .. فأخبرنى بما يدلك عليه علمك من حالنا ، قل لا تخف »

قال سعيد : « انى لا أخاف شيئا ولكنى أطلب الى مولاى أن يثق بحسن النية فيما أقول .. وربما كان فى بعضه ما يخالف اعتقاده .. »

فاستبشر الناصر بشىء يطلع عليه فقال : « قلت لك قل ولا تخف .. أخرج كتابك وانظر الىّ ، وقل ما يدلك عليه علمك »

فمد سعيد يده الى جيبه وأخرج كتاب التنجيم ، ففتحه وأخذ

يقلب فيه ، وينظر الى الناصر ويعيد النظر الى الكتاب ، ويعد على أصابعه ويلتفت الى أشعة الشمس تارة والى بركة الزئبق تارة أخرى .. ثم تظاهر بالارتباك ، وقال : « اعفنى ياسيدى من الحديث اليوم .. »

قال عبد الله : « لن أتركك حتى تحدثنى عما ترى »

فاعتدل فى مقعده وأعاد النظر فى الكتاب ثم قال : « انى أرى الخوف يأتى أمير المؤمنين من أكثر الناس ثقة عنده .. » وسكت وهو يقلب فى صفحات الكتاب ويراقب ما يبدو من الناصر

أما الناصر فكان لكلام سعيد وقع شديد على سمعه ، وقد أثار أفكارا كانت كامنة فى قلبه ، ولكنه غالط نفسه وتظاهر بالاصغاء كأنه يسمع بقية الحديث

ولم يفت سعيدا ما جال فى خاطر الخليفة .. فاستأنف الكلام قائلا : « أخشى أن يكون مولاى أمير المؤمنين قد ندم على طلبه والحاحه » ..

فقال الناصر : « كلا .. بل العكس ، فانى مصغ لما تقول .. ولكن نصف الخطاب ليس له جواب .. قل .. صرّح بالحقيقة »

قال : « يظهر ان مولاى يظن أن المنجم يستطيع تعيين الأشخاص ، فاذا كان قد قيل له ذلك من قبل فان القائل ليس من المنجمين أو انه يزعم للتنجيم قوة فوق قوته .. ان هذه الصناعة يمكن أن تمتزج بالدجل مما لم أتعود عليه ، وأنا لا أقول الا ما

تدلنى عليه الصناعة تماما ، وهى انما تشير الى الأوصاف والأحوال . وقد قلت لسيدى ان الطالع دلنى على ان الخوف فى دار أمير المؤمنين من أكثر الناس ثقة عنده وأقربهم مودة اليه ، ولو سألنى عن اسم ذلك الرجل أو تلك المرأة فلا يكون جوابى الا من قبيل الرجم بالغيب »

فأعجب الناصر بما رآه من صدق لهجة الرجل وعزة نفسه ، ولكنه توهم انه يشير الى أناس لايريد الناصر أن يرتاب فيهم ، ولا هو يرتاب فى صدق المنجم .. فأصبح فى حيرة وندم على أن عرَّض نفسه للشك ، لأنه كان شديد الحرص على ذلك الحبيب موضع ثقته .. وهى الزهراء ، اذ لم يكن أعز منها على قلبه ، ولا يريد أن يدع سبيلا لسوء الظن بينه وبينها نظرا لولعه بها وشدة تعلقه بحبها ، وقد أنفق الأموال فى تشييد تلك القصور لأجلها ، فكيف يسبب الشقاء لنفسه بالشكوك .. وهو لايرى له غنى عنها بوجه من الوجوه ، وقد امتلكت فؤاده وغلبته على أمره .. فلم ير خيرا من قطع الحديث أو تحويله فقال : « لله درك من حكيم خبير ، قد فهمت مرادك وسنعود الى اتمام المقال .. أما الآن فيحسن أن نرى تلك الجارية الأديبة »

فأسرع سعيد الى طىّ الكتاب ، ووضعه فى جيبه وقال : « هى فى دار مولاى بقصر المؤنس فى رعاية عبدك ياسر » قال ذلك وقد سرّه اكتفاء الخليفة بما قاله

فقال الناصر : « سنبعث اليه أن يهيىء لنا الجارية ، ويحضرها الليلة الى بيت المنام فى المجلس الشرقى (المؤنس) »

فأدرك سعيد انه قد آن وقت الانصراف .. فتحفز للنهوض وهو يقول : « هل يأذن سيدى ان أدربها على شىء تقوله فى حضرته ؟ » ..

قال الناصر : « لابأس .. افعل ما تريد .. »

— ٣٧ —

سعيد وعابدة

فخرج سعيد بعد أن حيًّا وتأدب على جارى العادة .. ومشى فى الايوان ، والخصيان وقوف بأسلحتهم وملابسهم

ولم يكد يخرج من الباب حتى لقيه ياسر ، ومعه رجل عرف سعيد من ملابسه وقلنسوته انه سليمان أبو بكر بن تاج طبيب الناصر . وكان سعيد يعرفه ويعرف مهارته فى الطب ومنزلته عند الناصر بعد أن شفاه من رمد (١) أصيب به .. فحيَّاه وابتدره ياسر قائلا : « ألم تعرف هذا الطبيب ؟ »

قال سعيد : « كيف لا ؟ أليس هو أبا بكر بن تاج الحكيم النبيل ؟ »

(١) طبقات الاطباء — الجزء الثانى

فهشّ له الطبيب وصافحه وقال : « لله درك صـدق الأستاذ ياسر .. انك لا تجهل شيئا ، وقد سرّني أن لقيتك الساعة وأنا أعلم بمهارتك فى معرفة الكتب ، وقد سمعت بكتاب فى الطب قيل لى انه أكمل الكتب وأحسنها .. »

فقطع سعيد كلامه قائلا : « لعلك تعنى كتاب الحاوى لمحمد ابن زكريا الرازى ؟ »

فبدا الاستغراب على وجه الطبيب لسرعة خاطرسعيد ، وقال : « اياه اعنى »

قال سعيد : « انه كتاب نفيس وهو أحسن كتب الرازى وأعظمها فى هذه الصناعة ، لأنه جمع فيه كل ما وجده متفرقا فى ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ، ومن أتى بعدهم الى زمانه ، ونسب كل شيء نقله الى قائله » (١)

قال الطبيب : « لقد سمعت اطراء كثيرا فى الكتاب .. فهل من سبيل اليه ؟ »

قال سعيد : « لا أعرف منه نسخا فى قرطبة ، ولكننى أبعث من ينسخه لك فى بغداد .. وقد درسته وحفظت أهم مواده »
قال ذلك وهو يمشى والطبيب بجانبه وياسر الى الجانب الآخر ، والحرس ينظرون الى ذلك الضيف ويعجبون بما لاقاه من الحفاوة لدى أمير المؤمنين

(١) طبقات الاطباء ــ الجزء الاول

قال ابن تاج : « اذا تمكنت من نسخ هذا الكتاب لى ، عددت ذلك فضلا كبيرا منك » ..

قال سعيد : « سأفعل ان شاء الله » والتفت الى ياسر وقال : « أخبرنى أمير المؤمنين انه سيكلفك باحضار عابدة الليلة الى بيت المنام ليسمع غناءها ، وأنا ذاهب الآن لتعليمها بعض ما تقوله فى حضرته »

فعلم الطبيب انه آن له أن يستأذن فى الانصراف وهو يثنى على سعيد ، وسار سعيد وياسر الى جانبه وهو يقول له همسا : « كيف وجدت الرجل .. يعنى الناصر ؟ »

قال : « انه كما ينبغى ، ولكل أجل كتاب »

ثم سمع ياسر صوتا يستوقفه ، فنظر فاذا بأحد الصقالبة يقول له : « انأمير المؤمنين يدعوك اليه» فقال : « انى ذاهب الساعة »
ثم التفت الى سعيد وقال : « انى منصرف الى أمير المؤمنين ، واذهب أنت مع هذا الصقلبى وهو يدلك على مكان عابدة »

ومشى سعيد والصقلبى بين يديه حتى بلغ قصر المؤنس ، فتحول به الى غرفة من غرف الضيوف وقال له : « سأرسل اليك عابدة الساعة » ومضى ..

ومكث سعيد وهو يعمل فكره فيما يدبره لاتمام غرضه.. وبعد قليل جاءت عابدة ، وقد تزينت بأحسن الملابس وأتقنت هندامها فرأى فيها جمالا لم يعهده فيها من قبل ، فعلم انها تتوقع احتفاءه

بها فهشّ لها ورحب بها وأجلسها الى جانبه .. فجلست وهى تبتسم وقلبها يخفق، وقد تبادر الى ذهنها انحسن هندامها يزيده رغبة فيها ، لأنها ظلت حتى تلك الساعة تخشى صدوده .. ورغم ما كان يبديه لها من الميل اليها فقد ظلت تخاف أن يؤخذ منها . أما هو فرحّب بها وبالغ فى اظهـار اعجابه بها ، فجلست وهى مطرقة تنتظر ما يبدو منه فقال لها : « كيف تجدين نفسك هنا ؟ »

فتنهدت وقالت : « أجدنى تعسة »

قال سعيد : « أتقولين الحق ؟ »

قالت عابدة : « نعم وحياتك » قالت ذلك وصوتها يرتجف

فقال سعيد : « وهل يمكن أن تكونى فى حال أحسن وأنت الآن جليسة الخليفة وموضع اعجابه ؟ »

فتنهدت وهى تنظر اليه وتحاذر أن ينظر اليها فتضطر الى أن تحوّل وجهها عنه ، وقالت : « ألم أقل لك انى لا أطمع فى شىء من هـذه السفاسف ، وانما منيتى وغاية مطلبى هى أن .. » وسكتت

فقال سعيد : « فهمت مرادك وقد قلت لك ان ذلك ميسور لنا متى شئنا ، ولكن لابد من اتمام الأمر الذى جئنا من أجله .. أين هو ذلك الحق ؟ »

قالت عابدة : « هو عندى فى مكان أمين »

قال سعيد : « احتفظى به .. واعلمى ان أمير المؤمنين سيدعوك

الليلة ليسمع حديثك ويستمتع بغنائك.. فابذلى الجهد فى ارضائه»

قالت عابدة : « سأفعل ذلك جهد طاقتى »

قال سعيد : « غنّيه مما حفظته من كتاب الأغانى »

قالت عابدة : « حسنا .. سأفعل »

قال سعيد : « هل عرفت أحدا من أهل هذا القصر ؟ »

فأجفلت لعلمها ان ذلك القصر ليس فيه أحـد غير الجوارى والسرارى ، وهى تغار من مجرد سماع ذلك من حبيبها ، ولكنها لم تستطع السكوت عن الجواب فقالت : « عرفت بعض نسائه »

قال سعيد : « من منهن عرفت ؟ »

قالت عابدة : « أنت تريد أن أحدثك عن الزهراء ، زينة هذه القصور كلها » قالت ذلك وهى تنظر اليه ، وعينـاها تبرقان وتراقب ما يبدو منه ..

فأظهر سعيد عدم الاكتراث بما ظهر منها وقال : « الزهراء ؟.. قد بلغنى انها ربة هذه القصور لشدة تعلق الخليفة بها .. هل هى تستحق هذا الاكرام ياترى ؟ »

قالت عابدة : « أما أنا فلا أراها بالعين التى يراها بها الناصر ، ولعلى أظلمها اذا قلت انها لا تمتاز عن كثيرات من نساء هـذه القصور .. »

فقال سعيد : « لاشك ان حب الخليفة لها يرفع مقامها.. فأرجو أن تنالى من الخليفة الليلة ما يجعلك فى منزلة أعلى من منزلتها »

فقطعت كلامه قائلة : « لا .. لا أريد ذلك .. وان كنت أراه بعيدا عنى ، اذ ليس فىَّ ما يبعث على الاعجاب ، وأنا فتـاة مسكينة أحفظ الأبيات من الشعر وأتلوها وهذا لايعجب الا القليلين .. وهب انى كما قلت فأنا لا أريد أن استقر فى قلب أحد سواك .. آه ياسعيد» وتلعثم لسانها وكاد الدمع يتناثر من عينيها

فضحك سعيد باستخفاف وقال : « كم يجب أن أكون سعيدا بهذه المحبة .. »

قالت عابدة : « انك سعيد يا سعيد وأنا الشقية » وغصت بريقها ..

فابتدرها سعيد قائلا : « لا أزال أراك تستسلمين للشك .. »

قالت عابدة : « كلا .. ولكن قلبى يدلنى .. لا لا .. لاشك انك تحبنى ولو على سبيل الشفقة علىَّ .. ألا تشفق على قلبى ؟ طبعا أنت ترى ما أنا فيه من الهيام بك ، وترى انى أتفـانى فى سـبيل مرضـاتك .. فكيف لا تحبنى أو لا تشفق علىَّ .. » ومسحت عينيها بكمها

فنظر اليها وحدق فيها وقال : « أراك عدت الى الشك »

فقطعت كلامه مسرعة وقالت : « لا .. لا .. أنا واثقـة بك فافعل ما تريد »

قال سعيد : « سترين صدق قولى .. والآن افعلى ما قلت لك .. ولكن أخاف أن تغار الزهراء منك »

قالت عابدة : « ولماذا ؟ أنا لا أسابقها على شىء الا اذا كانت تسابقنى هى .. » وعضت على كمها بأسنانها كأنها تلهو بذلك عن التصريح بما كادت تنطق به

فوقف وهو يمد يده الى يدها ليصرفها ، فأحست انه يريد الذهاب فجذبت يدها من يده وقالت : « هل انت ذاهب ؟ »

قال سعيد : « نعم ، ولكننا سنكون معا الليـلة فى حضرة الخليفة » ..

فتنهدت وقالت : « نعم سنلتقى ولكن .. »

فأمسك يدها وودعها وهو يقول : « ابعدى عنـك الأوهام والمخاوف ، فان الوقت قد دنا ، اذهبى الآن الى غرفتك » قال ذلك وخرج

فظلت هى واقفة لحظة تنظر اليه ، ثم تحولت نحو القصر تمشى الهوينى ، وقد استغرقت فى أفكارها وتحيرت فى أمرها ..

— ٣٨ —

جوهر

وسار سعيد الى حيث علم انه سيجد ياسرا ، فلما التقيا دعاه ياسر الى الطعام معه . وفى أثناء الطعام قال ياسر : « ما الذى فعلته بالخليفة ؟ »

فقال سعيد : « لم أفعل شيئا .. ولماذا ؟ »

قال ياسر : « رأيت الخليفة قد تغير كثيرا وامتلأ اعجابا بك »

قال سعيد : « لم أفعل شيئا يوجب اعجابه ، وما هو التغيير الذى أصابه ؟ »

قال ياسر: « لاأستطيع أن أحدد التغيير الذىحدث .. ولكننى فهمت ذلك من سياق حديثه فى بعض الشئون المتعلقة بالزهراء »

فلما سمع سعيد ذلك الاسم اختلج قلبه ، ولكن رباطة جأشه أخفت ذلك عن جليسه فقال : « لماذا تغير عليها .. لا أظنك مصيبا لأنى,لم أذكر هذه الجارية فى حديثى معه مطلقا »

قال ياسر : « لا أعلم ما الذى قلته له ، ولكننى أعلم انى رأيته تغير . وعلى كل حال ان هذه الجارية قد بالغت فى الاستبداد ، وآن لها أن تعرف ما لها وما عليها » قال ذلك بلهجة التهديد

فبدا سعيد كأنه لم يهمه الأمر كثيرا وقال : « ربما كان السبب فى تغيره عليها ما لاحظه من استبدادها .. فقد علمت انها أصبحت لفرط دلالها تتدخل فى أمور ليست منشأنها ، حتى أسمعها الناصر ما تكره ، وظل غاضبا عليها يوما وليلة »

فبغت ياسر ونظر الى سعيد ، فرآه مستغرقا فى تقطيع صدر دجاجة بين يديه كأنه لم يقل شيئا ، فقال ياسر : « ومن أبلغك هذا الأمر ؟ ليس فى هذا القصر أحد يعلم ذلك غيرى ، لأن الناصر أسمعها تلك الكلمات وغضب عليها ، ولم يدع أحدا يشعر بذلك

خوفا من الشماتة ، لأن جميع نساء هذا القصر يحسدن الزهراء على منزلتها .. قل لى كيف عرفت ذلك ؟ »

قال سعيد : « عرفته » وهز كتفيه وحاجبيه وهو ينظر الى السقف تجاهلا

فقال ياسر : « حقيقة انك عبقرى فى التنجيم ، كأنك تطلع على الغيب .. لله درك من عالم حكيم »

فضحك سعيد وقال : « ان الأمر لا يحتاج الى معرفة الغيب .. دعنا من ذلك الآن ، وقل لى : هل أوصاك الخليفة بأن تحضر له عابدة الليلة ؟ »

قال ياسر : « نعم »

قال سعيد : « وهل طلب اليك أن تكون الزهراء حاضرة ؟ »

قال ياسر : « نعم »

قال سعيد : « فاذن سنراها الليلة .. انى طالما سمعت بجمالها .. »

فقطع ياسر كلامه قائلا : « ولكنه أمرنى أن تجالسكم من وراء الستار ، وكثيرا ما يفعل ذلك فى مثل هذه الحال لأنه شديد الغيرة عليها » ..

فقال سعيد : « من وراء الستار ؟ وما هى لذته بمجالستها على هذه الصورة ؟ »

قال ياسر : « هو لا يحجبها الا اذا حضر مجلسه أحد من

فقال سعيد : « لم أفعل شيئا .. ولماذا ؟ »

قال ياسر : « رأيت الخليفة قد تغير كثيرا وامتلأ اعجابا بك »

قال سعيد : « لم أفعل شيئا يوجب اعجابه ، وما هو التغيير الذى أصابه ؟ »

قال ياسر: « لاأستطيع أن أحدد التغيير الذىحدث .. ولكننى فهمت ذلك من سياق حديثه فى بعض الشئون المتعلقة بالزهراء »

فلما سمع سعيد ذلك الاسم اختلج قلبه ، ولكن رباطة جأشه أخفت ذلك عن جليسه فقال : « لماذا تغير عليها .. لا أظنك مصيبا لأنى لم أذكر هذه الجارية فى حديثى معه مطلقا »

قال ياسر : « لا أعلم ما الذى قلته له ، ولكننى أعلم انى رأيته تغير . وعلى كل حال ان هذه الجارية قد بالغت فى الاستبداد ، وآن لنا أن تعرف ما لها وما عليها » قال ذلك بلهجة التهديد

فبدا سعيد كأنه لم يهمه الأمر كثيرا وقال : « ربما كان السبب فى تغيره عليها ما لاحظه من استبدادها .. فقد علمت انها أصبحت لفرط دلالها تتدخل فى أمور ليست منشأنها ، حتى أسمعها الناصر ما تكره ، وظل غاضبا عليها يوما وليلة »

فبغت ياسر ونظر الى سعيد ، فرآه مستغرقا فى تقطيع صدر دجاجة بين يديه كأنه لم يقل شيئا ، فقال ياسر : « ومن أبلغك هذا الأمر ؟ ليس فى هذا القصر أحد يعلم ذلك غيرى ، لأن الناصر أسمعها تلك الكلمات وغضب عليها ، ولم يدع أحدا يشعر بذلك

خوفا من الشماتة ، لأن جميع نساء هذا القصر يحسدن الزهراء على منزلتها .. قل لى كيف عرفت ذلك ؟ »

قال سعيد : « عرفته » وهز كتفيه وحاجبيه وهو ينظر الى السقف تجاهلا

فقال ياسر : « حقيقة انك عبقرى فى التنجيم ، كأنك تطلع على الغيب .. لله درك من عالم حكيم »

فضحك سعيد وقال : « ان الأمر لا يحتاج الى معرفة الغيب .. دعنا من ذلك الآن ، وقل لى : هل أوصاك الخليفة بأن تحضر له عابدة الليلة ؟ »

قال ياسر : « نعم »

قال سعيد : « وهل طلب اليك أن تكون الزهراء حاضرة ؟ »

قال ياسر : « نعم »

قال سعيد : « فاذن سنراها الليلة .. انى طالما سمعت بجمالها .. »

فقطع ياسر كلامه قائلا : « ولكنه أمرنى أن تجالسكم من وراء الستار ، وكثيرا ما يفعل ذلك فى مثل هذه الحال لأنه شديد الغيرة عليها » ..

فقال سعيد : « من وراء الستار ؟ وما هى لذته بمجالستها على هذه الصورة ؟ »

قال ياسر : « هو لا يحجبها الا اذا حضر مجلسه أحد من

الرجال غيرة عَليها ، والليلة ستكون أنت حاضرا .. أين أجدك لأذهب بك إلى ذلك المجلس ؟ »

قال سعيد : « انى ذاهب للاستراحة قليلا .. وربما نمت ساعة استعدادا للسهر »

قال ياسر : « سأمر بك وقت العشاء ، ونذهب معا الى بيت المنام ، أو أرسل اليك من يأتى بك الىّ » ووقف سعيد فوقف ياسر وودعه وخرج الى غرفته ، ولم يكن يطلب النوم ، وانما أراد أن يخلو بنفسه للتفكير فيما يكون تلك الليلة ..

وبينما هو متوسد هناك ، وقد دنا الغروب ، اذ سمع جلبـة وقهقهة فى ساحة القصر ، فأصغى فاذا بجماعة من الخصيـان يداعبون خصيا منهم وهو يصيح فيهم

فلما سمع سعيد صوته استبشر .. وعلم انه قادم اليه ، وقال فى نفسه : « أتى جوهر الخبيث »

ثم هدأت الجلبـة ، وبعد قليل دخل على سعيد خصى قصير القامة غريب الهيأة ، قصير الساقين ، كبير الرأس ، واسع الوجه ، بارز الجبهة ، قبيح الخلقة ، عليه ملابس ثمينة .. مظهره يضحك الثكلى لغرابته ، على رأسه قبعة طويلة مخروطية الشـكل ، فى رأسها شرابة وعليه جبّة من خز مطرزة ، تحتها قفطان من حرير أحمر لامع .. دخل على سعيد ولم يحيّ فنهض سعيد وقال له : « ما الذى جاء بك ياجوهر ؟ »

فتقدم الغلام وقبّل يد سعيد وقال : « أتيت أعرض عليك خدمة أقوم بها .. »

قال سعيد : « ومن أنبأك انى هنا ؟ »

قال جوهر : « هل تفوتنى حركة من حركاتك ياسيدى ؟.. كيف تأتى هنا ولا أعلم ؟ »

قال سعيد : « كيف هى ؟ »

قال جوهر : « هى كما تعهدها لا تزال خالية الذهن .. صلبة القلب » ..

قال سعيد : « هل علمت انى فى قرطبة ؟ »

قال جوهر : « لا تعلم شيئا من ذلك »

قال سعيد : « ألم تتغير محبتها لذلك الرجل ؟ »

قال جوهر : « ان ذلك الرجل لم يترك لها سبيلا للتفكير فى سواه ، اذا غضبت استرضاها ، واذا أمرت نفذ أمرها مهما يكن كما قلت لك قبل الآن »

فأطرق سعيد وقال : « هل يعلم أحد انك جئت الى هـذا المكان ؟ » ..

قال جوهر : « من يعلم ذلك ؟ .. لقد أتيت بحجة اللعب فى ساحة القصر مع بعض الرفاق الصقالبة ، وفررت من بينهم كأنى أطلب حاجة لنفسى »

قال سعيد : « نحن الليلة ضيوفكم فى بيت المنام »

قال جوهر : « أعلم ذلك .. وانما أتيت لأخبرك انها ستحضر المجلس وتسمع الغناء ، وهى شديدة الولع بالصوت الرخيم ، ولها دراية بالموسيقى .. فهى تعزف على العود ، وقد حفظت كثيرا من الشعر ، ولما علمت اليوم بمجىء عابدة رأيت الغيرة قد دبّت فى عروقها ، وأظنها تحب أن تزداد تعمقا فى هذه الصناعة »

قال سعيد : « تحب أن تتعلم الأشعار والغناء ؟ »

قال جوهر : « أظنها تميل الى ذلك »

قال سعيد : « فاذن أنت تعرف كيف يجب أن تجعلها تطلب من مولاها أن أعلمها الشعر .. فهمت ؟ »

قال جوهر : « نعم ياسيدى .. سمعا وطاعة .. انى لا أنسى فضلك » ..

فقطع سعيد كلامه قائلا : « هل أنت منقطع لخدمتها الآن ؟ »

قال جوهر : « أنا منذ بضعة أسابيع فى خدمتها ، وأراها ترتاح الىّ وتطرب لمنظرى وحديثى ، لكننى أحسبها هذين اليومين فى شاغل .. اذ يندر أن تطلبنى اليها ، ولا أعلم السبب »

قال سعيد : « لعلها غاضبة أو عاتبة أو خائفة ؟ »

قال جوهر : « لا أعلم .. وربما عرفت السبب بعدئذ .. هل تأذن بانصرافى الآن ؟ فانى أخاف أن يستبطئونى ويطّلعوا على خبرى معك »

قال سعيد : « اذهب »

فانحنى وحيّا ومضى ..

- ٣٩ -

بيت المنام

مكث سعيد وهو يهيىء نفسه ويصلح من شأنه ، استعدادا للذهاب مع ياسر اذا أتاه أو بعث فى طلبه

وبعد العشاء أتاه أحد الصقالبة يدعوه الى قصر المؤنس ، فخرج ، ولما أطل على الحديقة بهره مارآه فيها من المصابيح المعلقة فى أغصان الأشجار أو على الجدران أو القوائم ، حتى أصبحت الحديقة تتلألأ بالأنوار . ومشى الخصى بين يديه حتى وصل الى باحة القصر المذكور .. فرأى الحرس وقوفا بأسلحتهم وعليهم الملابس الفاخرة . ولم يكد يطل على باب القصر حتى رأى ياسرا بين يديه ، فاستقبله وحيّاه ومشى أمامه حتى دخل به الباب الى دهليز مضىء بالشموع العنبرية .. وقد تناثر المسك على الأرض وفاحت رائحته فعطرت الأرجاء . ولم يعجب سعيد من شىء شاهده هناك لم يشاهد مثله فى قصر الخلافة ذلك النهار ، لكنه ظل ماشيا .. وهو يسمع خرير الماء وصوت وقع الرشاش من مرتفع ، حتى أطل على قاعة أدهشه ما فيها مما لم ير فى زمانه مثله

وكان ياسر يسير بين يديه وهو يوجّه انتباهه حينا بعد آخر الى بعض النقوش البديعة .. فلما أطلا على تلك القاعة ، وقف سعيد من نفسه وقال : « ماذا أرى ؟ »

قال ياسر : « هل أدهشك ما رأيتــه من التماثيل على هــذا الحوض ؟ »

قال سعيــد : « نعم .. أعوذ بالله من قوم مسلمين يقتنــون التماثيل »

قال ياسر وهو يهمس فى أذنه : « هل رأيت هــذا الحوض فى وسط هذه القاعة ؟ انه أرسل الى أمير المؤمنين هدية من ملك القسطنطينية مع ربيع الأسقف ، وهو لايتقوّم بمال لجماله وفرط غرابته ، وقد كلف مالا كثيرا ومجهودا كبيرا قبل وصوله الى هذا المكان ، مخافة أن ينكسر ما عليه من تماثيل الآدميين »

فقال سعيد : « ولكن هل يجوز فى الاسلام اقتناء التماثيل ؟ »

فقال ياسر : « ذلك سبب نقمة بعضهم على أمير المؤمنين .. ولكن الحوض جاءه هدية من ملك عظيم ، وهو لايرى ضررا من اقتنائه ، أو لعل الترف والانغماس فى الحضارة سهّلا عليه ذلك .. فان منظر هذا الحوض مدهش .. ما رأيك أنت ؟ »

قال سعيد : « نعم .. ولكننى أرى فوق الحوض تماثيــل أخرى ، هل أتت أيضا مع الحوض من القسطنطينية ؟ »

قال ياسر : « ان التماثيــل الذهب التى تراها فوق الحوض ليست من صنع بلاد الروم »

قال سعيد : « وأين صنعت ؟ »

قال ياسر : « صنعت فى هذه المدينة .. وهى كما تراها جميلة وثمينة »

قال سعيد : « كأنى أراها مرصّعة .. بماذا ؟ »

قال ياسر : « انها مرصّعة بالدر الغالى النفيس »

فدهش سعيد وشــغل بذلك المنظر عما كان قادما من أجله وقال : « أرى هذه التماثيل كثيرة ، وكأنها تمثل بعض أنواع الحيوانات »

فأمسك ياسر بيده حتى دار به من جهة أخرى للحوض ، بحيث يتبين التماثيل من وجوهها ، فاذا هى اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مقسمة الى أربع مجاميع على جوانب الحوض .. مجموعة منها تمثل أسدا الى جانبه غزال الى جانبه تمساح . يقابله من الجهة الأخرى مجموعة أخرى هى : ثعبان وعقاب وفيل .. وفى الجانبين مجموعتان غيرهما هما عبارة عن : حمــامة وشــاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر. وكل ذلك من ذهب مرصّع بالجوهر النفيس ، يخرج الماء من أفواهها (1) ويصب فى الحوض .

فوقف سعيد لحظة مبهوتا ثم قال : « وهذه التماثيل مصنوعة فى قرطبة ؟ »

قال ياسر : « نعم انها مصنوعة فى دار الصناعة هنا »

قال سعيد : « لم أكن أظن أن مثل هذا الاتقان ميسور فى قرطبة ، لأننا لم نعهد مثله فى غير القسطنطينية أو رومية »

(1) المقرى ـ الجزء الاول

قال ياسر : « ان فى قرطبة من الصناعات الجميلة ما يضارع أحسن ما يصنع فى تينك المدينتين ، ولولا ضيق الوقت لذكرت لك شيئا كثيرا منها .. فاننى أخشى أن يستبطئنا مولانا الناصر »

قال سعيد : « أين هو الآن ؟ »

قال ياسر : « هو فى مجلس نصل اليه من هذه الدار ، والمجلس يشرف على الدار بحيث يتمتع الجالسون هناك بمنظر هذا الحوض ، ويسمعون خرير الماء فيه »

— ٤٠ —

المجلس

ومشى سعيد بجانب ياسر وعيناه على ذلك الحوض ، وما يتألق حوله من المصابيح أوالشموع بألوانها المختلفة ، فتنعكس أشعتها على رشاش الماء المتساقط فتبهر النظر بجمالها .. شغل ذلك المنظر ذهن سعيد حينا ثم عاد الى هواجسه ، وخاصة حين وصل الى باب المجلس ، والخصيان وقوف عنده بالحراب .. وعلى العتبة هذه الأبيات :

سل من هويت ودع مقالة حاسد
ليس الحسود على الهوى بمساعد
لم يخلق الرحمن أحسن منظرا
من عاشقين على فراش واحد

متعانقين عليهما ازر الهوى
متوسدين بمعصم وبساعد
يا من يلوم على الهوى أهل الهوى
هل تستطيع صلاح قلب فاسد

فتذكر انه قرأ هذه الأبيات ، وهو فى بغداد فى صدر مجلس المأمون (١) ، وتقدم فوسعوا لياسر فأزاح الستارة ودعا سعيدا للدخول ..

فأطل سعيد على مجلس مرتفع لا جدار له من جهة الحوض ، بحيث يقع نظر الجلوس هناك على ذلك المنظر البديع . ورأى الناصر فى صدر المجلس جالسا على وسادة من الخز ، وعلى رأسه عمامة وشى صغيرة يتخفف بها فى المساء ، وعليه جبة وشى خفيفة تشبها ببنى أمية فى الشام . وأول شىء لفت انتباه سعيد رائحة الطيب ، فقد كانت تفعم المكان ، ورأى بين يدى الناصر عابدة جالسة مطرقة وبصرها يتجه خلسة الى ذلك الباب حينا بعد آخر ، وهى تتوقع مجىء حبيبها سعيد . وقد مدت مائدة الشراب والفاكهة ، ووقف بعض الجوارى فى أجمل ما يكون من الوجوه والقامات .. كلهن فتيات تمنطقن بالمناطق الحريرية الملونة ، وقد طرزت عليها أبيات من الشعر .. هذا مثال منها يقرأ على احدى تلك المناطق :

(١) الموشى

زنّارها فى خصرها يُطرب
وريحها من طيبها أطيب
ووجهها أحسن من حليها
ولونها من لونها أعجب

وقد أرسلن أطراف المناطق من الخصور تتدلى فوق جلابيب تبرق ألوانها الزاهية ، وعلى ذيل بعضها هذان البيتان تطريزا بالفضة :

أغيب عنك بود لا يغيّره
نأى المحل ولا صرف من الزمن
تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا
الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

وعلى رءوسهن أكاليل من زهر مضفور، وقد أرسلت شعورهن الى الظهور ، ووقفن متأدبات ينتظرن الأمر لصب الشراب أو تقديم الفاكهة . ومنظر المجلس على الاجمال يبهر النظر ، لما فى أرضه من الطنافس المزركشة بأبيات الشعر على نحو ما تقدم . وعلى جدرانه من الستائر الموشاة بأبيات من الشعر هذا بعضها :

هجرتنى كى أجاريكم بفعلكم
لا تهجرينى فانى لا أجاريك
قلبى محب لكم راض بفعلكم
استرزق الله قلب لا يجانيك

أصبحت عبدا لأدنى أهل داركم
وكنت فيما مضى مولى مواليك

وكان أسلافهم فى دمشق يفضلون الوشى على سائر الأنسجة ، فقلدهم الناصر بذلك فى فرش هذه الحجرة وفى ملبسه الليلى

والظاهر انه قلّد العباسيين بتطريز الأشعار على الرياش والأثاث ، فقد كانت الطنافس والستائر مزينة بأبيات جميلة ، فضلا عن ملابس الجوارى

وحين أطل سعيد على المجلس ، وقف بعيدا ونظر فى جوانب الغرفة بخفة لعله يرى مكانا لجلوس الزهراء اذا حضرت ، فتذكر انها تجلس وراء الستارة .. فرأى الى اليسار ستارا من الديباج الثمين يقطع الحجرة فى عرضها ، وعليه طراز الذهب المزدان بالأشعار على نحو ما تقدم . وسمع حفيفا وتمتمة فعلم ان الزهراء هناك فتجلد .. وفى أثناء ذلك تقدمه ياسر ، فأخبر الناصر بقدومه فقال الناصر : « يدخل سعيد الوراق معلم جاريتنا عابدة »

فدخل وتنحى ياسر .. فأشار الخليفة الى سعيد أن يجلس ، فبادرت احدى الجوارى الى وسادة قدمتها له بجانب عابدة ، فجلس فقال له الناصر : « لم نسمع شيئا من عابدة بعد »

قال سعيد : « انها جارية مطيعة ، ما الذى يأمر به أمير المؤمنين ؟.. هل يلذ له الحديث أو الغناء ؟ »

قال الناصر : « ان الحديث يلذ لنا ، هل تحدثنا بشيء

لا نعرفه ؟ » ..

قال سعيد : « انها تحفظ الشعر والأدب والأخبار من كل نوع ، فما على أمير المؤمنين الا أن يعيّن الموضوع الذى يختاره »

فأطرق الناصر هنيهة ثم قال : « أخبرتنى انها من مولدات بغداد ؟ »

قال سعيد : « نعم »

قال الناصر : « ان لبغداد نوادر غريبة .. نحن نحب أن نسمع عن أصحابنا البغداديين ، وان كانوا لا يحبون أن يسمعوا عنا » وضحك ..

فأدرك سعيد تعريضه وقال : « طبعا هم لا يحبون سماع ما يسوءهم لأن أخبار مولانا أمير المؤمنين ، وما بلغ من سلطان وسطوة وما أتاه من الفتح والنصر .. كل ذلك يسوء أهل بغداد سماعه لأنه يثير غضبهم وحسدهم ، وهم الآن فى منتهى الاضطراب . وقد ذهبت هيبة الخلافة منهم واستولى الأتراك على الدولة ووضعوا أيديهم على الحكومة ، وأصبح الخليفة عندهم اسما بلا مسمى .. أين هم من أمير المؤمنين صاحب السيادة جامع كلمة المسلمين والمنكل بالكافرين ، لم يمر بالمسلمين أيام كأيامه ، ولا رأى الاسلام عزا مثل عزه .. »

وكان الناصر يسمع اطراء سعيد ، وهو مسرور ، فلما أكثر من

الاطراء قطع حديثه قائلا : « نعم ، ولكن للبغداديين عصرا لا مثيل له .. عصر الرشيد والمأمون . ولا يسعنا انكار ما لهذين من الفضل فى نقل كتب العلم ، ونحن الآن انما نجنى ثمار ماغرساه .. وانى أحب أن أسمع أخبارهما ، وكثيرا ما أطلب الى المحدثين أن يقصوا علىّ حديثهما »

فقال سعيد : « فأمير المؤمنين اذن فى غنى عن سماع شىء من أخبار تلك الدولة ؟ .. »

قال الناصر : « بل أنا أحب ذلك ويعجبنى منه ما كان يعقد من مجالس الأدب والشعر ، وما كان يدور من الأبحاث الجميلة»

— ٤١ —

العباسيون والأمويون

فتصدّت عابدة للكلام قائلة : « ان مجالس الأدب كانت تعقد فى البصرة والكوفة على الأكثر ، وللكوفيين والبصريين مناظرات ومناقشات كثيرة فيها اللطيف والمفيد »

فاستحسن الناصر نغم صوت عابدة ، ولم يكن قد سمع صوتها بعد ، فلفت ذلك انتباهه فوجّه كلامه نحوها وقال : « أذكرتنى ياعابدة مناقشة طار ذكرها فى الآفاق ، وقد حضرها الرشيد نفسه » ..

قالت عابدة : « أظن مولاى يعنى مسألة الزنبور والنحلة ؟ »

فضحك الناصر وقال : « نعم .. اياها أعنى »

قالت عابدة : « انها من أغرب الحوادث .. وهى تبدو أول وهلة مسألة لغوية أو نحوية ، ولكن خلفاء بغداد كانوا يمزجون السياسة بكل شىء .. حتى بالنحو والحديث والتفسير »

فأعجب الناصر بتفكيرها الذى يدل على سعة فى العلم وثقة فى النفس وقال : « ماذا تعنين بالسياسة يا عابدة ؟ »

قالت عابدة : « أعنى انهم منذ قبضوا على زمام الدولة لم يدخروا وسعا فى تأييدها ، ولو خالفوا فيه الشرع أو العقل أو العلم » ..

فاستغرب الناصر هذا الرأى ، وأحب أن يطّلع على حقيقته لأنه يساعده فى الدفاع عن خلافته ، وكان الى ذلك الحين يعدها مقلقة فقال : « ماذا تعنين بذلك ؟ »

قالت عابدة : « أعنى انهم لما قاموا يطلبون الخلافة من أجدادكم فى الشام تظاهروا بالتقوى والعمل بالكتاب والسنّة ، وطعنوا فى خلفاء بنى أميّة لأنهم طلبوا الملك العضود ، وزعموا انهم اتخذوا الفتك فى سبيل الحكم . فلما ملكوا ارتكبوا أضعاف ما ارتكبه بعض أجدادكم من الفتك والقتل على التهمة . وكانوا يظهرون انهم يفعلون ذلك رغبة فى العلم أو الدين . ولو تدبّرت الحقيقة لرأيتهم انما كانوا ينظرون من وراء ذلك الى مصالحهم ..

نصر أبو جعفر المنصور فقهاء العراق أصحاب الرأى والقياس على فقهاء المدينة أصحاب الحديث ، ولماذا ؟ هل فعل ذلك لأنه يعتقد ان الحق فى جانب أبى حنيفة رئيس أصحاب الرأى ؟ لا أظنه فعل ذلك الا نكاية فى مالك رئيس أصحاب الحديث فيها لأنه أفتى بخلع المنصور .. ولو لم يرَ خلعه ، أو لو رأى المنصور فى نصرته فائدة له لنصره »

وكان الناصر يسمع كلام عابدة بلذة وشوق ، لما حواه من الآراء الفلسفية التى لم يسمعها من أحد قبلها ، وخصوصا لأن الطعن فى العباسيين يوافق سياسته ، وارتفعت فى عينيه وأراد أن يستزيدها فقال : « بورك فيك من فقيهة عاقلة .. لكننى رأيتك تشددين النكير على أصحابنا العباسيين ، وما أدرانا ان المنصور لم يكن ينصر أبا حنيفة لاعتقاده بصحة رأيه ؟ »

قالت عابدة : « دعنا من الفقه والحديث .. ولنتحدث عما كان من الرشيد وأبنائه فى مسألة الزنبور والنحلة ، وهى من المسائل النحوية » ..

قال الناصر : « هل ترين فى هذه أيضا جانبا سياسيا ؟ »

قالت عابدة : « نعم يامولاى .. لأن العباسيين كانوا يرغبون فى نصرة أهل الكوفة ، لأنهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة ، فقدموهم على أهل البصرة ، وقرّبوهم اليهم ، فطمع الكوفيون فى مسابقة أهل البصرة ، وصاروا يجادلونهم فى المسائل النحوية ،

وفى الأدب والشعر حتى قامت مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه من أهـل البصرة والكسائى من أهل الكوفة ، وكان الكسائى يعلّم الأمين بن الرشيد ، وكان الأمين ينصره باعتبار ان انتصاره انتصار أهل الكوفة جميعا وهم أنصار الخلفاء .. »

فقطع الناصر كلامها قائلا : « صدقت صدقت .. ولولا ذلك لم يتخذ الأمين كل وسيلة لقهر سيبويه ، فانه بعد أن ظهر للملأ ان الحق فى جانبـه أغرى ذلك البدوى على تخطئتـه والحكم للكسائى ، فخرج سيبويه من بغداد وقصد بلاد فارس . لاشك انهم ظلموه كما قلت تحزبا لأنصارهم الكوفيين .. لله درك من حكيمة » ..

— ٤٢ —

الغناء

وكان سـعيد فى أثناء ذلك يوجّه انتبـاهه الى ما وراء ذلك الستار ؛ لعله يسمع شيئا يهمه ، فشعر بحركة ، فأدرك ان الزهراء لابد قد ملّت سماع ذلك الحديث من فلسفة التـاريخ ، وانها صارت شديدة الميل الى سماع الغناء ، فنظر الى عابدة وأومأ الى جيبها يشير الى القانون الذى كانت تركبه وتعزف عليه ، والتفت

الى الخليفة وقال : « ان الحكمة لا تحلو من فم المرأة يا أمير المؤمنين كما يحلو الغناء .. »

فضحك الناصر وأشار الى السقاة ، فصبوا الأشربة من أباريق الفضة فى أقداح الذهب ، وقدموا للناصر ولسعيد . وأمر الجارية أن تشرب فاستأذنته فى اعفائها من الشرب ..

فقال الناصر : « اشربى يا عابدة .. ليس هذا مُسْكرا ، وانما هو نبيذ التفاح .. اشربى »

فمدت يدها وتناولت القدح ، فرأت عليه نقشا يحيط به هو بيتان من الشعر هذا نصهما :

وما لبس العشاق ثوبا من الهوى
ولا أخلقـوا الا بقيـة ما أبلى
ولا شربوا كأسا من الحب حلوة
ولا مُـرَّة الا وشربهم فضـلى

فشربت وشرب سعيد فقال الناصر : « هل تسمعيننا شيئا من الغناء ؟ »

قالت عابدة : « كما تشاء يا أمير المؤمنين »

فقال سعيد : « هل يأمر أمير المؤمنين أن تغنّى غناء أهل الأندلس ، أم غناء أهل العراق أم أهل المدينة ؟ »

فقال الناصر : « أما غناؤنا فاننا نسمعه وعندنا من يحسنه ، ولكننا نحب سماع غناء أهل بغداد .. أما غناء أهل المدينة فهو

الغناء القديم ولا بأس به »

فتذكر سعيد انه يشير الى الزهراء ، وهى التى تحسن غناء أهل الأندلس وهو يعلم انها وراء ذلك الستار ، فأحب أن يسمع غناءها فقال : « اذا أحب مولانا أن يأمر بعض جواريه المغنيات بالغناء على طريقة أهل الأندلس ، وعابدة تغنّى على طريقة أهل بغداد .. كان ذلك مجاوبة جميلة »

فقال الناصر : « صدقت » وأومأ الى احدى الجوارى الواقفات فى خدمتهم فتقدمت نحوه ، فأشار اشارة فهمتها فمضت الى وراء الستار .. ففهم سعيد انه أمر الزهراء بالغناء ، وقال الناصر : « سنسمع غناء اندلسيا على العود فأين عود عابدة ؟ »

قال سعيد : « انها تعزف على عود لا مثيل له ، ولا أظنكم سمعتم به لأنه حديث العهد فى الصناعة ، ومخترعه لايزال حيا »

فشخص الناصر ببصره الى عابدة فلم يجد معها عودا الى جانبها ، وهمّ أن يسأل سعيدا عما يعنيه .. فرأى عابدة تمد يدها الى جيبها ثم أخرجت منه القانون ، وأخذت تركب عيدانه حتى أصبح آلة قد شدت أوتارها فقال الناصر : « أهذا عود ؟»

قالت عابدة : « نعم ياسيدى هى بعينها ... »

فقال الناصر : « أظنه الآلة التى ركبها الفارابى فى حضرة سيف الدولة ؟ »

قالت عابدة : « نعم ياسيدى هى بعينها .. »

قال الناصر : « سمعت انها أدهشت الحضور فأبكتهم ، ثم أضحكتهم .. فهل تعرفين العزف عليها .. ومن أين تعلمت ؟ »

فأجاب سعيد عنها قائلا : « أدركت الرجل فى مكان ، وأخذت عنه مثال قانونه ومبادىء صناعته .. وعلمت ذلك لعابدة »

فقال الناصر مستغربا : « وأنت علمتها الموسيقى أيضا ؟ »

قال سعيد : « نعم ياسيدى »

فقال الناصر : « بورك فيك .. انك تصلح لكل شىء »

والتفت الى عابدة وقال : « اسمعينا .. أو تمهلى لنسمع صوتا من غناء أهل الأندلس .. » وصفق وأصغى الجميع ، فخرج من وراء الستار صوت عود بصناعة جيدة . وكان أكثر الناس اصغاء سعيد ، ثم سمعوا الغناء فطرب الناصر طربا شديدا حتى اذا فرغ الغناء وراء الستار نظر الناصر الى عابدة كأنه يستطلع رأيها فيما سمعته فقالت : « انه صوت مطرب سمعت مثله ممن يحفظ غناء زرياب المغنى .. »

فقطع الناصر كلامها قائلا : « غناء زرياب ؟.. صدقت ان هذا المغنى هو الذى حمل هذه الصناعة الى الأندلس . وقد قال الذى نقل هذا الصوت الينا انه من أصوات زرياب ، فأسمعينا ماعندك من غناء بغداد »

وكانت قد أصلحت القانون فتناولته واعتدلت فى مجلسها ، وجعلت تعزف عليه عزفا لم يسمع الناصر مثله ، وكان قد

استخفه الطرب وهاجه الشراب فجعل يحرك يديه ورجليه ويزحف عن سريره ، فاغتنمت عابدة تلك الفرصة وغنت صوتا لابراهيم ابن المهدى أحسنت توقيعه وأداءه .. فلم يتمالك الناصر أن صاح من الطرب : « لله درك من مطربة معربة .. زيدينا زادك الله جمالا وصنعة »

فغنته صوتا آخر على لحن زاده طربا . وأشار الى الجوارى أن يسقينه ، فدارت الأقداح وسعيد يظهر انه يشرب ولا يشرب ، وكذلك عابدة . فلما أحس سعيد ان الشرب أخذ من الناصر أشار الى عابدة ، فأصلحت العود على اصلاح الفارابى كما فعل فى حضرة سيف الدولة ، ففعلت فغلب على الناصر الضحك وأغرب فيه وسعيد يرقب ما يبدو وراء الستار ، فسمع همسا وضحكا فأدرك ان ضحك الناصر وشدة طربه من غناء عابدة يهيجان حسد الزهراء

- ٤٣ -

نحنحة من وراء الستار

وبينما هم فى ذلك ، اذ سمعوا نحنحة من وراء الستار ، لم يفطن لها الا سعيد ، وراقب ما يبدو من الناصر بعدها ، فرآه

انتبه لنفسه بغتة وأمسك عن الضحك ، وقال لعابدة : « لقد أطربتنا بارك الله فيك » ..

فأدرك سعيد انه يريد فض الجلسة ، فأومأ الى عابدة فتحفزت للنهوض فلم يَدَعْها الناصر للبقاء .. لكنه أشار الى قيّمة الجوارى الواقفات للخدمة أن تزيد عابدة حفاوة ، فمشت بين يديها الى غرفتها

وتحفز سعيد للنهوض والاستئذان ، فأومأ اليه الناصر أن يمكث .. فمكث ، ونهض الناصر ودخل من باب يؤدى الى غرفة أخرى ، وأشار الى احدى الجوارى فدخلت وراء الستار .. فشعر سعيد انه بعث الى الزهراء لتمضى اليه ، فلبث يفكر فيما عسى أن يكون سبب تلك الدعوة .. ولم يبق فى تلك القاعة سواه

وبينما هو فى ذلك اذ رأى الستار يتحرك ، واذا بجوهر خارج من ورائه ، فلما رآه فرح بمجيئه وتوقع أن يسمع منه شيئا جديدا فأشار اليه ، فتقدم وهمس فى أذنه : « ان الغيرة كادت تقتلها !..»

ففهم انه يعنى الزهراء فقال : « ماذا فعلت ؟ »

قال جوهر : « لم تتمالك أن تنحنحت للناصر لتزجره عما أظهره من الاعجاب والخفة »

فضحك سعيد وقال : « لابد أنك ساعدت فى اثارة تلك الغيرة .. طبعا .. وأخيرا ماذا ترى ؟ »

قال جوهر : « انى أثرت غيرتها وأوحيت اليها أن اتقان غناء

عابدة سيقدمها علبها لدى الخليفة ، وأشرت عليها أن تتقن الغناء »

قال سعيد : « على من ؟ »

قال وهو يتطاول ليهمس فى أذن سعيد : « ستطلب من الخليفة أن يكلفك بتعليمها غناء بغداد .. » ..

فظهر البشر على وجه سعيد ، وقال : « وهل تظنه يقبل ؟ »

قال جوهر : « اذا طلبت ذلك اليه أذعن لها .. فهو طوع ارادتها ألم تر مبلغ تأثير تلك النحنحة فيه وهو فى ابان طربه ؟ »

قال سـعيد : « لقد أحسنت ياجوهر ، بورك فيك . طالما توقعت منك المهارة والذكاء .. انى أسمع صوت مفتاح فى باب .. وأسمع وقع خطوات ، لعل الخليفة قادم .. امض »

قال جوهر : « لا أظن أن الخليفة يعود اليك بنفسه ، ولكنه يبعث رسولا بما يريد .. هذا هو الرسول قادم ، استأذنك .. انى منصرف » قال ذلك وعاد الى وراء الستارة

ولبث سعيد صامتا يشغل نظره بما هنالك من الأنوار والزخارف ، واذا هو بياسر قد دخل ، فهشّ له ونهض لاستقباله فتوسم فى وجهه خيرا فقال : « خيرا ان شاء الله »

فابتسم ياسر وقال : « جئتك برسالة من أمير المؤمنين .. فهو يثنى على علمك وقد أمر لك بجائزة سنيّة .. هذا أولا .. وثانيا يطلب منك أن تمكث فى هذا القصر بضعة أيام لأنه يحتاج اليك الأمر » ..

قال سعيد : « ألم يقل لك ما هو ذلك الأمر ؟ »

قال ياسر : « كلا »

فأطرق كأنه يفكر ثم قال : « أنا أقول لك »

قال ياسر : « هل تعرف ما يجول فى ذهن الخليفة ؟ »

قال سعيـد : « وما الفرق بينى وبينـك اذن ؟ » وضحك مماجنة ..

فجاراه ياسر فى الضحك وقال : « قد تعودنا منك معرفة الغيب. قل ما الذى يريد منك ؟ »

قال سعيد : « يريد أن أعلّم جاريتـه الزهراء الغنـاء .. ما قولك ؟ »

فربت ياسر على كتف سعيد توددا واعجابا وقال : « قـد لاحظت ذلك منه ، ولم يقله لى .. »

قال سعيد : « أنا أقوله »

قال ياسر : « وهل يسوءك ذلك ؟ »

قال سعيد : « كلا .. ولكننى جئت من منزل الأمير عبد الله على أن أعود اليه مع عابدة بعد يوم أو يومين ، وكيف أمكث هنا أياما ؟.. أخشى أن .. »

فقطع ياسر كلامه قائلا : « مهما يكن ما تخشاه ، فان قول أمير المؤمنين لايرد »

قال سعيد : « نعم أعرف ذلك وأنا باق كما أمر ، ولكن هل

علمت ان عابدة باقية معى ، أم هى ذاهبة ؟ »

قال ياسر : « لم يقل لى شيئا من ذلك ، ولكننى أستدل من قرائن الأحوال انها باقية لأنه أمر أن نعد لها غرفة خاصة ونقدم لها كل ما تحتاج اليه »

قال سعيد : « لكنه لا يلبث أن يأمر باخراجها لأن الزهراء ..»

ففهم ياسر مراده فابتدره قائلا : « لا .. لا .. ان الزهراء اذا أظهرت الغيرة من عابدة لصناعتها فى الغناء فهى لا تخاف أن تتقدم عليها ، لعلمها انها جارية أدب ومنادمة .. وقد فَهِمَت ذلك منذ جاءت .. وزد على ذلك ان الزهراء ذات دهاء وتعقـل ، وقد سيطرت على مشاعر الناصر بتعقلها أكثر مما استهوته بجمالها .. ما لنا ولهذا ، امض الآن الى حجرة فى هذا القصر أعددناها لك ريثما يبعث الناصر فى طلبك »

قال سعيد : « حسنا » ومشى مع ياسر حتى خرج من ذلك القصر الى بناء بجانبه ، فأدخله ياسر الى غرفة هناك ببابها خصى أمره أن يكون فى خدمته وانصرف

دخل سعيد تلك الغرفة ، فوجد فيها كل ما يحتاج اليه لتبديل ثيابه ، فجلس فترة من الوقت يتدبر ما سمعه ، وما يتوقع أن يكون .. ثم بدل ثيابه ونام

– ٤٤ –

التعليم

وفى صباح اليوم التالى استيقظ وجلس ينتظر أمر الخليفة ، فلما أبطأ عليه لبس ثيابه وخرج يتمشى فى الحديقة ، وأمر الخصى المخصص لخدمته أن يوافيه فى مكان بالحديقة حدده له ، اذا طلبه الخليفة . وقد توجّه سعيد الى حديقة بجوار ذلك القصر ، فيها بركة يتدفق الماء فيها من أنابيب الرصاص .. فوقف عندها ، وأخذ يتأمل حركات الماء ، وأفكاره تائهة فيما هو فيه .. فلاحت منه التفاتة ، فرأى شبحا خارجا من جانب القصر من باب لم يعرفه ، فحول نظره اليه فرآه رجلا فى ملابس الخصيان من طبقة الوصفاء الذين يلبسون الدروع السابغة .. لكنه كان يمتاز عنهم بمنطقة حمراء مطرزة بالذهب تدل على تقـدمه بين الأقران فى المنصب والخدمة . وتبين فى وجهه شيئا يعرفه ، فحدق فيه فاذا هو ساهر غلام الأمير عبـد الله .. ولاحظ من حركاته انه يحاول الخروج خلسة لايريد أن يختلط بخصيان القصر فقال فى نفسه : « لايخلو أن يكون مجيء ساهر هذا لأمر ما » وانزوى فى ظل دفلة وأخذ يتأمل أزهارها .. فمرّ ساهر مرور اللص وهو يحسب ان سعيدا لم ينتبه له ، فلما تجاوز الدفلة أعاد سعيد النظر اليه فتحقق من

انه ساهر بعينه . ولو لم يره وهو يحاول اخفاء أمره لم يسىء الظن به .. فحفظ ذلك فى ذاكرته ، وظل يتمشى فى الحديقة نحو ذلك الباب لعله يكشف شيئا جديدا ، فرأى الخصى الموكل بخدمته مسرعا نحوه ، فعلم ان الخليفة يطلبه فتجاهل وظل ماشيا.. فأدركه الخصى وناداه ، فالتفت سعيد اليه وسأله عن غرضه ..

فقال الخصى : « ان أمير المؤمنين بعث فى طلبك »

قال سعيد : « هلم اليه » ومشى نحو الباب الذى خرج منه ساهر ..

فاعترضه الخصى قائلا : « من هنا ياسيدى » وأشار نحو الباب الآخر

فقال سعيد : « لكن هذا أقرب .. أليس مولانا أمير المؤمنين فى هذا القصر ؟ »

قال الخصى : « بلى .. ولكن المرور من هذا الباب محظور »

فأطاعه سعيد ومشى ، وهو يقول : « لماذا ؟ »

قال الخصى : « لأنه يؤدى الى مكان السيدة الزهراء »

فحفظ ذلك فى خاطره وسكت ..

وبعد ذلك دخل قصر المؤنس الى بيت المنام ، فاستقبله ياسر رئيس الخصيان وقد بدت البغتة على وجهه وقال : « أين كنت ؟»

قال سعيد : « كنت أتمشى فى الحديقة »

قال ياسر : « بعث أمير المؤمنين فى طلبك »

قال سعيد : « ها أنا ذا »

قال ياسر : « انتظر ريثما استأذن لك »

فوقف سعيد ودخل ياسر ثم عاد ، وأشار اليه أن يتقدم فمشى حتى دخل غرفة فى صدرها سرير ، عليه فراش من ريش النعام المكسو بالحرير الأحمر الزاهى ، وقد جلس فيه الناصر وهو لايزال بملابس النوم ، وعلى رأسه قبعة « طاقية » من الحرير الموشى بالذهب ، وقد تعلقت بالسقف مراوح من ريش النعام تتحرك بنظام خاص .. ووقف الخدم بالملابس الفاخرة كما تقدم . فلما دخل سعيد أشار الخليفة الى الجميع بالخروج ، واستدناه ، فمشى حتى وقف بين يديه . فقال له : « لا أظنك تجهل منزلتك عندنا بعد أن دعوناك للدخول علينا ونحن فى الفراش .. فان رفع الكلفة يدل على الرضاء والصفاء .. تفضل اجلس »

فانحنى سعيد وظل واقفا ، فأمره ثانية أن يقترب منه ويجلس ، فمشى حتى صار بجانب السرير.. وجلس جاثيا على وسادة هناك وهو مطرق تأدبا ، فقال له الناصر : « يحسن بالعقلاء التأدب بين يدى الملوك ، ولكننى ذكرت لك منزلتك عندى بالأمس لما آنسته من علمك وصدق لهجتك فدع التهيب »

قال سعيد : « ان تنازل أمير المؤمنين مع مملوكه الى هذا الحد يحملنى على زيادة الشعور بحقارتى .. ويزداد المولى — حفظه الله — رفعة فى عينى »

قال الناصر : « ان مقام أهل العلم محفوظ عندنا .. انهم عيون الملك ونبراسه ، وقد رأيت أنك من خيرة العلماء المخلصين »

فأشار بالانحناء وسكت ، فقال الناصر : « لا تظن أننا نطلب اليك التنجيم الآن ، فقد أجّلنا ذلك الى فرصة أخرى .. ولكن جاريتنا الزهراء سمعت غناء تلميذتك عابدة ، فأحبَّت أن تتقن الغناء على يدك فهل تفعل ؟ »

فنهض سعيد وهو يتلملم من التأدب وقال : « ان العبد لا يخيَّر فيما يريده مولاه .. وانه ليسعدنى أن أشعر أن عندى شيئا أستطيع أن أخدم به أمير المؤمنين .. »

فقطع الناصر كلامه قائلا : « أنت سعيد على كل حال .. انك سعيذ بعلمك وأدبك ، ولا تظن اننى نسيت ما طلبته من كتمان حقيقة منصبك واظهار انك تعلّم عابدة . وفى هذا المساء يأتيك رسول الزهراء فتذهب الى غرفتها لتلقينها بعض ألحان بغداد »

فأشار بيده على رأسه اشارة الطاعة ..

فقال الناصر : « أنت تعلم منزلة الزهراء عندنا ؟ »

فكرر سعيد انحناء رأسه ، كأنه يقول : « نعم أعلم جيدا .. »

فقال الخليفة : « فاعدد لها ألحانا جميلة مما أعدها ابراهيم بن المهدى ، فاننا نحب فنون أبناء الخلفاء .. ولا بأس من تعليمها بعض ألحان اسحاق الموصلى »

قال سعيد : « سيرى أمير المؤمنين ما يسرُّه فان عبده

لا يحتاج الى ايضاح »

فقال له الناصر : « وقد أمرنا لك بجائزة هى دون ما تستحقه وسنوالى ذلك عليك ما دمت على حسن ظننا فيك »

فوقف سعيد وقد أحس انه ينبغى له أن ينصرف ، فاستأذن وخرج فلقيه ياسر فى الدهليز .. فأخبره بما أمر له به الخليفة من العطاء وقال : « يظهر انك أصبحت صاحب حظوة عند أمير المؤمنين » ..

قال سعيد : « أنا لا أستحق هذه الحظوة ، ولكن لكل أجل كتاب » ..

فاكتفى ياسر بذلك ، ومشى مع سعيد الى باب غرفته وتركه خوفا من الرقباء

— ٤٥ —

أين الزهراء ؟

أما سعيد فدخل الغرفة ، فرأى الخادم قد أعد له الطعام ، فتناوله ثم جلس واستغرق فى التفكير فيما سيكون عند اجتماعه بالزهراء وهو يعلم انه سيجتمع بها وهى وراء الستار . وكلما تصور ذلك الاجتماع خفق قلبه .. وقد قضى ذلك اليوم على أحر من الجمر بين الجلوس فى الغرفة والتمشى فى الحديقة وقد طال

عليه الوقت ، فلما غربت الشمس عاد الى الغرفة ولبث فى انتظار الرسول ..

ولما دنا وقت العشاء ولم يأت الرسول شغل خاطره ، ثم رأى جوهرا قادما فهش له ، وهو يتوقــع أن يدعوه للذهاب الى الزهراء ، فرآه يمشى نحوه ولايتكلم فابتدره قائلا : «ماوراءك؟»

قال جوهر : « ليس ورائى شىء »

قال سعيد : « وكيف ذلك ؟ ألم تبعثك الزهراء فى طلبى ؟ »

قال جوهر وهو يهز كتفيه : « كلا .. وقد كنت أنتظر أمرها بذلك » ..

فقال سعيد : « وهل عدلت عن تعلم الغناء ؟ »

قال جوهر : « لا .. ولكننى لا أعلم أين هى »

قال سعيد : « كيف ذلك ؟.. أليست فى غرفتها ؟ »

قال جوهر : « ليست هناك »

قال سعيد : « لعلها عند الخليفة »

قال جوهر : « كلا »

قال سعيد : « أين هى اذن ؟ »

قال جوهر : « لا أدرى ياسيدى ، وانما أعلم أن وصيفا جاءها فى أصيل هذا اليوم ومعه امرأة قال انها ماشطة ، فخرجت الزهراء معها ولم تعد بعد »

فاستغرب سعيد قوله وقال : « أليس فى القصر مواشط ؟ »

قال جوهر : « فى القصر مواشط كثيرات ، ولكن يظهر أن هذه الماشطة لها براعة خاصة فى تصفيف الشعر »

قال سعيد : « ألم تفتش عنها فى القصر ؟ »

قال جوهر : « فتشت عنها فى كل مكان أعهدها تقيم فيه ، فلم أجدها » ..

فدهش سعيـــد وأطـــرق لحظة ثم قال : « ألا تعرف ذلك الوصيف ؟ » ..

قال جوهر : « أعرفه وقد كان فى هذا الصباح عندها »

فانتبه سعيد وقال : « لعله صاحب المنطقة الحمراء ؟ »

قال جوهر : « نعم .. هو هو بعينه .. كيف عرفت ذلك ؟ »

قال سعيد : « عرفته .. وهو نفسه الذى أتاها بالماشطة ؟ »

قال جوهر : « نعم .. هو بعينه »

قال سعيد : « هل رأيت الماشطة ؟ »

قال جوهر : « لم أر وجهها .. لأنها مبرقعة »

فأحس سعيد ان فى الأمر دسيســـة ، وقال : « الآن وقتك يا جوهر » ..

قال جوهر : « لبيك ياسيدى »

قال سعيد : « تبحث عن الزهراء فى كل غرفة ودهليز حتى فى السراديب وعلى السطوح .. ابحث عنها الآن وأتنى بالخبر ، لابد من وجودها هنا »

فقال جوهر : « سمعا وطاعة » وخرج

وبقى سعيد وقد أخذته الدهشة .. وجعل يفكر فيما سمعه وهو لايكاد يصدقه لولا اعتقاده فى صدق ذلك القزم. وبعد قليل جاءه جوهر والبغتة بادية فى وجهه وقال : « تعال ياسيدى »

فمشى معه حتى بلغ دهليزا من دهاليز القصر يؤدى الى باب يستطرق الى حديقة خاصة لايدخلها أحد الا بأمر الزهراء . فلما وصلا الى الباب أشار جوهر بأصبعه الى نور ضعيف يظهر من خلال الأغصان وقال : « انظر ! »

فنظر فرأى الزهراء والى جانبها شبح بملابس النساء ، وتفرس فى وجهه فاذا هو عبد الله بن الناصر فخفق قلبه ، وارتعدت ركبتاه من شدة التأثر . ولولا رباطة جأشه ما تمالك عن أن يثب عليهما . ولكنه تجلد وأعاد النظر فلم ير وجه الزهراء ، ولكنه عرفها من ثيابها كما وصفها جوهر .. أما عبد الله فرأى وجهه ، وأصغى فسمعهما يتحادثان همسا ، وهمّ أن يدنو لسماع الحديث ، فسمع وقع خطوات فى الدهليز ، فخشى أن يؤخذ بالتلصص ويعود الذنب عليه .. فتحوّل وجوهر معه نحو الدهليز ، فرأيا ياسرا قادما يتمشى ، فلما رأى سعيدا سلم عليه وسأله عما يريده فقال : « أنا فى انتظار السيدة الزهراء لأعلّمها الغناء حسب أمر الخليفة»

قال ياسر : « اذهب الى غرفتها .. ألا تعرفها ؟ »

قال سعيد : « هذا خادمها يعرف الغرفة ، ولكنه يقول انها ليست هناك »

قال ياسر : « لعلها فى الحمام ؟ »

قال جوهر : « ليست فى الحمام ياسيدى ولا فى محل آخر أعرفه ، وقد جئت للتفتيش عنها .. ورأيت فى الحديقة نورا فهل تظنها هناك ؟ »

قال ياسر : « أين ؟.. تعال » ومشى جوهر معه .. أما سعيد فرجع الى غرفته ، فلما وصلا الى الباب رآها ياسر مع عبد الله فدهش وقال : « هى هنا .. ماذا تعمل ؟ »

قال جوهر : « لا أعلم ، وأخشى اذا رأتنى أن تقتلنى .. انى ذاهب ياسيدى انى غرفتها أنتظرها فيها »

قال ياسر : « اذهب .. واحذر أن تذكر ذلك لأحد »

قال جوهر : « سأكتمه عن كل انسان » ومضى

– ٤٦ –

فى الحديقة

أما ياسر فلم يشأ أن يضيع هـذه الفرصة للانتقام من تلك المتكبرة ، فأسرع الى النـاصر . وكان قد عاد الى غرفة فى ذلك

القصر تعوَّد أن يجلس فيهـا لمراجعة بعض ما يعرض عليه من الأعمال ، فدخل عليه بلا استئذان ـ وتلك كانت عادة رؤسـاء الخصيان مع الناصر ـ ووقف بحيث يعلم الناصر انه يريد مخاطبته فأشار اليه فدنا ، فقال : « ما وراءك ؟ »

قال ياسر : « قد أمر مولاى أمير المؤمنين سعيدا الوراق أن يعلّم الزهراء ألحانا جديدة »

فقطع الناصر كلامه قائلا : « ألم يعلّمها ؟ »

قال ياسر : « انه لايزال فى انتظارها »

فاستاء الناصر من تعرض ياسر وتسرعه ، وهو يعلم ان فى نفسه شيئا عليها فقال : « لا تلبث أن تأتيه .. وما الذى يدعو الى هذه العجلة منك ؟ »

قال ياسر : « تعجلت فى نقل الخبر الى مولاى لأن أحد خدمها أخبرنى انها غير موجودة فى القصر ، ولا هى عند المعلم .. »

فبغت الناصر وقطب حاجبيه وقال : « أين هى اذن ؟ لعلها فى الحمام أو فى الحجلة »

قال ياسر : « ليست فى القصر كله ياسيدى »

فوقف الناصر وقد غضب من ياسر لالقائه الشك فى ذهنه وهو يقول : « أين هى ؟.. لابد أن تكون فى غرفتها أو .. » وسكت ومشى يتبع ياسرا والخدم تختبىء من طريقهما ، فقاده ياسر الى مكان يشرف منه على تلك الحديقة . فرأى الزهراء واقفة وبجانبها

شبح لم يعرفه حتى نبّهه ياسرا الى سحنته ، فعرف انه ابنه عبد الله ، فهاج الدم فى عروقه وأوشك أن يصرخ فيه لو لم يمسك نفسه خشية الفضيحة ، وأكبر أن يظهر شكه أمام ياسر فتجلد وقال : « يظهر انها فى شغل مع ولدنا عبد الله ـ حفظه الله ـ ولا بد من سبب فيه خير لنا .. ولكن كان ينبغى لها أن تلقاه فى غرفة من غرف القصر »

وكان عبد الله قد ودعها وهرول مسرعا فى الحديقة ، وعادت هى الى القصر ، فأظهر الخليفة ان الأمر لا أهميـة له ، وصرف ياسرا ، وذهب هو الى غرفته وقلبه يتقد غيرة وحنقا ، وحدثته نفسه مرارا أن يدعو الزهراء اليه فى تلك الساعة فينتهرها ويوبخها ويستطلع خبرها ، لكنه لم يشأ أن يمكن ياسرا من الشماتة بها .. فلما صرفه وأوصاه أن يكتم ذلك أخذ يفكر فيما رآه فعظم عليه، ولم يستطع صبرا عن معاتبتها فى الحال ، فبعث وصيفة تستقدمها. فعادت الوصيفة وقالت : « انها فى الفراش لا تستطيع النهوض »

وقد تعود الناصر أن يحتمل هذا الدلال منها فلا يغضبها .. أو هى عادة المحبين فى مثل هذه الحال ، اذ يفوز منهم السابق الى الدلال .. وقد يكون فى نفس المحب عتاب على حبيبه ، فاذا رأى منه غضبا أو تجنيا شغل بمرضاته عن عتابه .. فصبر الناصر نفسه وذهب اليها وهو يكظم غيظه حتى اذا دخل غرفتها تنحى كل من كان هناك من الخدم والوصائف ، وظلت هى وحدها

وكانت حالما وصلت الى غرفتها ، قد نزعت ثيابها وارتدت ثوبا تعودت لبسه عند لقاء الناصر ، اذ كان يزيدها جمالا ورونقا . وكان جمالها جذابا يأخذ بالعقول .. يكفى دليلا على ذلك استيلاؤها على قلب الناصر حتى شغلته عن كل من فى قصوره من السرارى والجوارى وأصبح لايتصرف الا حسب رأيها ولا يرد لها طلبا ، وقد بنى قصور الزهراء رغبة فى مرضاتها واحياء لاسمها كما علمت

— ٤٧ —

الزهراء

كانت الزهراء اذا جالستها فأول ما يخاطبك عيناها ، ثم لسانها ، ثم يستولى عليك عقلها وظرفها.. فلا تملك دفعا لما ترميك به من السهام النافذة تخترق الأحشاء . وكان فى عينيها نور لايُعبِّر عنه بغير السحر ، ولها قامة كالرمح مع بعدها عن الخلاعة والتبرج . وكانت فصيحة اللهجة ، ذكية الفؤاد ، سديدة الرأى مع تعقل ورزانة ، يتهيب جليسها من حديثها ، ويشعر بقوة حجتها وصحة برهانها ..

وكان الناصر يأنس بمجلسها ويعجب بكل شىء تأتيه .. فيرتاح

الى رؤيتها ، ويطرب من حديثها أو غنائها .. وكان اذا جالسها شغل بها عن كل شاغل ، لكنه كان يلاحظ عليها فى بعض الأحيان انقباضا لم يكن يعرف سببه . وقد تكون فى مجلس طرب والخليفة الى جانبها يطربها ويدللها ، وهى فى ابان فرحها ، فتتغير سحنتها بغتة ويظهر عليها الانقباض رغم محاولتها اخفاءه عن الجلوس .. وكثيرا ما سألها الناصر عن سبب ذلك التغيير وهى تنكره ، أو تنتحل له سببا لا يقتنع به الناصر ، ولكنه يجاريها

فلما شاهد ما أتته فى تلك الليلة أخذ يراجع تاريخ صلته بهذه المرأة لعله يرى موجبا لهذا التصرف ، فلم يجد سببا يوجبه .

فتذكر ما كان يلاحظه عليها من الانقباض ، فقال فى نفسه : « لعل لهذا علاقة بذاك» ثم عزم على لقائها فبعث اليها كما تقدم ، فأدركت لذكائها ان الخليفة لم يبعث اليها الا وفى نفسه شىء من العتاب ، لأنها لاحظت فى القصر حركة دلتها على ان الخليفة مشى نحو الحديقة .. فلم تشأ أن تذهب اليه لعلمها انه سيأتى اليها ، وكان من عادتها أن تواجه العتاب بالغضب أو الدلال : وجعلت من أسباب مرضاته لبس ذلك الرداء الذى تعودت أن تلبسه كلما أرادت أن يكون الخليفة طوع ارادتها

لبست ذلك الثوب وهو بلون السماء ، وعليه تطريز من الفضة بأشكال النجوم وبينها القمر .. وقد طرز على حاشية الثوب من أسفل هذان البيتان :

وانى لأهوام مسيئا ومحسنا
وأقضى على قلبى له بالذى يقضى
فحتى متى روح الرضى لا ينالنى
وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

وقد تمنطقت بمنطقة من الخز بحلق الذهب ، وشدت من الأمام بعروة من الذهب مرصعة بالماس .. وكان أثاث تلك الغرفة يأخذ بالعقول ، لما فيه من النقوش والأشعار على الأبسطة والستائر والجدران . وكان سريرها من الأبنوس منصوبا فى أحد جوانب تلك الغرفة الواسعة ، وعليه نقش مطعّم بالعاج فى جملته هذه الأبيات :

ومجدولة أما مجال وشاحها
فغصن وأما ردفها فكثيب
لها القمر السارى شقيق وانها
لتطلع أحيانا له فيغيب
أقول لها والليل مرخ سدوله
علينا بك العيش الخسيس يطيب
فقالت نعم ان لم يكن لك غيرنا
ببغداد من أهل القصور حبيب

وكانت كلة سريرها (الناموسية) من الحرير اسمانجونية اللون وعليها هذان البيتان :

من قِصر الليل اذا زرتنى
أبكى وتبكين من الطول
عدو عينيك وشانيهما
أصبح مشغولا بمشغول

ناهيك بما على الطنافس والوسائد من الأشعار المطرزة ، مما يدهش البصر غير ما على الحجلة (التوالت) من النقوش الجميلة ، وكانت حجلتها معصفرة بالذهب ، وقد طرزت عليها أبيات تطريزا جميلا وهى :

دعينى أمت والشمل لم يتشعب
ولا تبعدى أفديك بالأب والأم
سقى الله ليلا ضمنا بعد هجعة
وأدنى فؤادا من فؤاد معذّب
فبتنا جميعا لو تراق زجاجة
من الراح فيما بيننا لم تسرب

وكان فى تلك الحجلة حُق" من الذهب فيه بخور ، أمرت الزهراء باحراق شىء فيه ، فتصاعدت رائحته واختلطت بروائح الطيب ..

وحالما علمت الزهراء ان الخليفة قادم اليها ، أمرت بايقاد الشموع ، وتهيأت لاستقباله بذلك الثوب الجميل ، كأنها لم تفعل شيئا يوجب عتابا أو مؤاخذة

— ٤٨ —

العتاب

ترك الخليفة غرفته وهو يغالب غضبه ويكظم غيظه ، فلما أقبل على غرفة الزهراء كانت قد خرجت لاستقباله وهى تجر ذيل ثوبها تيها .. ثم وقفت تنتظر مايبدو منه ، فرأته ظل ماشيا لايلتفت اليها فأحبت أن تبادئه .. فهمّت بيده وأكبت عليها كأنها تريد تقبيلها ، فاجتذبها من بين يديها .. وظل ماشيا اشارة الى غضبه عليها . فمشت فى أثره وهى مطرقة بلا تذلل أو خوف ، وأظهرت العتاب لهذا الجفاء .. أما هو ، فظل ماشيا حتى تصدر القاعة فجلس على وسادة غاضبا ، ولم يَدْعُ الزهراء للجلوس .. فظلت واقفة . ثم رفع بصره اليها فرآها توجّه اليه نظرة عتاب بما يعجز عنه اللسان . فصبر لعلها تقول شيئا ، فبسطت كفها وقدمتها له فقرأ عليها بيتا منقوشا بالحناء وهو :

فديتك قد جبلت على هواكا
فقلبى ما ينازعنى سواكا

فلما وقع نظره عليه وجد للكلام سبيلا ، فحوّل وجهه عن تلك الكف وقال : « قد كان ذلك من عهد بعيد » وهز رأسه هزّة الغضب ..

فقالت الزهراء : « هل يأذن لى أمير المؤمنين بالجلوس ؟ »

فأشار اليها أن : « اجلسى »

فجلست بين يديه وقالت : « مالى أرى مولاى قد تغير على جاريته ؟ »

قال الناصر : « لم أتغير أنا يا زهراء »

قالت الزهراء : « ولا أنا ياسيدى .. كيف يخطر ببالى التغير وأنا فى نعمة لم يحلم بها أحد قبلى ؟ »

قال الناصر : « أراك سعيدة فى هذه القصور ؟ »

فابتسمت الزهراء وقالت : « كيف لا أكون سعيدة وأنا مشمولة برضى أمير المؤمنين .. رافع لواء الاسلام والمسلمين .. »

قال الناصر : « لاتكذبى .. كم من مرّة رأيت مظاهر التعاسة على محياك وسألتك عن علة ذلك فأنكرت ؟ أظننى عرفت العلة الآن » قال ذلك بنغمة الظافر ولسان حاله يقول : «كشفت سرك .. »

فلما أشار الى انقباضها أجفلت وأخذ الانقباض يغالبها وهى تبتسم وقالت : « لاتخلو حياة الانسان من أسباب قهرية للانقباض حتى لايكون أهل الأرض مثل أهل السماء .. فلولا هذا الانقباض القليل الذى يتولانى فى بعض الأحايين لكنت أحسبنى فى الفردوس »

فأعجبه تخلصها بهذا الاطراء ، ولكنه لم يقتنع فقال : « نعم.. ولكن أحب أن أعرف سبب ذلك الانقباض .. ما هو سبب

انقباضك الفجائى أحيانا وأنت جالسة الىّ ونحن فى طرب وغناء ؟ »

فتنهدت رغم ارادتها وقالت : « يندر أن يحدث ذلك ولا أذكر سببه »

قال الناصر : « أنا أعلم سببه »

قالت الزهراء : « طبعا أمير المؤمنين أعلم »

قال الناصر : « لم أكن أعلم ذلك قبل اليوم » وتنحنح

فأدركت انه لايلبث أن يذكر ما شاهده منها فقالت : « وكيف عرفته ؟ »

قال الناصر : « عرفته بالمصادفة .. هل تلقيت درسك فى الألحان اليوم ؟ »

قالت الزهراء : « كلا ياسيدى »

قال الناصر : « ولماذا ؟ »

قالت الزهراء : « لأنى كنت فى شاغل »

قال الناصر : « ما الذى يشغلك عن ذلك وأنت الآمرة الناهية فى هذه القصور كلها .. وأنت صاحبة السيادة على ما فيها من الجوارى والغلمان ؟ »

قالت الزهراء : « وهل كثرة الجوارى وسعة القصور تغنى الانسان عن الاشتغال ؟.. هذا أمير المؤمنين يده فوق كل يد ومع ذلك فهو يرى ما يشغله أحيانا »

فتبادر الى ذهنه انها تؤنبه على تعلقه بعابدة وتشير الى ما استخفه من الطرب فى تلك الليلة فقال : « أظنك تحاسبيننى على خطواتى وتعدين علىّ أنفاسى .. ها أنت قد عرفت ما شغلنى أحيانا .. فقولى ما الذى يشغلك .. قولى ما الذى شغلك عن الدرس الليلة ؟ » قال ذلك بصوت فيه شيء من التهديد ، وحدق بصره فيها ..

فلم تنهيّب تهديده وظلت رابطة الجأش وقالت : « انماشغلنى عن الدرس هو أهم من الدرس فى نظرى »

قال الناصر : « طبعا هو أهم من الدرس .. وتقولين ذلك صريحا ؟ »

قالت الزهراء : « لقد تعودت الصراحة فى القول »

قال الناصر : « فاذن اصدقينى الآن .. »

قالت الزهراء : « بماذا ؟ »

قال الناصر : « مع من كنت مختلية هذا المساء ؟ »

قالت الزهراء : « مع الأمير عبد الله ابن أمير المؤمنين »

قال الناصر : « ولماذا ؟ »

قالت الزهراء : « لسبب لا أقوله »

قال الناصر : « هل تكتمين ذلك عنى ؟ »

قالت الزهراء : « نعم ياسيدى أكتمه »

قال الناصر : « ولكن ذلك يسوءنى كما تعلمين »

قالت الزهراء : « لم أكن أعلم انه يسوءك ، ومع ذلك فقد حصل » ..

قال الناصر : « تقولين بجسارة انه حصل ، ولا تريدين أن تطلعيني على السبب ؟ تقولين ذلك صريحا دون خوف ؟ يا لله من هذه الوقاحة »

فتبينت الغضب فى عينيه وساءها نفظ (الوقاحة) فقالت : « لم أتعود هذا الغضب من أمير المؤمنين ولا هذه الألفاظ » وأطرقت دلالا واشتغلت باصلاح الأساور فى زندها وهى تنظر اليها

— ٤٩ —

الحيرة

فتأثر الناصر من عتابها ، ولكنه أصرّ على استطلاع سرها فقال : « أصبت انك لم تتعودى منى هذا الجفاء لأنى لم أر منك ما يبعث عليه .. أما الآن فقد خرجت عن عهدى فيك »

قالت الزهراء : « بماذا ؟ ألأنى خاطبت ابنك ؟ »

قال الناصر : « ليست مخاطبته مما تؤاخذين عليه ، ولكنك فعلت ذلك سرا وأتيت لعبد الله بثياب امرأة .. لا أدرى كيف أطاعك هو على ذلك .. انه خائن » وأحس الناصر أن الغضب

يكاد يخرجه عن هدوئه فتماسك وسكت ..

فقالت الزهراء : « اذا غضب أمير المؤمنين مما حدث ، فأنا صاحبة الذنب وليس ابنه الأمير عبد الله ، فلا داعى لاتهامه بشيء .. وسوف تظهر براءته »

فقال الناصر : « والآن قولى .. ألا تخبريننى عن سبب تلك الخلوة بعبد الله ؟ »

قالت الزهراء : « لا أقول ذلك الآن .. لا تغضب يامولاى انى لا أستطيع أن أقوله .. ولكن المستقبل كفيل بكشفه »

فلما يئس من اقناعها بالتصريح بالحقيقة ، حدثته نفسه أن يحملها على الاقرار قهرا ، ثم رأى ان ذلك يحط من كرامتها وهو يحبها ويحب المحافظة على منزلتها لكثرة حسادها فى بلاطه . وكثيرا ما جاءته الوشايات فى حقها وهو يدافع عنها ويظهر حسن ظنه بها . فرأى ان حملها على الاقرار بالقوة يحط من كرامته لدى أهل دولته فضلا عن شغفه بها ، فهو يميل بعواطفه الى تبرئتها لئلا يئول الغضب الى تركها ، أو قتلها .. وهو يرى بقاءها لازما له ، ويعد وجودها فألا حسنا على دولته ، لأنه منذ أن عرفها والسعد حليفه فى الحروب والادارة السياسية .. على ان المحب كثير الظنون قريب الشكوك ، فلما تذكر كيف رآها فى خلوة مع ابنه على تلك الصورة ثارت غيرته ، فرأى من الحكمة أن يتمهل فى الحكم واستطلاع السر بالحسنى .. وأخذ يفكر فى طريقة لتحقيق هدفه

فلاحظت هى تفكيره ، فجثت بين يديه وقالت : « كيف يظن مولاى السوء بى وقد غمرنى بنعمه ورفع منزلتى ، وجعلنى موضوع حبه وأقرب الناس اليه ومحل ثقته .. »

فلما سمع هذه العبارة تذكر قولا سمعه من سعيد أول يوم لقيه فى قصره ، وطلب اليه أن يستطلع طالعه فقال له يومئذ : « ان الخوف يأتيك من أكثر الناس ثقة عندك » فعاد الى الارتياب ، ولكنه صمم على الصبر فوقف وهو يقول : « أنا ذاهب وينبغى لك أن تقدرى سكوتى الآن بالرغم مما يحيط بى من أسباب الشكوك » ..

قالت الزهراء : « اننى مقدرة ذلك ، وهو من جملة أفضالك .. وسترى انى موضع ثقتك » ومشت فى أثره ولاحظت انه يمشى الهوينى كأنه يتوقع أن تدعوه للرجوع ، أو أن قلبه لم يطاوعه على الخروج وهو لم يصل الى نتيجة .. فكان يخطو خطوتين ويقف هنيهة ، ثم يخطو وهى تمشى فى اثره لتشيعه الى باب الغرفة . فلما وصل الى الباب وقف والتفت اليها فرآها مطرقة اطراق التفكير ، فتبادر الى ذهنه انها عدلت عن الكتمان ، فتحول نحوها وقال : « ألا تغيرين رأيك فتطلعينى على الحقيقة ؟ »

قالت الزهراء : « قلت لمولاى ما يمكننى أن أقوله ، وأنا أعلم ان حياتى وموتى بين شفتيه ، ولكن .. »

قال الناصر ولم ينتظر اتمام كلامها : « أسألك سؤالا واحدا ،

أجيبينى عليه بالصدق .. »

قالت الزهراء : « اسأل ياسيدى فانى لا أقول غير الصدق »

قال الناصر : « أتحبين ابنى عبد الله ؟ »

قالت الزهراء : « نعم أحبه » ولم يتلجلج لسانها ولا تغير وجهها ..

فبغت لهذه الجسارة ونظر فى وجهها وأجال نظره فيها ، وهى لا تبالى .. فقال لها : « تقولين ذلك بكل جسارة ؟ »

قالت الزهراء : « ألم تشترط علىّ الصدق ؟ انى أحب الأمير عبد الله .. كيف لا أحبه وهو ابن سيدى أمير المؤمنين ؟ »

فرأى فى هذا التعبير ما يخفّف الغضب ، وندم على رجوعه للسؤال فسكت ، ومشى الى غرفته .. وعادت هى الى غرفتها واستلقت على سريرها ، وتنهدت كأنها أطلقت نفسا كان محبوسا فى صدرها ويكاد يخنقها .. فأتاها جوهر ، وأخذ يساجنها التماسا لتسليتها ، فأشارت اليه أن يتركها وحدها

— ٥٠ —

الهواجس

ثم أمرت احدى وصيفاتها أن تهيىء لها الفراش ، وجاءت وصيفة أخرى لتساعدها على تبديل ثيابها وهى مستغرقة فى

الأفكار . فلما فرغت من تبديل الثياب أمرت باطفاء الأنوار الا ضوءا ضعيفا . وأرخت الكلة (الناموسية) على سريرها تلتمس النوم ولكن عبثا ..

فما أن استلقت حتى تراكمت عليها الهواجس.. وأخذت تفكر فى حالها وما يبدو عليها من سعادة يحسدها عليها النـاس ، وما يعتور تلك السعادة من أسباب الشقاء . فعادت بذاكرتها الى صباها منذ حملها النخاسون من جبال الصقالبة وهى طفلة ومعها أخوها ، ولما تذكرت أخاها تنهدت وتقلبت على جنبها الأيمن تريد أن تنسى تلك الذكرى ، فلم تزدها هـذه الرغبـة الا تذكيرا ، فتذكرت كيف حملت مع أخيها الى ايطاليا وعليهما أطمار بالية لا تقيهما البرد . ولكن جمالها كان يلفت الأنظار ، وقد وقعت فى يد أحد تجار الرقيق من اليهود ، وكان خبيرا بخفايا التجارة .. فعرف ان مثل هذه الجارية لايدفع ثمنها الا المسلمون فى صقلية . وكانت جزيرة صقلية يومئذ فىحوزة المسلمين تحت سيطرة دولة العبيديين فى المغرب . وكان أمراؤها يتقربون الى خلفاء تلك الدولة بأمثال هـذه الهدايا . فأراد أن يبتاع الزهراء ليرسلها هـدية ، فأبت وتوسلت الى التاجر أن لا يبيعها الا مع أخيها لأنها كانت شديدة التعلق به .. ولم يكن لها تعزية فى ذلك الأسر والفقر سوى وجود أخيها معها ، فأطاعها التاجر واشترط مع أمير صقلية أن يشترى الاثنين معا ، فرضى وابتاعهما لأن جمال الزهراء بهره وأعجبه ما

آنسه من لطفها وذكائها . وحدثته نفسه أن يستبقيها له ، لكنه كان فى حاجة الى مهمة من الخليفة العبيدى صاحب افريقيا ، وهو يومئذ المهدى ، فاستقر رأيه على أن يرسلها اليه ويستبقى أخاها عنده يربيه فى داره ، ويدربه على الجندية على جارى عادتهم فى استخدام المماليك .. فأبت الزهراء عليه ذلك ، وتوسلت اليه أن يرسل أخاها معها فيكون حيث تكون ، فلم يطاوعه قلبه على رد طلبها بعد ما آنسه من لهفتها

كانت الزهراء وهى نائمة على جنبها تتذكر أيام صباها فى تلك الجزيرة ، وكيف دهشت لما شاهدته هناك من مظاهر المدنية مما لم تكن عيناها قد وقعت على شىء مثله من قبل ، لأنها نشأت بين الجبال والأودية ترعى الماشية أو تذهب للاحتطاب . ومع ذلك فقد كانت سعيدة هناك . وكانت أسعد الأوقات عندها عندما ترجع مع أخيها ، وهما يتعاونان فى نقل حمل من القش أو العيـدان أو يسوقان بعض الماعز ، وأبواهمـا ينتظرانهما فى كوخ حـقير ، فيشعلون تلك العيدان ويحومون حولها للدفء . وكان يلذ لها أن تذكر ذلك الدفء مع الدخـان المتصـاعد حتى يكاد يعمى الأبصار ، أكثر مما يلذ لها الاستلقاء على ذلك الفراش اللّين مع ما يغشاه من الكلل المطرزة والستائر الموشاة ، وما يتضوع فى جو تلك الغرفة من الطيب ..

فلما تذكرت ذلك تنهدت ، وقد ضاق صدرها ، فدفعت الغطاء

عنها وتحولت الى الجانب الآخر ، وأخذت تناجى نفسها : « ويلاه ما هذه الهواجس .. آه ما أجمل تلك الجبال الجرداء ، وما أشهى رائحة دخان العيدان ، وأنا بقرب أخى وحبيبى .. » ولما ذكرت أخاها جلست على الفراش فجأة ، والتفتت الى ماحولها على ذلك النور الضعيف ، فرأت الوصيفة التى تنام عنــد قدميها لا تزال جالسة كأنها شعرت ان الزهراء لم تنم بعد .. فظلت جالسة لعلها تحتاج اليها فى شىء ..

أما الزهراء فلما رأتها أجفلت لأنها كانت تود أن تكون وحدها لعلها تطلق لأشجانها العنان

— ٥١ —

حديث عن الصبا

وكانت تلك الوصيفة أحب وصيفاتها اليها ، وقد فتحت لها قلبهــا واتخذتها أما وأطلعتها على بعض أسرارها .. ولم تكد الزهراء تجلس على الفراش حتى نهضت الوصيفة واقفــة تتوقع أمرها بما تريده ، فنادتها الزهراء قائلة : « ألا تزالين جالســة ياخالة ؟ » ..

فقالت الوصيفة : « كيف أنام ياسيدتى وأنا أراك تتقلبين على

فراشك ..؟ هل تحتاجين الى خدمتى ..؟ »

قالت الزهراء : « كلا » وفى رنة صوتها دليل على شىء تكتمه

فقالت الوصيفة : « يظهر لى انك تحتاجين الى شىء ؟ »

فتنهدت الزهراء وقالت : « نعم .. ولكن .. »

فتقدمت الوصيفة حتى وقفت بجانب السرير وقالت : « هل أرفع هذه الكلة .. الناموسية .. »

قالت الزهراء : « افعلى .. انى أرانى لا أستطيع النوم »

قالت الوصيفة : « يظهر ان حديثك مع أمير المؤمنين أقلقك . لابأس عليك ، انه لا يلبث أن يرضى صاغرا » قالت ذلك بصوت منخفض كأنها تحاذر أن يسمعها أحد

فقالت الزهراء : « أعلم ذلك جيدا .. ولكن رضاءه لا يخفف شيئا من قلقى .. »

قالت الوصيفة : « ما الذى يقلقك وأنت سيدة هذه القصور وساكنيها ، ربة الجمال والذكاء لايرد لك أمر .. حتى أميرالمؤمنين صاحب السيادتين يتمنى رضاك ؟ »

فتنهدت وتشاغلت بجمع شــعرها عن وجهها وارســاله الى الوراء ، ثم قالت : « أتظنين الســعادة ياخالة فيما ترينــه من الرياش والأثاث ، أو بما يحيط بى من الخدم ؟ انى تعسة .. انى شقية .. » وغصت بريقها

قالت الوصيفة : « ماذا حدث ياسيدتى ؟ »

قالت الزهراء : « لم يحدث شيء .. ولكن هذا النور الضعيف ذكّرنى بأشياء كنت أحاول نسيانها .. »

قالت الوصيفة : « هل أنير الشموع ؟ »

قالت الزهراء : « لا .. »

قالت الوصيفة : « ماذا أفعــل ؟.. ماذا تريدين أن أفعــل لراحتك ؟ »

قالت الزهراء : « ان الذى يريحنى لا تقدرين عليه »

فأطرقت الوصيفة هنيهة ، وكأنها تذكرت سبب ذلك القلق وقالت : « أظنك عدت الى الحديث القديم .. ان تلك الذكرى ياسيدتى لا فائدة منها .. ان أخاك لا سبيل اليه ، وقد آن لك أن تنسيه »

فمدت الزهراء يدها الى فم الوصيفة كأنها تحاول أن تسكتها وقالت : « لا تقولى ذلك .. كيف أنساه ؟ وأنا لا أزداد الا تذكرا انى أتذكر صباى يوم حملت من صقلية مع أخى كما أخبرتك مرة ، أتذكر الآن وجهه الصبوح ، وقد أخذ بيدى ووقف الى جانبى على ظهر السفينة وهى تقلع من مياه صقلية .. ياليتنا بقينا فى تلك الجزيرة ولم ننتقل منها .. يا ليتنا غرقنا معا فى تلك المياه .. »

قالت الوصيفة : « ولكن انتقالك كان سببا فى وصولك الى هذه النعمة التى يحسدك عليها أقرانك ، بل يحسدك عليها نساء العالمين » ..

قالت الزهراء : « هــذا صحيح ولكن ينقصنى وجود أخى ليتمتع بهذه السعادة معى .. آه من ينبئنى عن مكانه .. هل هو حى أم ذهب طعاما للأسماك ؟ » ومسحت عينيها بطرف كمّها ..

قالت الوصيفة : « لايعلم ذلك الا الله .. ولو كان حيا لعلم بمقامك وجاء اليك »

قالت الزهراء : « كيف يعلم وهو لايعرف اسمى هذا .. هو لا يعرف اسمى الزهراء ، وانما يعلم ان اسمى « حسناء » فلو كنت معروفة بهذا الاسم لبلغه خبرى .. »

فقالت الوصيفة : « صحيح .. وأين افترقتما ياسيدتى ؟ هل تخبريننى لعلى أستطيع أمرا ينفعك .. هل تكاشفيننى ؟ »

فقالت الزهراء : « فارقته فى عرض البحر.. اختطفنى القرصان ونحن على تلك السفينة ، ولا أعلم ماذا فعلوا بأخى .. »

قالت الوصيفة : « ألم تسألى عنه ؟ »

قالت الزهراء : « من اسأل ؟ وقد نقلت من أناس لا أعرفهم الى أناس لا أعرفهم وكلهم لصوص .. اختطفنى لصوص من بين ذراعى والدى وباعونى الى تجار من صقلية ، مكثت عندهم مدة علمونى فيها اللغة العربية ، ثم باعونى لأمير صقلية ، وهذا أمر رجاله فحملونى على سفينة قالوا انهم ذاهبون بى الى ملك عظيم فى افريقية .. فرضيت لأن أخى كان معى ، ولم تنقض علينا سوى بضعة أيام ــ ونحن فى السفينة ــ حتى سطا علينا لصوص البحر

فى ليلة ليلاء ، وهم كثيرون فى هذا البحر يسطون على السفن وينهبون ما بها .. ويسمونهم القرصان . وقد كان فى امكانى أن أبقى هناك ولكن .. »

فتعجبت الوصيفة من قولها وقالت : « ولماذا لم تبقى ؟ »

— ٥٢ —

سبب الفراق

فغصت بريقها وسكتت ، وهى تتلهى بمسح دمعتين انحدرتا على خديها ، وقالت : « لم أبق لأنى كنت أطلب النجاة من رجل هناك يزعم انه رئيس تلك السفينة ، ومابرح منذ أقلعنا من صقلية وهو يتقرب الىّ وأنا أشعر بنفور منه لا أدرى سببه ، وهو يدنو منى ويعدنى ويمنينى ويظهر انه يحب أخى ويلاطفه .. فأظهرت لأخى نفورى من ذلك الرجل وتواعدنا على اننا اذا وصلنا الى شاطىء افريقيا شكوناه الى ملكه . وكان قد أدرك غرضنا فجعل يضيق علينا .. فلما هاجمنا القرصان خطر لى — من شدة كرهى لذلك الرئيس — ان انتقالنا الى سفينة القرصان ينجينا منه .. ونحن فى كل حال غنيمة للقوى ، فلم ندافع كثيرا ولم تكن نجاتنا فى أيدينا . فما شعرت الا وأنا على سفينة القرصان ، وقد أقلعت

بنا ، وكنت أحسبهم قد خطفوا أخى معى فلم أجده ، فبكيت وصرخت وما من سميع ، فأخذت أشعر بالتعاسة منذ ذلك الحين.. وحملنى القرصان الى شاطىء الأندلس فباعونى الى لصوص آخرين ، وهؤلاء باعونى الى رجل حملنى الى قرطبة .. فلما رآنى ياسر رئيس الخصيان اشترانى لسيده أمير المؤمنين . فشغلت فى بادىء الأمر بمصائبى ، ثم بالانتقال الى هذه النعمة ، وما لبثت أن عدت الى أمر أخى ، ويكاد الندم يأكلنى لأنى أشعر أنى كنت سببا فى هذا الفراق..» ولما بلغت الى هنا لم تتمالك عن البكاء ، وهى لا تجسر أن تجهر به لئلا يظن من يسمعها انها تبكى خوفا من غضب الخليفة

وكانت الوصيفة تسمع كلامها وتعجب لشدة تعلقها بأخيها لأنها لو كانت هى فى مكانها ، وصارت بهذه المنزلة من الجاه والنعم ، لم تعد تذكر أحدا من أهلها .. ولكن الناس يتفاوتون فى أحاسيسهم ومشاعرهم ، ففيهم المحب الذى اذا أحب تعشق وارتسم حبيبه فى كل جارحة من جوارحه ، ولا يجد له عنه صبرا ولا تغيره طوارق الحدثان . ومن الناس من يخلق مطبوعا على الألفة ، اذا تعود شيئا شق عليه فراقه ولو كان مكروها ، والى ذلك أشار المتنبى بقوله عن نفسه :

خلقت ألوفا لو رجعت الى الصبا
لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

ويغلب فيمن يحب كثيرا أن يكره كثيرا ، فيكون حبه كلفا وبغضه تلفا .. ومن الناس من لايعرف من الحب الا اسمه ، وانما يكون الحب فى نظره قضاء لمصلحة أو طمعا فى غرض ، فاذا تجرد عن المنفعة لم يبق له أثر

وكانت الزهراء شديدة الحب اذا أحبت ، مع تعقل واخلاص ، شديدة البغض اذا أبغضت . وكانت قد تعشقت أخاها ، وتجد الحياة مُرَّة بدونه ، وهما فى أشقى الأحوال، وقد أبغضت رئيس تلك السفينة حتى لم تعد تستطيع أن تتصوره . فلما صارت الى تلك النعمة صارت تحب أن يكون أخوها معها ليشاركها سرورها وهى مع ذلك لا تعرف مصيره .. أحى هو أم ميت ؟

أما الوصيفة فلما رأت يأس الزهراء ، أرادت أن تشغلها عن ذلك الحديث بسواه ــ ولم يكن يشغلها شىء عنه ــ فقالت : « احمدى الله انك نجوت من شخص تكرهينه .. و .. »

فابتدرتها قائلة : « نعم نجوت .. وليتنى ما نجوت ..» وكفَّت عن الكلام كأنها ندمت على ما فرط منها ، فساعدتها الوصيفة على تغيير الموضوع فقالت : « ان تفكيرك ياسيدتى فى أخيك لا فائدة منه ، وقلبى يحدثنى بأنك ستلتقين به .. ألم تسألى المنجمين عنه ؟»

فقطعت الزهراء كلامها قائلة : « انى لا أصدق المنجمين ، ولا أثق اذا سألتهم أن لايبلغوا الخبر الى الناصر . ولا أريد أن يعرف أنى مشغولة عنه بأحد لأنه لم يشغل عنى بسواى .. »



« فقالت الوصيفة : ان تفكيرك ياسيدتى فى اخيك لا فائدة منه ، وقلبى يحدثنى بأنك ستلتقين به .. ألم تسألى المنجمين عنه ؟ ... »

فقالت الوصيفة : « أحسنت » واقتربت من أذنها وقالت همسا : « ولكننى علمت ان الرجل الذى أمره مولانا الناصر أن يعلمك الغناء بارع فى التنجيم لا مثيل له فيه » ..

قالت الزهراء : «تعنين سعيدا الوراق؟.. هل يعرف التنجيم ؟»

قالت الوصيفة : « أنا على ثقة من ذلك ، وعلمت ان مولانا يعوّل عليه سرا فى استطلاع الغيب ؛ وله فيه ثقة كبرى ، فاذا جاء لتعليمك الغناء فاسأليه لعله يفيدك .. ولا ضرر من ذلك »

قالت الزهراء : « ولكن سؤاله فى هذا الشأن يقتضى .. لابأس سأرى » وأحست من تلك الساعة براحة أذهبت قلقها ، فأظهرت انها تميل الى النوم ، فساعدتها الوصيفة فى ارسال الكلة (الناموسية) ونامت وهى تعمل فكرها فيما تفعله

أما سعيد فذهب فى تلك الليلة الى غرفته ينتظر أن يأتيه جوهر بما دار بين الناصر والزهراء ، ولم يفت جوهر شىء مما دار بينهما، فجاء الى سعيد وقصّ عليه ما سمعه . فبات تلك الليلة وهو يتوقع أن يبعث الخليفة فى طلبه فى الغد

— ٥٣ —

ماذا وجدت ؟

وفى الصباح جاء ياسر يدعو سعيدا الى الناصر ، فنهض ومعه

كتاب التنجيم وياسر يحرضه على الايقاع بالزهراء . فمضى حتى دخل على الخليفة وهو لايزال فى فراشه ، فدعاه الى الجلوس ، فجلس وهو يتجاهل فقال له الناصر : « هل علّمت جاريتنا الزهراء شيئا ؟ »

قال سعيد : « كلا يامولاى لأنى لم أجدها فى غرفتها بالأمس » ..

فقال الناصر : « ألم يدلك تنجيمك على سبب غيابها ؟ »

قال سعيد : « لم أبحث عن سبب ذلك ، ولو أمرتنى لفعلت »

فأخرج الكتاب وأخذ يقلّب فيه ويتأمل فى بعض سطوره ، كأنه يحسب ويستخرج ، والناصر ينتظر ما يقول .. فلما أبطأ فى الكلام قال له : « ماذا وجدت ؟ »

قال سعيد : « يأمر مولاى بمبخرة ؟ »

فصفق وأمر له بما أراد ، فجىء اليه بمبخرة من ذهب فيها جمرة فأخرج من جيبه قطعة من البخور ، ووضعها فى المبخرة وجعل يتفرس فى الدخان المتصاعد منها ، ثم ترك الكتاب وجعل يده على حاجبه كأنه يستظل بها من الشمس ، وهو ينظر الى الدخان ويقول : « ماذا أرى ؟ أليس هذا هو الأمير عبد الله ؟ »

فلما سمع الناصر قوله ، تيقن من قدرته على استطلاع الغيب ، وظل ساكتا ليرى ما يبدو منه ، فأنزل سعيد يده وأعاد التفرس فى الدخان وهو يتصاعد من المبخرة الى السقف وقال : « بلى

هذا هو الأمير عبد الله ابن أمير المؤمنين فى الحديقة والزهراء الى جانبه .. هـذا ياسيدى ما أراه .. ولا أدرى اذا كان البخور يخدعنى » ..

قال الناصر : « وهل خدعك من قبل ؟ »

قال سعيد : « كلا ، وانما استبعدت ذلك لأنى تركت الأمير عبد الله فى قصره .. ولم أسمع انه جاء الى هذا القصر » ..

قال الناصر : « ينبغى لك أن تعرف كيف جاء .. ! »

فعاد الى المبخرة ووضع عليها قطعة أخرى من البخور ، ونظر الى دخانهـا وقال : « هو .. هو بعينـه وعليه ملابس النساء والزهراء الى جانبه تحادثه »

قال الناصر : « ماذا كان حديثها ؟ »

قال سعيد : « لم أسمع شيئا .. »

قال الناصر : « أحب أن أعرف الحديث الذى دار بينهما .. »

قال سعيد : « وهذا ما أحب أن أعرفه أنا ، ولكنى لا أسمع شيئا الآن .. »

قال الناصر : « هل ترجو أن تسمع شيئا فى فرصة أخرى ؟ »

قال سعيد : « نعم ياسيدى »

قال الناصر : « يكفى الآن فاكتم ما رأيت ، ومتى تمكنت من سماع الحديث فاخبرنى .. وما الذى يساعدك على سماعه ؟ »

قال سعيد : « يساعدنى أن أسمع صوتها تتكلم »

قال الناصر : « فأنت اليوم مأمور بتعليمها الغناء ، وسأبعث اليها بأنك آت لهذه الغاية فى العصر »

فأشار برأسه اشارة الطـاعة وقال : « الأمر لمولاى ، ولكن الأفضل أن لايكون ذلك فى غرفتها لكثرة من فيهـا من الخدم والوصيفات .. أو يأمر مولاى أن تكون هناك منفردة ، ومعها وصيف أو وصيفة فقط » ..

قال الناصر : « حسنا ، وانها تفضل ذلك أيضا .. فمتى ذهبت اليها تجدها فى غرفتها منفردة »

قال سعيد : « هل أذهب اليها فى أصيل هذا اليوم ؟ »

قال الناصر : « افعل » وتزحزح الخليفة من مكانه ، فنهض سعيد واستأذن وخرج

وفى العصر أصلح شأنه واصطحب ياسرا الى غرفة الزهراء ، فأوصله الى باب الغرفة ودخل فأخبرها بمجيئه وانصرف . فدخل سعيد من باب الغرفة فوجد فى وسطها ستارا منصوبا خرج اليه من ورائه جوهر ، وأظهر انه لم يره الا فى تلك الساعة وقال له : « انت معلم الغناء ؟ »

قال سعيد : « نعم .. »

قال جوهر : « ان مولاتى فى انتظارك وراء هذا الستار بأمر الخليفة ، تفضل واجلس » وثنى وسادة وقدمها له ، فجلس ثم

ذهب فأتاه بعوَد وقال : « هذا عود لتدلها به على ما تريد أن تفعله » ..

— ٥٤ —

الدرس

فتناول سعيد العود وضبطه على لحن .. ودفعه الى جوهر ، وقال : « أعطها العود »

فدخل به وسلمه اليها فقال سعيد : « اعزفى عليه لحن كذا »

فأخذت تعزف عليه ، وهو يشير عليها أن تصلح هـذا الوتر وتشده ، أو ترخيـه وتغير هـذه النقرة أو تلك وهى تفعل ، وأفكارها تائهة لأنها كانت ما تزال مشغولة بأمر أخيها والتنجيم

ولم يكن هو أقل اشتغالا بها ، وود لو انها تزيح ذلك الستار ليراها ، وندم لأنه لم يشترط على النـاصر مجالستها ورؤيتها ، ولكنه أومأ الى جوهر أن يحتال فى أن يراها .. فأخذ جوهر يظهر الضجر من نقل الدرس بينهما ، وقال : « ان التعليم على هـذه الصورة لا يفيد ياقوم »

وكان لقوله وقع استحسان عند كليهما .. فقال سعيد : « لو استـأذنت أمير المؤمنين فى أن نتقـابل لم يمنعنا .. واذا أمرت

الزهراء بذلك الآن كان الأمر لها »

فقال جوهر : « لا أظن أن سيدتى تمانع فى ذلك ، ونحن فى هذا الجناح من القصر وحدنا ، ليس من يسمع أو يرى » ودخل اليها فخاطبها همسا ثم عاد وقال : « ان سيدتى تأمر برفع الستار على شرط .. »

قال سعيد : « وما هو ؟ »

قال جوهر : « بلغها انك عالم بالتنجيم .. »

فقطع سعيد كلامه قائلا : « ومن أبلغها ذلك ؟ »

قال جوهر : « علمت والسلام .. وأنا أعلم أيضا .. فالشرط ياسيدى أن تستطلع لها أمرا شـغل بالها منذ عدة أعوام ، فاذا فعلت ذلك وأصبت .. كشف الستار وقابلتها ، فهل تقبل بهذا الشرط ؟ » قال ذلك وهو يتلوى ويتماجن

فقال سعيـد : « أما وقد أَمَرَتْ ، فلها علىَّ ذلك » ثم وجَّه خطابه اليها فقال : « ما الذى تريدين كشفه ياسيدتى ؟ »

قالت وصوتها يتلجلج : « لا أقول ما هو ، ولكننى أقول انى فقدت شخصا منذ أعوام كثيرة ولا أعلم ما صار اليه أمره ، فاذا كنت تجيد التنجيم حقيقة فقل لى من هو ؟.. وأين هو ؟ »

فأخرج سعيد كتابه ، وأخذ يقلّب فيه ، وقد استولى السكوت على المكان لا يسمع فيه الا حفيف صـفحات الكتاب ثم قال : « انك تبحثين عن أخ شقيق .. »

فلما سمعت الزهراء قوله لم تتمالك أن صاحت : « نعم أخى شقيقى ، لله درك .. هل هو حى ؟.. أخبرنى حالا .. »

فأعاد سعيد التقليب وقال : « نعم .. حى ! »

فاستغربت الزهراء حكمه السريع ، وشكت فى صدقه ، وقالت : « هل تعرف اسمه ؟ »

قال سعيد : « أى اسم من اسميه تريدين ؟ »

قالت الزهراء : « وهل له اسمان ؟ »

قال سعيد : « نعم .. له اسمان ، اسم تعرفينه ، واسم جديد لا تعرفينه »

قالت الزهراء : « ما هو اسمه الذى أعرفه ؟ »

قال سعيد : « سالم »

فصاحت الزهراء : « نعم سالم .. سالم .. قل لى هل هو حى ؟ قل رعاك الله .. »

قال سعيد : « نعم .. انه حى ولكنه .. »

قالت الزهراء : « ولكن ماذا ؟ »

قال سعيد : « ولكنه تحت خطر القتل .. »

فلما رأت انه أصاب فى ذكر الاسم وانه شقيقها ، صدقت قوله عن الخطر المحدق به ، وأخذت ترتعد وقالت : « وأى خطر.. وأين ؟.. قل لى .. فان أمير المؤمنين ينقذه منه اكراما لى .. »

قال سعيد : « يا حبذا ذلك . ولكن الخطر عليه من أمير المؤمنين نفسه »

— ٥٥ —

كشف الحجاب

فلم تعد الزهراء تستطيع استبقاء الحجاب بينها وبين سعيد ، فنهضت وأطلت من وراء الستار ، وقد أرخت على رأسها خمارا مزركشا ، وعيناها تلمعان من الدهشة . فنهض سعيد عند رؤيتها كأنه وقف احتراما لها فقالت : « الخطر عليه من أمير المؤمنين ؟ » قالت ذلك وحالما وقع نظرها على سعيد تراجعت وحولت بصرها عنه لحظة ، ثم أعادت النظر اليه وتفرست فى وجهه كأنها تعرفه ، أو تعرف رجلا يشبهه ، ولكنها أحست بقشعريرة

أما هو فنظر اليها بهدوء ، وقال بصوت خافت : « لا تضطربى ياحسناء ان أخاك سالما لابأس عليه ، ولو كان الخليفة خصمه »

فلما سمعته يناديها باسمها القديم أجفلت وزادت رعدتها ، ولم تعد تقوى على الوقوف ، وقالت : « لست منجما .. ولكنك نبى ! »

فضحك سعيد وحول وجهه عنها ليهدأ روعها وقال : « لست نبيا ولا منجما »

فغطت الزّهراء وجهها بكفها وقالت : « ماذا أرى .. ويلاه .. هل أنا فى يقظة أو فى منام ؟ »

قال سعيد : « بل أنت فى يقظة ياحسناء .. »

فرفعت كفيها عن عينيها ثم أعادتهما وتحوّلت مسرعة الى ما وراء الحجاب وهى تقول : « نعم فى يقظة .. يا ليتنى كنت فى منام .. »

وكان جوهر واقفا يسمع ما دار بينهما ، وقد أخذته الدهشة ، فلما رأى الزهراء عادت الى وراء الستار تبعها وقال لها : « ما بالك ياسيدتى ؟.. اسأليه أين أخوك الآن .. أتمّى الحديث»

فدفعته بيدها فأظهر انه استلقى على ظهره من شدة الدفعة ، وأخذ يتماجن فقال : « الحق علىّ لأنى خالفت مولاى وأذنت بخروجك الى المعلم »

أما سعيد فانه ظل واقفا لايتكلم ، ثم تقدم وأزاح الستار بيده ، فرأى الزهراء جالسة وقد جعلت رأسها بين كفيها ، وأطرقت كأنها أصيبت بالجمود فقال لها : « ما بالك ياسيدتى .. هل عدلت عن الاستفهام ؟ هل أذهب ؟ »

فأدارت ظهرها له وانزوت وراء الستار وقالت : « نعم اذهب .. اذهب .. لا .. لا تذهب »

فقال سعيد : « أذهب ؟ أم لا أذهب ؟.. أذهب لأنى قلت لك الحق ؟ انى ذاهب » وأرخى الستار من يده وتحوّل .. فوثب

جوهر اليه وأمسك بردائه وقال : « تعال .. الى أين أنت ذاهب ؟ » ..

فأشار سعيد الى جوهر أن يخرج من الغرفة ويتركهما فخرج

فلما أصبح سعيد وحده وقف والستار لايزال مسدلا بينه وبين الزهراء وقال لها : « والآن ياحسناء ماذا تريدين ؟.. نحن الآن فى خلوة .. اخرجى الىّ وانظرى فى وجهى »

فلم تجبه .. فرفع الستار ودخل ، فرآها واقفة وهى مطرقة تنظر فى الأرض ، وقد امتقع لونها .. وتبدلت سحنتها وتولتها الرعدة فقال لها : « انظرى الىّ »

فرفعت يدها كأنها تتقى بصره بكفّها وقالت : « دعنى ، لا أستطيع أن أنظر اليك .. قل من أنت ..؟ »

قال سعيد : « قولى أنت من أنا ؟ كما قلت لك من أنت .. »

فقالت الزهراء : « قل من أنت .. ! »

قال سعيد : « أنا سعيد الوراق .. بعثنى أمير المؤمنين لأعلّمك غناء أهل العراق »

فرفعت بصرها اليه وتفرست فيه وهى تتجلد وقالت : « كلا .. بل أنت لص غادر »

فضحك وقال : « لست لصا .. انما اللص من يخون ولىّ نعمته ويختلى بالغرباء ، يأتى بهم الى قصر الخليفة فى أثواب النساء » ..

فصاحت الزهراء : « ويلك .. انك شيطان بل أنت عفريت من العفاريت » ..

فقال بصوت هادىء : « أنا من أنا .. فالأفضل لك أن ترجعى الى رشدك وتتكلى علىّ اذ ليس لك من يفرج كربك سواى »

فتماسكت ووقفت وهى تفرك عينيها ولا تصدق انها فى يقظة ، وصاحت به وقالت : « قل لى .. قل من أنت حالا ! »

قال سعيد : « أقول أم تكتفين بما قلته ؟ »

قالت الزهراء : « قل .. قل سريعا » وعيناها تبرقان من الدهشة ، وشفتاها ترتجفان من الغضب وقد شخصت فيه

فقال سعيد : « أنا سليمان »

فلما سمعت اسمه صرخت ووقعت مغشيا عليها ، فبادر الى رشها بعطر كان معه حتى أفاقت ، وحين فتحت عينيها ورأته تراجعت وغطت وجهها بيديها وقالت : « انت سليمان !.. انك أصل بلائى .. سوف أريك عاقبة عملك .. ألا تزال تتعقبنى وكنت السبب فى ضياع أخى .. » قالت ذلك ونهضت وهمت بالخروج كأنها تريد أن تستعين عليه بأحد ، فأمسك بيدها وأوقفها وقال : « تمهلى ولا تلقى بيديك الى التهلكة .. اعلمى ان حياتك وحياة أخيك فى يدى »

— ٥٦ —

الوعود

فوقفت وهى تنظر اليه وتتفرس فى سحنته ، وهو يرنو اليها بلطف وسكينة ثم قال : « لا تغضبى ياحسناء .. ولا تنقمى علىّ فانى ارتكبت العظائم فى سبيل حبك .. انى أحبك .. » قال ذلك بنغمة المحب الولهان ..

فلم يزدها ذلك الا غضبا وقالت : « أنا لا أحبك .. يكفى ما سببته لى من البلاء » ..

قال سعيد : « لم أسبب لك بلاء .. ولا ذنب لى عندك سوى انى أحبك ، وقد عرفتك قبل أن يعرفك صاحب هذا القصر »

قالت الزهراء : « وتتجاسر على جارية أمير المؤمنين .. ألا تعلم أن الناصر اذا اطلع على حقيقة أمرك قتلك حالا »

قال سعيد : « لا تجعلى للطيش سبيلا الى عقلك .. تذكرى أخاك وان حياته فى يدى اذا شئت قتلته فى هذه الساعة »

قالت الزهراء : « كذبت .. قد عرفت الآن انك تحتال علىّ وتحملنى على خيانة مولاى ومولاك الناصر .. فلا تطمع فى نيل مرامك . انك ميت لا محالة .. دعنى والا صرخت صرخة جمعت عليك أهل القصر فيسوقونك الى حتفك »

فترك سعيد يدها وقال : « يظهر انك لم تصدقى قولى ، ان أخاك حى ، وانه معرض للقتل .. ولا ينقذه من الموت سوى استرضائى .. لا تتهورى .. اذا كنت تعتقدين انى كاذب وانك قادرة على أذاى فهذا لايفوتك فى أى وقت تريدين ، فلا تتعجلى فتعود العائدة عليك .. ان لأمير المؤمنين ثقة فتى وفى تنجيمى لا تتزعزع »

فقطعت كلامه قائلة : « أنا أخبره انك خائن وأطلعه على حقيقة أمرك »

فقال سعيد : « هل تظنين انه يصدقك ؟ »

قالت الزهراء : « نعم يصدقنى »

قال سعيد : « لا .. ومع ذلك فان الخطر يظل يهدد أخاك لأن الناصر حين يعلم بوجوده يبعث اليه فيطلب رأسه .. فالأحسن أن تتبصرى »

فاقشعر بدنها وخافت على أخيها ، وتجلدت وكظمت وقالت : « ها أنا متبصرة .. فقل ما هو خبر أخى »

فتقدم نحوها ووجه الى عينيها نظرة استرضاء . وقال : « انى أشكو اليك غرامى بك وفنائى فى خدمتك ، وأنت تشتميننى وتهددينى . تأملى الفارق بيننا !.. أما أخوك فقد سألتنى عن اسمه ، وقلت لك ان له اسمين .. ذكرت أحدهما ، ولم تسألينى عن الآخر .. »

قالت الزهراء : « وما هو الاسم الآخر ؟ »

قال سعيد : « اسمه صاحب النقمة »

وكانت تعلم ان ذلك اسم رجل من أشد أعداء الناصر، وأكثرهم سعيا فى خلعه .. وقد قام بتحريض العرب والبربر على مناوأته ، واخراج الدولة من يده . وقد بذل الناصر الأموال وبث الجواسيس للبحث عنه فلم يظفر به .. ولذلك لم تشك فى أن الناصر حين يسمع به يأمر بقتله ، ولو عرف انه أخوها .. وقد يغضب عليها من أجله . لكنها برغم ذلك ، ظلت تظن ان سعيدا يكذب تخويفا لها . فلما ذكر اسم أخيها هذا أظهرت الاستخفاف وقالت : « لايمكن أن يكون هذا الرجل أخى ، انك تخدعنى كى تحقق غرضك .. دع عنك هذا وارجع .. وأنا أعدك اذا رجعت عن غيك وأفدتنى عن حقيقة حال أخى (وتنهدت) انى أعفو عنك وأكتم أمرك »

قال سعيد : « ياسيدتى .. أو ياحبيبتى .. انى لا أكذب .. ان صاحب النقمة هو أخوك سالم نفسه ، واذا شئت أتيتك بالدليل المحسوس » ..

قالت الزهراء : « وما دليلك ؟ »

قال سعيد : « دليلى قريب .. ألا تعرفين خط أخيك ؟ »

قالت الزهراء : « أعرفه » .

فمد يده الى جيبه وأخرج رقا ملفوفا فى منديل .. تناوله وفتحه وقال : « اقرئى .. »

فقرأت سطرا مكتوبا بالدم هذا نصه :

أنا سالم صاحب النقمة ، أعاهد أنصار الحق انى أبذل حياتى فى سبيل قتل عبد الرحمن الذى يسمى الناصر

كتبه سالم
صاحب النقمة

فأخذت تقرأه وتعيد قراءته ، وتتفرس فى الخط ، فاذا هو خط أخيها نفسه ، فرفعت بصرها الى سعيد فحدق هو فيهـا عنوة ، فأحست بتيار كهربائى سرى فى عروقها فأضعف عزيمتها ، فتولاها الخوف على نفسها وعلى أخيها ، فوقفت مبهوتة لا تبدى حراكا ، ولفَّ سعيد الرق فى أثناء ذلك ووضعه فى جيبه وهو يقول : « ما رأيك الآن ياحسناء ؟ »

فشعرت بقوتها تنهار ولم تعد تستطيع الوقوف ، فجلست على البساط وأطرقت وظلت ساكتة ..

فقال : « هل رأيت انى ناصحك ، وانى أتيت لانقاذك وانقاذ أخيك ؟ ألا ترين انى قادر على أن أقتله بكلمة واحدة ؟.. ارجعى عن جفائك وقسوة قلبك وارحمى قلبا كاد يذوب شوقا اليك . ان سليمان الذى رأيته على ظهر تلك السفينة يوم خروجك من صقلية رجل يحبك ويهواك .. وما أنا ربان السفينة ياحسناء ، ولا أنا خادم فيها ، وستعلمين متى أخلصت الحب لى انى أهل لمحبتك ، لقد ركبت الأخطار فى سبيلك .. ولو علمت حقيقة ما فعلته من

أجلك لم ترفضى طلبى ، وسوف تعلمين .. ولا يغرنك ما ترينه من القصور والزخارف ، انها لا تلبث أن تذهب ولا يبقى غير الحب .. ها أنا أعرض عليك هذه النعمة فلا ترفضيها »

— ٥٧ —

الرجوع الى الصواب

فوقعت فى حيرة ولم تعد تعلم بماذا تجيب ، وترجح لديها أن أخاها فى قبضـة سعيد ، ولا نجاة الا بمسايرته .. ولكنها كانت تكرهه وتود قتله ، ولاسبيل لها الى ذلك.. فعمدت الى الملاطفة ، فقالت : « والآن ما العمل .. هل أخى قريب من هذه الديار ؟ »

قال سعيد : « بل هو فى هذه الديار فى مخبأ لا يعرفه أحد سواى .. »

قالت الزهراء : « وما السبيل اليه ؟.. وكيف العمل ؟ »

قال سعيد : « سأخبرك عن السبيل فى فرصـة أخرى ، انما أرجو منك الآن أن تثقى بى .. ولا أظنك تفعلين ، فان لم تفعلى فدمك ودم أخيك على رأسك . انى نصحتك وحققت كل ماطلبت منى .. فما رأيك ؟ »

فأطرقت وأعملت فكرها فيما وقعت فيه .. فلم تجد لها سبيلا

غير الملاطفة ريثما تحتال فى النجاة ، فعادت الى رشدها وتعقلها ورباطة جأشها ، لكنها أحست بتغيير طرأ على احساسها بعد تلك النظرة التى اخترقت أحشاءها وهزت أعصابها وقضت على ارادتها ، وخيل لها من تلك اللحظة انها طوع ارادته ولم تعد تملك رأيها فقالت : « نصبر كما قلت .. وأخشى أن تكون خدعتنى »

قال سعيد : « دعى عنك الشكوك »

فسكتت وهى تفكر ، ثم قالت : « وكيف ألتقى بأخى ؟ هل تستدعيه الى هنا ؟ »

قال سعيد : « كيف يستطيع دخول هذا القصر ؟.. الأفضل أن تذهبى أنت اليه ، ومتى اجتمعت به تقنعيه بالرجوع عن الثورة ، ونحتال فى استرضاء الخليفة عليه .. وأظننا ننجح فى ذلك ، ثم نقيم هنا معا ، وأنت فى منزلتك ولايعلم أحد بما جرى.. والآن لاينبغى لنا أن نفترق قبل أن نحسن التفاهم .. فهل أنت واثقة بما أقول ؟ »

فقالت : « نعم »

فقال سعيد : « سنتفق على وقت نخرج فيه خلسة الى مقر أخيك.. لا أستطيع أن أتصور فرحك به ساعة اللقاء .. وسيخبرك هو كيف انه مدين لى بحياته ، ولولاى لم يبق حيا »

فكان لهذا التعبير وقع حسن على قلبها ، فابتسمت وقالت : « انت كنت السبب فى حفظ حياته ؟ .. شكرا لك » ..

قال سعيد : « لا فضل لى فى شىء من ذلك لأنى فعلت ما يدفعنى اليه شعورى ، فان حبك ياحسناء قد استولى على كل جارحة من جوارحى .. ألا أفعل ما يرضيك ، وهل يكون لى فضل اذا فعلته ؟ والآن دعينى أعلّمك لحنا تغنينه للناصر اذا سألك عما تعلمته »

قالت الزهراء : « حسنا » ونادت جوهرا فأتى وعاد الى خدمتها ، فعلمها سعيد لحنا .. ثم ودعها وقد اتفق على موعد المجىء فى الغد لتعليمها .. ومضى وقد مالت الشمس الى المغيب ، وسار توا الى غرفته . وكان الخليفة قد نزل الى غرفته فى ذلك النهار لظروف سياسية اقتضت مقابلة بعض السفراء من ملوك النصارى المجاورين ، وكان يفضّل أن يقابلهم فى قصر قرطبة

أما سعيد فمكث فى غرفته .. فجىء اليه بالعشاء فتناوله ، ولم يخرج من تلك الغرفة لأنه أحب الخلوة ليفكر فى اتمام الحيلة للفرار بالزهراء من تلك القصور

— ٥٨ —

الواقع

ذهب سعيد الى فراشه ، وقد أنهكه التعب لشدة ما أثر ذلك الحديث فى نفسه .. وقد كان يترقب هذه المقابلة منذ أعوام

عديدة ، وقد سعى اليها وبذل كل رخيص وغال فى سبيل الوصول اليها .. وهو يعلم الخطر المحدق به ، ولكنه جن بحب الزهراء ، ولم يعد يحسب للحياة حسابا . ورغم ما رأيت من تعقله ودهائه فان حبه الزهراء غلب على عقله وأخذ بمجامع قلبه .. وليس للعقل سلطان على قلوب المحبين . فقد تجد الرجل العاقل يقيس الأمور ويحلل أسبابها ونتائجها ، وقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب .. فاذا استولى الحب على قلبه ارتكب من الهفوات ما يتنزه عنه الجهلاء ، وهو يرى انه عاجز عن تجنبه . واذا فكر فيما يأتيه من الخفة والطيش فى سبيل الحب خجل من نفسه ، ولا يرى له مندوحة للخلاص من تلك الشراك

***

كان سعيد قد أحب الزهراء وافتتن بها منذ رآها فى صقلية ، وكان قد ذهب الى تلك الجزيرة فى مهمة سياسية من قبل المهدى صاحب افريقية ، فغلبت على عقله وأراد أن يستأثر بها لنفسه ، وركب السفينة معها على أن يحتال فى اجتذاب قلبها ، ثم يبحث عن السبيل للفرار بها .. أما هى فلما وقع نظرها عليه ، أحست بنفور منه وصار كلما اقترب منها ابتعدت عنه .. وهى تزداد نفورا ، حتى فضلت أن يأخذها اللصوص على أن تبقى بقرب ذلك الرجل ..

أما هو فأخذ أخاها معه ورباه على الغرض الذى أجمع عليه العبيديون فى افريقية ، وهو كره آل مروان فى الأندلس ، والسعى

فى الاستيلاء على مملكتهم . وكان سعيد من كبراء هذه الشيعة وله نفوذ كبير عند المهدى العبيدى ومن جاء بعده على عرش الخلافة الفاطمية فى القيروان . وقد عهدوا اليه بأغراضهم ، وكانوا قد بثوا هذه الروح فى كثيرين من كبراء القواد فى الأندلس نفسها .. ومنهم الجمعية التى كانت تجتمع فى قرطبة سرا كما رأيت

***

جاء سعيد الى قرطبة فى مهمة سياسية منذ عدة أعوام .. وكان قد علم بالبحث والتدقيق ان حسناء التى عرفها فى صقلية صارت الى الناصر فى قرطبة وسماها الزهراء .. عرف ذلك بدهائه واهتمامه ، وكتمه عن أخيها .. وجعل همه الوصول اليها . وأقام حولها الجواسيس ، وكاتبها بأساليب مختلفة يستعطفها وهى تستخف به وترذله ، وهو يزداد شغفا بها حتى أصبح يسعى الى الوصول اليها ولو نكاية فيها واستردادا لكرامته ودفعا لاهانته . وكان يعلم تعلقها بأخيها فأتاها بهذه الحيلة

***

قضى سعيد بضع ساعات بغرفته فى الظلام .. وهو غارق فى بحار الهواجس ، وقد فر النوم منه وتولاه الأرق لعظم ما جاش فى خاطره فى ذلك اليوم

— ٥٩ —

موعد آخر

وبينما هو جالس على فراشه فى الظلام ، وبصره متجه الى نور يظهر له من نافذة تطل على داخل القصر ، اذ وقع نظره على شبح يتمشى هناك بخفة كأنه يحاذر أن يسمع أحد وقع خطاه فتفرس فيه ، فاذا هو ساهر وعليه ملابس الوصفاء كما رآه فى المرة الماضية . فنهض واقتفى أثره ، فرآه يلتمس غرفة الزهراء . فما زال فى أثره حتى رآه دخل الغرفة وقد وقفت الزهراء لاستقباله ، وهى لا تزال بثوبها العادى كأنها كانت على موعد معه .. فثارت الغيرة فى قلب سعيد وجعل يغالب نفسه فلم يستطع صبرا على ما شاهده فمشى حتى دخل الغرفة ولم يشعر به أحد منهما . فرأى ساهرا جاثيا أمام الزهراء وهو يقول لها بصوت المحب الولهان : « مرينى ياسيدتى فأنا رهين أمرك ، وليس أشهى على قلبى من أن أنفذ ارادتك ، ويكفينى شرفا وسعادة أن تسمع أذنى أوامرك »

فأجابته الزهراء : « انهض يا ساهر .. بارك الله فيك .. انى مسرورة من مروءتك وصدق مودتك .. قل لسيدك انى لولا حبى له لم أطلب مقابلته ، ولا بأس عليه من أهل هذا القصر .. فليأت على عجل .. » ولما وصلت الى هنا لمحت سعيدا داخلا فبغتت

وظهرت البغتة فى عينيها .. ولاحظ ساهر تغيرها فالتفت حوله ، فلما رأى سعيدا تنحى ثم انصرف

أما سعيد فظل ماشيا وهو يتجلد ويتماسك حتى صار بين يدى الزهراء وهى تنظر اليه والغضب ظاهر فى عينيها ، فقالت له : « ما الذى جاء بك ياسيدى ؟ »

قال وهو يتلطف فى التعبير : « جئت لأتمتع برؤيتك قبل الذهاب الى الفراش .. وقد تمتعت بما يذهب عنى النوم» وتنحنح

فقالت باستخفاف : « ما كان أغناك عن هذا المجىء .. كأنك تتلصص علىّ وتراقب حركاتى ومن يدخل أو يخرج من عندى .. ان أمير المؤمنين لم يفعل ذلك »

فقطع سعيد كلامها وقال : « لأن أمير المؤمنين لايحبك مثلما أحبك .. » قال ذلك وتنهد

فقالت وهى تبالغ فى الاستخفاف : « صدقت .. ان الناصر لا يحبنى أبدا .. ولكن أنت وحدك تحبنى .. ما كان أغنانى عن هذه المحبة ، بل ما أحوجنى الى بغضك .. » قالت ذلك وصرّت على أسنانها ..

فلما رأى جفاءها تقدم نحوها وهو يتكلف الاسترضاء وقال : « سامحك الله ياحسناء ، كلما شكوت اليك غرامى وذلى زدت نفورا وجفاء .. »

فلما دعاها باسمها الأصلى تذكرت أخاها فخافت عليه ، فعادت

الى التجلدّ والملاطفة فقالت : « لقــد أسأت التّى بسجيئك على هذه الصورة حتى أغضبتنى وحملتنى على ما قلت .. ونحن كما تعلم قد تواعدنا واتفقنا .. »

قال : « انما حملنى على المجىء حبى لك وغيرتى عليك .. »
فمدت يدها نحوه كأنها تستوقفه وقالت : « لا فائدة من الغيرة وأنا فى هذا القصر . وعما قليل أكون لك .. لا تسألنى عن شىء »

فلما سمع قولها استخفه الفرح وصاح : « تكونين لى ؟ قبلت ذلك .. وعفا الله عما سلف »

قال ذلك وهو ينظر فى عينيها وقد نسى الغيرة والشك ، وتناول يدها كأنه يهم بتقبيلها فجذبتها منه .. ونظرت اليه نظرة عتاب وتوبيخ ، وقالت : « امض الآن ولا تجعل للنــاس سبيلا الى الظنون .. »

فتحوَّل وخرج وهو يحسب انه قد تحققت له أهم أسباب السعادة بما سمعه من وعودها .. فدخل غرفته واســتلقى على فراشه ، فعادت اليه هواجسه فأخذ يفكر فى حاله ، فاستغرب انقياده الأعمى لداعى قلبه ونسيانه المهمة الأصلية التى قام من أجلها ، وقد قامت معه افريقية كلها ، وعوَّل خليفتها عليه ووضع ثقته فيه ، حتى انه لو كتب اليه يطلب تجريد جيش لفعل .. فكيف يشتغل عنه بحب جارية لا تحبه ؟ فأحس بصغر نفســه وضعف ارادته كأنه عبد لعواطفه ، فأخذ يوبخ نفسه على ذلك الضعف ..

ولكنه كان كلما همَّ بالرجوع الى رشده والعدول عن الغرام الى طلب العلى بحد الحسام ، تمثل الزهراء وتصور انها طوع ارادته .. فتنحل عزيمته ويفتر حماسه

— ٦٠ —

طارق آخر

وبينما سعيد فى تلك الهواجس وقد استبد به الأرق ، ولم يبق فى ذلك المكان ساهر سواه .. وقد ساد السكون على القصر ، ولم يعد يسمع الا خرير الماء فى برك الحديقــة ، وفى البركة الداخلية فى بيت المنام ، وكان يحمل نفسه على النوم ويحاول نسيان تلك الأفكار عبثا .. وبينما هو فى ذلك الهدوء والظـلام سائد اذ سمع حركة فى غرفته ، فجلس فرأى شبحا داخلا عليه عرف حالا انه عابدة . وما زالت تمشى الهوينى حتى رأته قــد جلس على فراشه ، فأسرعت اليه وجثت بين يديه وقالت : « بالله يا سعيد .. الى متى تضحك منى ؟ »

فأظهر الاستغراب وقال: « أضحك منك ؟!.. ما هذا الكلام ؟ »
قالت وصوتها مختنق : « نعم تضحك منى وتهزأ بحبى .. »
قال سعيد : « دعى عنك الأوهام .. »

قالت عابدة : « يكفينى ما قاسيته من الصبر على وعودك .. قل لى انى لا أحبك ودعنى أمضى لسبيلى .. »

قال سعيد : « كيف أقول لك ذلك ، وأنت تعلمين انى أحبك ولكننا لم نفرغ من مهمتنا بعد .. وأنت على بينة من كل شىء »

قالت عابدة : « نعم أنا على بينة من كل‌شىء .. ولذلك لم أعد أستطيع صبرا »

فأدرك انها تشير الى اطلاعها على شىء يكتمه عنها ، فقال : « ماذا تعنين ؟ »

قالت عابدة : « اعنى انك شغلت عنى ونسيت عابدة المسكينة ! » وأجهشت بالبكاء .. فأثر بكاؤها فى قلبه وأحس انه أساء اليها ، ولكنه ما لبث أن تصور الزهراء حتى نسى اساءته ، وجعل همّه تدبير الوصول اليها .. فقال : « دعى عنك هذه الأوهام . من يشغلنى عنك ؟ واذا رأيت منى تقربا الى أحد سواك ، فما ذلك الا سعيا فى الوصول الى الغرض المطلوب الذى تعلمينه » ..

فتنهدت تنهدا عميقا ورددت قوله : « الغرض المطلوب !.. آه من ذلك الغرض .. ما كان أغنانا عنه .. ولا أظننا نصل اليه مع ما يحدق بنا من العوائق »

فأظهر انه استاء مما صرّحت به من الشك فى سبيل ذلك الغرض ، وقال : « لا تضعفى أملى فى تحقيق الهدف المنشود..»

وخفت صوته وقال : « سيأتى يوم نكون فيه ملوك هذه الجزيرة ، وتكونين أنت ملكة عظيمة الشأن » ..

قالت عابدة : « دعنى من ذلك ، دعنى .. ان السعادة ليست فى السيادة ولا فى الثروة .. ان السعادة فى الحب .. » قالت ذلك وصوتها يتلجلج خجلا وبلعت ريقها ثم قالت : « لو كنت أعلم انك تحبنى مثل حبى لك لكنت أسعد امرأة على وجه الأرض .. آه من يقول لى الحق ؟ »

فقطع كلامها ، وقال : « أنا أقول لك .. صدقينى .. وسوف تحققين صدق قولى »

فوقع كلامه على قلبها بردا وسلاما ، وأحست بأنها فى نعيم وقالت : « صحيح ؟ صحيح أنت تحبنى ؟ »

فمد يده الى يدها وقبض على أناملها ، فأحست عابدة بتيار كهربائى انتفضت له أعصابها وغلبت على أمرها وقالت : « صحيح انك تحبنى ؟ ! .. اذن فأنا سعيدة .. »

قال سعيد : « بقى أن أسألك أنا : هل تحبيننى ؟ »

ولم يتم سؤاله حتى تناثر الدمع من عينيها وقالت والبكاء يخنقها : « أتسألنى اذا كنت أحبك ؟.. أمثلى يسأل هذا السؤال . لم تبق فتًى جارحة لم تفتتن بك .. ألا يكفيك من الأدلة ما أنا فيه ؟.. ما الذى حملنى على التعرض لهذه الأخطار ؟»

فقال سعيد : « لم تتعرضى لخطر بعد .. ان وجودك فى هذا

القصر من أسباب السعادة ويتمناه كل انسان .. ولكننا سنواجه الخطر قريبا ، وعند ذلك يظهر المحب الصادق .. ولاشك عندى انك ستبرهنين على صدق محبتك لى وللامام العبيدى صاحب افريقية الذى نحن فى خدمة مصلحته »

قالت عابدة : « آه ياسعيد ، ان كل شيء سهل فى سبيل حبك.. دعنى أغتنم هذه الظلمة وأصرح لك بما يكنه فؤادى من الشغف بك.. لو كنا فى النهار أو كانت هذه الغرفة مضيئة لأحجمت ولكن الظلام يستر .. انى أحبك الى حد الجنون ولا أراك تحبنى وتهتم بأمرى ، مع انى أتفانى فى سبيل مرضاتك .. أفعلُ ذلك من كل قلبى ويلذ لى العذاب اذا كان فيه سرورك .. فهل عندك مثل الذى عندى ؟.. أو مثل نصفه ، أو ربعه يا ترى ؟ »

فضغط على يدها ثانية وقال : « كفى يا عابدة شكوكا .. وقد دنا الوقت ، ولا نبرح أن نتفرغ لما نريد .. لم يبق من المهمة التى جئنا من أجلها الا خطوة واحدة .. وهى عليك »

قالت عابدة : « مر بما تشاء .. »

قال سعيد : « ألا يزال ذلك الحُق معك ؟ »

فضربت كفها على صدرها وقالت : « هو هنا فى مكان حريز»

فقال سعيد : « الىّ به .. »

فدفعته اليه .. فأخرج من جيبه ورقة قطعها نصفين وصب ما فى ذلك الحق فيهما ، وهو مسحوق أبيض لامع .. ولفّ كل واحدة

على حدة ودفعهما اليها وقال : « احتفظى بهاتين الورقتين جيدا لوقت الحاجة »

قالت عابدة : « وماذا فيهما ؟.. هل من بأس علىّ اذا تناولت منهما شيئا ؟.. »

فابتدرها قائلا : « احذرى أن تفعلى .. » وضحك يوهمها انه يمزح ..

فضحكت وقالت : « لم أكن أجهل ذلك .. ولكننى أرجو أن لا أحتاج الى تناول شيء منهما !.. »

فتجاهل مرادها وقال : « احتفظى بهما حتى آتيك غدا أو بعد غد .. »

فأحست انها ينبغى أن تنصرف ، فوقفت وودعته وهى تتفرس فى وجهه والظلام يحجب علامات المكر والغدر .. ولو لم يحجبها فان عابدة لم تكن ترى فى سعيد غير الكمال لأنه استهواها جاذبيته ..

— ٦١ —

سعيد وهواجسه

خرجت عابدة من عند سعيد ، وعادت اليه هواجسه بأشد مما كانت عليه ، فتصور كيف انه يخادع هذه الفتاة المخلصة ويغريها

على المخاطرة بنفسها ، بمواعيد كاذبة .. ويراها شديدة الثقة به وهو ينوى خيانتها .. فرجع الى تعقله فرأى انه يفعل أفعالا لا يرتكب مثلها الا المجانين .. انه سيرتكب جريمة قتـل تحت أشد الأخطار . وعاد الى التفكير فى مهمته السياسية الأصلية ، وكيف انه كاد يفوز بها لو لم يلهه عنها حب الزهراء .. ولما تذكرها خفق قلبه وأعمل فكره فى أمرها ، وقال : « قد يكون سعيد من قلب الزهراء مثل عابدة من قلب سعيد . فأنا أداجى عابدة وأعدها .. فهل الزهراء تداجينى ؟.. ولكن سعيدا غير عابدة .. ان من يرتكب ما ارتكبته ويعمل ما عملته لا يشق عليه أن ينتقم من تلك الجارية .. انى أريها العذاب ألوانا .. لا .. لا .. لا أفعل ذلك مع الزهراء انها حبيبتى ، لماذا أنا مستسلم لها .. أتركها وشـأنها والنساء كثيرات ، وهذه عابدة المسكينة تتمنى رضاى .. ان حب الزهراء سبب بلائى ، وسيكون سببا فى ضياع أمة برمتها .. ألم يضع الامام العبيدى ثقته فـىّ ، وأهل افريقية ينتظرون نتيجة سعيى ؟ » وحين فكر فى ذلك هـبّ من فراشه كالمجنون ، ووضع كفيه على عينيه كأنه يستحث قريحته لاعمال الفكر فى حقيقة حاله .. ووقف لحظة ثم عاد فجلس على الفراش ، وقد تمثلت له الزهراء فى أشهى ما يتمناه فقال : « ان نظرة الى حسناء تساوى العالم برمته ، وما لذة الانسان من المناصب والمراتب اذا لم يكن له حبيب يحبه .. الزهراء تساوى كل شىء ، ولا بد من المخاطرة

فى سبيل تحقيق الأمانى .. وما فاز باللذات غير الجسور . أما عابدة فانى أشغلها بسواى وأرضيها .. »

قضى بقية ذلك الليل فى مثل هذه الهواجس ولم ينم الا قليلا ، واستيقظ فى الصباح على نقر الباب ففتح عينيه ، فرأى ياسرا داخلا فجلس له وحياه ورحب به . فقال ياسر : « أظننى أقلقتك من نومك ؟ »

قال سعيد : « كلا .. بل أنا فى شوق الى رؤيتك »

قال ياسر : « وأنا أيضا .. وقد استبطأتك وكنت أحسبك تبعث الىّ مبكرا لتقص على ما جرى أمس .. »

فعلم انه يعنى ما جرى بينه وبين الزهراء ؛ لأن ياسرا يكرهها ويريد أن يوقعها فى شر يحقّرها فى عينى الناصر انتقاما منها لمـا يتوهمه من عقوقها ونكرانها للجميل .. وهو يعتقد انه كان السبب فى ادخالها بلاط الناصر ، فلم تقدر له هذا الجميل . وظهر له من حديثه مع سعيد مرة انه يوافقه على ذلك ، وكان يظن انه يستطيع بالتنجيم معرفة سبب اجتماعها بعبدالله ويفشيه للناصر فيغضب عليها وربما طردها .. وأدرك سعيد كل ما كان يجول فى خاطر ياسر فقال : « ان أمر هـذه الجارية حيرنى ولم أستطع كشف سرّها تماما ، مع اننى قضيت ليلتى الماضية ساهرا ولم أنم الا قليلا ، وأنا أفكر فى أمرها .. ولما رأيتك داخلا ظننتـك أتيت لتدعونى الى أمير المؤمنين لأنه أكثر الناس تطلعا الى ذلك »

قال ياسر : « انه لم يعد من قرطبة »

قال سعيد : « هل قضى ليلته هناك ؟ ولماذا ؟ »

قال ياسر : « لأنه ذهب لمقابلة بعض وفود ملوك فرنسا ، وايطاليا ، وهو يفضّل أن يستقبلهم فى قصر قرطبة . فلما أبطأ فى الرجوع بات هناك ، وقد أوصانى قبل ذهابه أن أفتح عينى وأراقب كل حركة »

فضحك سعيد وقال : « يظهر انك لم تكن ساهرا »

ففهم مراده ، فقال : « كنت ساهرا .. وقد رأيت ساهرا يدخل القصر بملابس بعض الوصفاء ، فسهلت له الدخول على أن تتورط هى فتقع وقعة لا قيام لها منها »

فأطرق سعيد ، وفكر فى نتيجة وقوع الزهراء فى الذنب ، فرأى ان الناصر يغضب عليها ، فيتوسط هو فى الصلح فيكون له فضل عليها يزيد رضاءها عليه ، ويحب من الجهة الأخرى — اذا كان بينها وبين عبد الله تواد — أن يكون قصاصها على يد الناصر .
فقال سعيد : « ومتى يعود الخليفة من قرطبة ؟ »

قال ياسر : « لا أدرى .. ولعله يعود فى هذا المساء ، وقد يبيت هناك الليلة أيضا ويأتى غدا ، وعلى كل حال فأنا أنتظر رجوعه بفارغ الصبر »

فقال سعيد : « ترى ماذا يفعل الناصر اذا تحقق مما بين الزهراء وبين ابنه من هوى ؟ »

قال ياسر : « أظن انه يطردها .. اذا لم يقتلها »

فسكت وأظهر انه يهم بالنهوض .. فنهض ياسر وخرج وهو يقول : « وفق الله مسعانا »

فلما خلا سعيد بنفسه أعمل فكره .. فرأى ان سعى ياسر ضد الزهراء يفيده طالما كان حائزا على ثقة الخليفة يديره كيف يشاء ، فقرر أن يترقب الفرص

أما ياسر فجعل همه فى ذلك اليوم مراقبة الأبواب ، لعله يرى عبد الله داخلا ليشى به الى الخليفة وهو مجتمع بالزهراء . ولكنه كان يخشى أن يأتى عبد الله ويعود قبل رجوع أبيه من قرطبة ، فبعث أحد الخصيان يسأل فى قرطبة عن موعد رجوع الخليفة متى يكون ، فعلم انه سيعود بعد الغروب .. فأعطى الأوامر ليكون القصر فى تأهب لاستقبال صاحبه ، وعاد الى مراقبة الأبواب

— ٦٢ —

حديث ذو شجون

غربت الشمس ولم يأت أحد ، وبعد الغروب رأى ياسر ساهرا برفقة رجل فى ملابس الخصيان .. دخلا من باب القصر ولم يعترضهما أحد من الحراس كأنهم كانوا على موعد . فعلم ياسر أن أحدهما عبد الله ، فتنحّى ريثما مرّا .. وراقب جهة مسيرهما

فرآهما سائرين نحو قصر المؤنس الى الحديقة التى اجتمعا فيها فى المرة الماضية . فسار من جهة أخرى بحيث يتحقق ان الزهراء نزلت لمقابلة عبد الله .. فلما تحقق من ذلك ، أصبح همّه أن يأتى الناصر قبل أن يفترقا ليرى الاجتماع بنفسه ، فيكون ذلك أدعى الى غضبه وسرعة انتقامه

فرجع الى الباب الخارجى الذى يدخل منه الناصر اذا عاد من قرطبة وأخذ يتشوف عن بعد ، وقد دنا العشاء وأظلمت الدنيا ، لكن قصور الزهراء كانت تنار ليلا بالمصابيح من كل أطرافها . ورآهم ينيرون الطريق بينها وبين قرطبة استقبالا للخليفة ، ولم تمض هنيهة حتى رأى الخصيان والفرسان وعليهم الجواشن مسرعين يليهم سائر الموكب وفى وسطه الخليفة ، والى جانبه تمّام رئيس الخصيان زميل ياسر . ولم يكن بينهما تحاب ، شأن المتنافسين فى المناصب فى كل زمان .. ولكن الناصر كان يقدم تمّاما فى أكثر الأحيان ويقلل من نفوذ ياسر . وهذا يعتقد أن الزهراء هى التى أوحت الى الناصر بأن يقلل من شأنه .. ولذلك زاد رغبة فى الانتقام منها . ورأى ان هذه الفرصة أثمن الفرص ليظهر اخلاصه للناصر وتفانيه فى خدمته ، ليغيِّر ما فى نفسه ويرتفع فى نظره على تمّام

فلما رأى الناصر فى موكبه وتمّاما الى جانبه ، لم يعد يصبر عن التصدى لمخاطبته قبل الوصول الى القصر ، مخافة أن يذهب الى

قصر آخر غير المؤنس ، ثم يشق عليه استقدامه فى تلك الساعة

فلما وقع نظر الناصر على ياسر توسم فى وجهه خبرا ، فانفرد عن الموكب نحوه ، فمشى ياسر فى ركابه حتى دنا من قصر المؤنس، وترجّل الخليفة وأشار الى الناس بالانصراف ، وظل ماشيا مع ياسر فقال له : « ما وراءك يا ياسر ؟ »

قال ياسر : «ما ورائى الا الخير، وكنت أود أن لايعلم مولاى الا بما يسُره لو لم أعلم انه راغب فى معرفة سرّ ذلك الاجتماع »

ففطن الناصر الى انه يعنى اجتماع الزهراء بعبد الله ، فقال : « هل جاء ولدنا عبد الله الى هنا ؟ »

قال ياسر : « نعم ياسيدى .. ولو انه جاء كما يجىء سائر اخوته وأهله لم يكن بأس من مجيئه ، ولكنه أتى متنكرا »

قال الناصر : « وكيف يأذن الحراس بدخوله ؟ »

قال ياسر : « يأذنون له بأمر الزهراء ، فانها توصيهم بذلك عن طريق أحد خدمها »

فغضب الناصر وقال : « وأين هو الآن ؟ »

قال ياسر : « هو فى الحديقة المعهودة وهى معه »

فأطرق الناصر حينا ثم ضرب الأرض برجله وقال : « كأن عبد الله ينتقم منى لأنى حبست عابدة عنه ؟.. الى هذا الحد بلغت جسارته أن يتعدى على جاريتى الزهراء نفسها ؟ »

فسرّ ياسر من غضب الناصر ، وأحب أن يزيده من الغضب

عليها وحدها فقال : « لا أظنه يطلب انتقــاما ولكنها خدعته ، والنساء لا يخفى على أمير المؤمنين حالهن »

فمد الخليفة يده الى جيبه وأخرج ورقة وقال : « وهذا كتابه جاءنى بالأمس فى قرطبة ، ولم يصبر علىّ حتى أعود الى هــذا القصر فيخاطبنى »

فقال ياسر : « هل يطلب عابدة ؟ »

قال : « بل هو يهددنى اذا أنا لم أعدها اليه ، ولم أفهم معنى تهديده .. لقد فهمت الآن انه يريد أن ينتقم منى بأخذ الزهراء .. ولكن كيف توافقه هى على ذلك ؟ »

فقال ياسر : « ان النساء .. »

فقطع الناصر كلامه وقال : « أحب أن أراهما وأسمع حديثهما ولى بعد ذلك رأى فيهما » قال ذلك والغضب باد على أساريره

ففرح ياسر لهذا التهديد وأسرع بين يدى الخليفة ، وبعث الأوامر الى خدم القصر أن يخلوا هذا الجناح لأن أمير المؤمنين سيمر فيه . ولم تمض بضع دقائق حتى لم يبق هناك أحد ، فمشى ياسر بين يدى الناصر حتى وصلا الى غرفة لها شرفة تطل على الحديقة ، فوجداها مقفلة .. فقال ياسر : « لقد أغلقتنها حتى لا يطل أحد منها عليهما » . وأخرج من جيبه مفتاحا فتحها به بخفة بحيث لا ينتبه أحد لفتحها ، ودخل وأعد للناصر مقعدا بجانب الشرفة يطل منه على الحديقة

فرأى الناصر الزهراء جالسة على مقعد من حجر ، وقد كشفت عن وجهها كأنها مع بعض أهلها ، وعبد الله جالس أمامها وقد رفع اللثام عن وجهه فبــان على نور المصباح جليا ، ولم يبق عند الخليفة شك فى انه ابنه وانها الزهراء جاريته ، فاضطرب وثارت غيرته ، لكنه صمت كأنه أصيب بالجمود . أما ياسر فكاد قلبه يطير من الفرح لنجاح مهمته

وكان أول شىء سمعاه قول عبد الله : « أنت تعلمين يا زهراء منزلتك عندى قبل الآن »

فأجابته : « نعم أعلم .. ولذلك فانى بعثت اليك لأخاطبك بهذا الشأن ، ولولا حبى لك لم أفعل »

قال عبد الله : « ان رضاك عزيز علىّ ، ولكن طفح الكيل ولم أعد أستطيع صبرا .. »

فقالت الزهراء : « مهما يكن من طفح ذلك الكيل لا أرى ما يوجب هذه النقمة »

فقطع عبد الله كلامها قائلا : « كيف لا أنتقم وقد عاملونى معاملة العبد المملوك .. لم يكفِ انهم سلبونى ولاية العهد حتى أصبحوا يسلبوننى أســباب راحتى .. هــذه جارية أتتنى واستلطفتها وطلبها أخى منى فاعتذرت له ، فشكانى الى أبى فبعث يطلبها ليراها فأرسلتها .. فحبسها عنده لنفسه »

قالت : « أهذا يوجب كل هذه النقمة حتى تنصر الغرباء على

أبيــك ؟.. أليس هو ولى نعمتنــا ؟.. أليس هو أمير المؤمنين وأرواحنا حلال فى قبضة يده ؟.. يجب أن تعلم انى أحبك لأنى حين علمت بتغيير قلبك على أبيك بعثت اليك أنصح لك ، ولولا حبى وغيرتى على سيدى الناصر ولى نعمتى لم يكن أسهل علىَّ من أن أرفع أمرك اليه ، وهو لا يعجز عن القصاص » ..

قال عبد الله : « انه لم يتصرف معى كما يتصرف مع ســائر أولاده ، وقد قال لى ابن عبد البر الفقيه ، وهو أعلم فقهائنا ، ان من كان مثل أخى الحكم لا يليق للخلافة ، لاشتغاله عن أمور الدين بالدنيا »

فقالت الزهراء : «كأنك تطمع فى أن تكون ولاية العهد لك ؟»

قال عبدالله : « وما المانع ؟.. ألم يحدث ذلك فى الاسلام ؟.. ان الخليفة غير مقيد بمبايعة أكبر أولاده ، بل هو يجب أن يلاحظ أخلاقهم وقدرتهم »

فقطعت كلامه قائلة : « ليس فى ولى العهد ما يمنع مبايعته ... ثم لم أكن أنتظر منك أن تخالف أباك فى شيء ، والا تكون قد أيقظت الفتنة .. فأنا قد تحملت تهمة الريبة من سيدى الناصر ، لأنى خاطبتك المرة الماضية على انفراد ؛ وقد هددنى فلم أتكلم بشيء خوفا عليك .. فاصغ الى قولى وارجع الى رشدك ، فما أنت أولى من أخيك بولاية العهد ولا كنت أهلا لها .. هذا الى أن طاعة مولانا الناصر واجبة ، وهو الذى اختار أخاك ، أما اذا

كنت تنوى الخروج عليه فذلك أمر آخر .. وأنت أعجز من أن تستطيعه »

وكان الناصر وهو جالس يسمع ذلك الحديث ترتعد فرائصه ، وقد أخذته الدهشة من عظم الاستغراب ، وكان يسترق اللحظ مرة بعد أخرى الى ياسر ، فيرى الفشل باديا على محياه وكأنه سقط فى يده ، ومع ذلك فان اشــتغال ذهنيهمــا بسماع تتمة الحديث ألهاهما عن كل شيء

أما عبد الله فلما سمع استخفاف الزهراء به هزَّ رأسه وقال : « أتظنين انى وحدى ناقم على والدى ؟ انى آخر الناقمين لأنه أساء الى كل الأحزاب .. استبد بالسلطة واستبدل رجال الدولة من العرب والبربر بالخصيان من الصقالبة ، فلذلك نقم عليه الناس . ولو قلت كلمة لالتف حولى ألوف من أهل الحرب فيهم كثيرون مثل صاحب النقمة »

فلم تتمالك الزهراء عند سماع ذلك الاسم عن الوقوف ، ثم شغلت نفسها عنه وقالت : « لله أنت من أمير مغرور .. اعلم انى نصحتك وأعيد النصح ثانية ، فاذا لم تقبل النصح فانى سأتحدث بأمرك الى أبيــك لأنى أضن بهذه الدولة أن تذهب فريســة الغرور ، وقد بناها أبوك على هام الرجال فأحيا بها دولة المسلمين وعزز الاسلام فلا تهدمها بطيشك . وأشير عليك قبل أن تقدم على هذا العمل أن تستشير العقلاء .. »

فقاطعها عبدالله قائلا : « لقد استشرت الفقيه ابن عبد البر

وهو أعلم الفقهاء ، وان كان والدى قد نبذه وفضّل عليه سواه »

قالت الزهراء : « أحسب أن هذا الفقيه هو الذى أغراك على أبيك انتقاما لنفسه من الفشل الذى أصابه يوم ذلك الاحتفال .. اذ امتنع عليه الكلام »

فضحك عبد الله وهو ينهض وقال : « أنا أعقل من أن أنقاد لسواى .. وسترين »

قالت الزهراء : « لا .. بل أرجو أن ترجع الى رشدك وتعدنى انك تائب فى هذه الساعة ، والا فانك غير خارج من هذا المكان قط » ..

قال عبد الله : « تهددينني ؟ »

قالت الزهراء : « لا تستخف بى .. فانى أضحى بحياتى فى سبيل نصرة مولاى ومولاك .. »

فهزّ عبد الله رأسه استخفافا ومشى ، فصاحت الزهراء : « ساهر .. ! » ..

فجاء ساهر بأسرع من لمح البصر ، فأشارت اليه أن يقبض على الأمير عبد الله ، فهجم عليه وقد أعد وثاقا شد به يديه ، وعبد الله ينظر اليه مستغربا وهو يقول : « اخسأ يا غلام .. ألا تعلم من أنا ؟ » ..

فلم يجب ، ولكن الزهراء أجابت : « أنا أعرف من انت ولا يغرنك انه كان خادما لك .. فقد كان عينا لى عندك خوفا من أن

ينال مثل هذا الطيش شعرة من مولاى الناصر »

فلم يتمالك الناصر أن صاح وهو بالشرفة : « لله درك يا زهراء .. »

فعرفت الزهراء صوت الخليفة ، وكانت قد وثقت من القبض على عبد الله فانسلت واختفت ، أما عبد الله فانه أسقط فى يده وجمد الدم فى عروقه ، ولم يعد ينفعه الندم .. فساقه ساهر الى سجن خاص وأغلقه عليه

- ٦٣ -

المشورة

أما الناصر فنهض ومشى وياسر بين يديه ، وقد تولته الدهشة وظهر الفشل واليأس فى وجهه ، ولم ينبس بكلمة . وظل الناصر ماشيا حتى دخل غرفته وقد أعدوا له المائدة ، فذهب اليها فأكل وهو لايتكلم لعظم ما قام فى نفسه من الأمر الخطير ، وقد جاءه الخبر بغتة فلم يدر كيف يتصرف . وكان على موعد من لقاء سعيد بعد أن أرسله الى الزهراء بالأمس يستطلع سر اجتماعها بعبد الله ، فخطر له أن يستقدمه ليمتحن معرفته ويستشيره فى الأمر لأنه أصبح شديد الثقة به

أما سعيد فكان فى غرفته فى ذلك المساء ينتظر رجوع الناصر،

فعلم من حركة أهل القصر انه جاء فلبث ينتظر وصـــوله ، وبعد ساعة أتاه ياسر وقد امتقع لونه من الدهشة والفشل وقص عليه ما كان ، وهو يأسف لأن مهمته ضـد الزهراء لم تنجح ، وكان يحسب أن سعيدا يشـاركه فى الأسف أو يشير عليه بشىء .. فتظاهر سعيد بمشاركته فى ذلك .. ولكن الرعب وقع فى قلبه مخافة أن يصرح الأمير عبـد الله بخبره فيذهب سـعيه أدراج الرياح ، ويصبح مهددا بالقتل ، فأشار على ياسر أن يذهب ويكتم ما دار بينهما ، فمضى وبقى سعيد وحده وأخذ يفكر .. وقد غلب عليه القلق والخوف ..

وبينما هو فى ذلك اذ جاءه غلام النـاصر يدعوه اليه حالا ، فخفق قلبه خوفا لئلا يكون الناصر قد اطلع على شىء من سره ، ولكنه تجلد ووضع كتاب التنجيم فى جيبه ومشى بقدم ثابتة حتى دخل على الناصر فرآه فى فراشه ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما وهو يتظاهر بالهدوء والتكتم .. فوقف سعيد بين يديه متأدبا ينتظر أمره كالعادة ، فأشار اليه أن يجلس ، فجلس على البساط جاثيا وأطرق ، فقال له الناصر : « أظن انك استبطأتنى؟ »

قال سعيد : « نعم .. وقد كنت أنتظر رجوع مولاى بفارغ الصبر » ..

قال الناصر : « ولماذا ؟ »

قال سعيد : « لأتبرك برؤيته ، ولأنقل اليه نتيجة المهمة التى

عهد بها الىّ »

قال الناصر : « أظنك تعنى خبر الزهراء وما دار بينها وبين ولدنا عبد الله .. »

قال سعيد : « نعم يامولاى »

قال عبد الله : « ما الذى دلك عليه علمك ؟ »

قال وهو يبتسم : « لم أجد الا كل ما يحسن بالجارية الأمينة المحبة » ..

قال الناصر : « هذا لايكفى ان كنت تعرف التنجيم ، قل ما هو الحديث الذى دار بينهما ؟ »

فأطرق سعيد وأخذ يقلّب الكتاب بين يديه وينظر الى الناصر خلسة ، والناصر متكىء على جنبه الأيسر ، وخـده على كفه اليسرى ، وهو يراقب حركات سعيد .. فلما رآه يتردد قال له : « ما بالك ؟.. قل الذى رأيته .. »

فأظهر سعيد انه يخشى التصريح ، فقال الناصر : « قل كل ما سمعته .. لابأس عليك »

قال سعيد : « سمعت شيئا لا أجسر على التفوه به ، وأكاد أكذب تنجيمى ولا أصدقه لغرابته »

فضحك الناصر وهو يعتدل فى مجلسه وقال : « لا تكذب تنجيمك بل كذب ظنك بالناس خيرا .. ألم تقل لى مرة ان الأذى يأتينى من أقرب الناس الىّ ؟ »

قال سعيد : « يظهر ان مولاى الخليفة قد اطلع على السر من سواى » ..

قال الناصر : « نعم .. قل قولا صريحا ، ولا تبال »

قال سعيد وهو يظهر الاهتمام : « أما وقد اطلع مولاى على ذلك الأمر الفظيع ، فلا أكتمه ما ظهر لى من الأسرار المتعلقة به..»

قال الناصر : « قل ، ارشدنى .. انى مضطرب البال من التعب وليس من الخوف »

قال سعيد : « يحق لمولاى أن يعتب على ابنه اذا أراد الغدر به » ..

فلما رآه كشف السر بالتنجيم حسب اعتقاده عظم سعيد فى عينيه ، وعزم على استشارته والعمل برأيه فقال : « قل ما يدلك عليه علمك ولا تحاذر »

قال سعيد : « دلنى علمى على ان الزهراء ــ حفظها الله ــ قد اجتمعت بالأمير عبدالله لترده عن جريمة كان يحاول ارتكابها ضد أمير المؤمنين »

قال الناصر : « صدقت .. وما العمل الآن ؟ .. قل .. انى عامل برأيك » ..

فانشرح صدر سعيد لهذا النجاح وعـوّل على قطع السبل المؤدية الى كشف سّره هو .. فأعاد النظر الى كتاب التنجيم ورمى البخور فى النار ، ثم أطرق يفـكر ، والناصر ينتظر فراغه من

التعزيم والتبخير ، ورأى عينيه تحمران وتدمعان وقد تبدلت سحنته . وأخيرا وضع الكتاب من يده وأشار بيديه معا اشارة القبض وقال : « اقبض عليه حالا .. اقبض عليه وعلى رفيقه فى منزله ، انه شريكه فى جرمه . واقبض على رجل ثالث كان معك الليلة .. فاذا قبضت على هؤلاء بادر الى الاعدام .. الى الاعدام فان بقاء واحد منهم يفضى الى الفتنة . والحازم من اجتث شجرة الشر من جذرها .. هذا هو رأيى بصراحة ، وقد نفضت يدى من خطر المستقبل ان لم يعمل أمير المؤمنين برأيى »

وكان الناصر يسمع كلام سعيد ويتفهمه جيدا ، وهو ينوى أن يعمل بكل حرف منه بعد أن تحقق من صدق تنجيمه وسداد رأيه مرارا ..

أما سعيد فلما فرغ من كلامه ، أظهر انه تعب وأخذ يرتعش كأنه أصيب بالبرداء فقال له الناصر : « ما بالك ياحكيم ؟ »

قال سعيد : « انى أخاف أن يتأخر مولاى وتأخذه الشفقة فيذهب بالدولة الى الخراب .. يقبض الآن على فقيه الأمير عبد الله الذى يئس من منصب القضاء فنقم على الخليفة ، ولا دخل للبرئ فى شىء منه سوى اسمه .. ويقبض أيضا على رفيق أمير المؤمنين الليلة فانه شريك فى الأمر ، واذا سأل أمير المؤمنين نفسه يعلم ان هذا الأخير من أكبر الأعداء مع انه من أقرب المقربين .. ويفعل ذلك سريعا وفى الخفاء ، فان لم يفعل فانى أول من يموت » ..

فحمل الناصر منه هذا التعبير محمل الغيرة الشديدة على الدولة وخاف مما خوّفه منه ، وخصوصا لأن كلام سعيد عن كل من الثلاثة وافق ما فى نفسه .. فأمر أحد غلمانه أن يقبض على ياسر حيثما كان ، ويزج به فى السجن ، وبعث آخرين الى قصر مروان للقبض على ابن عبد البر ، وحمله الى قصر الزهراء ..

- ٦٤ -

الانتقام السريع

وظل سعيد جالسا ينتظر أمر الناصر بالانصراف ، فلم يأمره فأظهر انه يبكى ، فقال له الناصر : « ما بالك ياحكيم ؟ »

ففرك سعيد عينيه وقال : « لاشيء ياسيدى »

قال الناصر : « لا ، بل أنت تبكى لأمر ما .. »

قال سعيد : « أبكى على الأمير عبد الله فانى كنت أحبه ، وقد خسرته ، ولكن أمير المؤمنين خير منه .. ألا يرجو سيدى توبته ؟ » ..

قال الناصر : « وكيف ترى أنت ؟ »

قال سعيد : « لا أرى دواء لهذا الأمر غير السيف ، واذا خفت من الحية فاقطع رأسها والا فأنت فى خطر منها .. انى أرى رأى عبد الملك بن مروان مع سعيد بن الأشدق ، وقد سار اليه

وصار من أعوانه بعد أن خرج عليه وحاربه ، أما عبد الملك فلم ير خيرا من قطع الرأس فدعا ابن الأشدق اليه وقتله ، فأمن الفتنة بعده . تلك سياسة بنى أمية فى الشام من معاوية فما بعده ، وكذلك فعل جدك عبد الرحمن الداخل وغيره من رجال الحزم والدهاء .. اذا خفت من جماعة فاقطع رؤوسهم . والذى يظهر من تنجيمى ان الأمير عبد الله يوشك أن يجعل نفسه رئيس عصابة ، ولكن .. »

قال الناصر : « يظهر انك تخشى أن يغلب علىَّ الحنان ، فاستبقى عبد الله .. كلا .. ثم كلا ، انى سمعت تهديده بأذنى ، وأما ابن عبد البر الضعيف الساقط فلا بد من قتله ، لأنه من جملة المحرضين ، وأما ياسر فقد تعبت من دسائسه وشكاياته وكأن الزهراء قتلت أباه ، فلا ينفك يشكو منها أو يعرض بها .. وقد تأكدت اليوم من تحامله عليها .. انى قاتل أولئك الثلاثة قبل أن يطلع النهار »

قال سعيد : « يعجبنى سداد رأى أمير المؤمنين .. تلك كانت سياسة الدهاة من أسلافك اذا خافوا من رجل قتلوه سرا فيأمنون غوغاء الأحزاب »

قال الناصر : « اذهب الى فراشك ونم مطمئنا .. وغدا تجد لوحا على باب القصر وقد كتب عليه ما فعلناه »

فنهض سعيد تأدبا وهو يقول : « نصر الله مولانا على أعدائه

وأيده بروح من عنده ، ولا شك عندى ان مبادرته الى القصاص على هذه الصورة توقع الرعب فى قلوب أولئك الأغرار الذين يتعرضون لبطشه ، واذا أمر مولانا أن يكتب على اللوح عبارة تهديد يشار بها الى سائر العصاة ، كان فيها رهبة لهم فيأمر أمير المؤمنين أن يكتب على ذلك اللوح : وهذا جزاء الخائنين وسيناله من حذا حذوهم وخصوصا صاحب النقمة »

قال : « أصبت .. بورك فيك » وتزحزح اشارة للانصراف فخرج سعيد وهو ينظر الى السماء ، وقد رفع يديه يدعو الخليفة بالنصر ، وذهب الى فراشه وهو يخشى أن يعدل عن قتل أولئك الثلاثة قبل أن يبوح واحد منهم بأمره

وأصبح أهل القصر فى الصباح التالى ، فرأوا على بابه الكبير لوحا قد كتب عليه ما معناه :

« قد أنفذ حكم الشريعة الغراء بالقتل على الأمير عبد الله بن أمير المؤمنين ، ومحمد بن عبد البر الفقيه ، وياسر الفتى رئيس خصيان القصر ، قصاصا على خيانتهم وخروجهم على أمير المؤمنين حامى حمى المسلمين ومؤيد الدين وعلى ولى عهده .. قتلوا خشية الفتنة ، وهذا جزاء الخائنين .. ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب .. فليعتبر بهم كل من سوّلت له نفسه الأمارة بالسوء أن ينبذ الطاعة ويخرج عن الجماعة ، وأولهم ذلك الخائن صاحب النقمة » ..

لم يطمئن سعيد حتى قرأ اللوح وتحقق من نجاته من الفضيحة

— ٦٥ —

الندم

أما الناصر ، فبعد خروج سعيد من عنده أمر بقتل الثلاثة (١) بدون أن يراهم .. وبعد قليل جاءه الجلاد يخبره بأنه قتلهم ، فأمر بكتابة اللوح .. وتذكر الزهراء وصدق مودتها ، وكان الليل قد مضى معظمه ، فلم يصبر على عدم رؤيتها .. فبعث يستقدمها اليه ليشكرها ويبشرها بأنه قتل الخائنين ، وكانت قد قامت فنهضت وأصلحت من شأنها وذهبت اليه وهى تعجب لتلك الدعوة المستعجلة

دخلت عليه فرأته جالسا على السرير وبين يديه لوح يقرؤه ويهز رأسه ، فلما دخلت وضع اللوح الى جانبه ورحب بها قائلا : « مرحبا بالحبيبة الصادقة »

فأكبت على يده تقبلها فقبّلها وأمرها أن تجلس الى جانبه ، فجلست مطرقة فقال لها : « قد أسأنا الظن بك وأنت بريئة من أسباب الريبة »

فقالت الزهراء : « انى جارية أمير المؤمنين .. وهو ولىّ

(١) نفح الطيب ٩٧٧ — الجزء السابع وابن خلدون ١٤٣ — الجزء الرابع

نعمتى أفديهَ بروحى ولا فضل لى »

قال الناصر : « بل لك الفضل ، فأنك أصدق مودة التَّى من ابنى .. ذلك الخائن .. لقد سمعت ما دار بينكما بأذنى .. لله درك من صديقة أمينة ، وتبا له من خائن مارق .. »

قالت الزهراء : « كيف عرف سيدى بوجود ابنه هنا وعهدى انك فى قرطبة ؟ »

قال سعيد : « دلنى عليه ياسر الخائن حال وصولى وقد أراد الايقاع بك ، فأخذنى الى الشرفة ورأيتكما تتحدثان .. فلما تحقق من براءتك من التهمة التى وجهها اليك خجل ، ولكنه نال جزاءه»

قالت الزهراء : « أما عبد الله فانى سأعود الى مخاطبته وأنا على ثقة من ندمه ورجوعه لأن فى فطـرته شيئا من طيب عنصر والده ، وانما خدعته أقوال المفسـدين كالفقيـه ابن عبد البر وأمثاله ، أما هو فانه طيب القلب شديد التدين كما لا يخفى على أمير المؤمنين »

وكان الناصر طروبا بحديثها لأنه كان يطرب لكل حركة من حركاتها ، فلما أثنت على عبد الله وقالت انها كانت ترجو صلاحه أحس بتسرعه فى قتله ، وشعر بالندم .. لكنه تذكر الخطر الذى كان يهدده لو لم يفعل ، فبادر الزهراء قائلا : « أنا لا أرجو صلاحا ممن يخون أباه وأخاه .. وعلى كل حال فقد قضى الأمر »

ورفع اللوح بيده ووجهه نحوها لتقرأه ، فما أتت على بعضه حتى

صاحت : « ويلاه قتلت عبد الله .. » ولطمت وجهها ونظرت الى عينى الناصر وتفرست فيهما كأنها تسـتوضحهما الأمر ، فرأت الشرر يكاد يتطاير منهما .. فأعادت قراءة اللوح حتى بلغت الى اسم صاحب النقمة فاقشعر بدنها ، لأنها تذكرت أخاها وانه سيقتل مثلهم .. فغلب عليها البكاء للسببين معا ، فظنها الناصر تبكى على عبد الله فقال : « ما بالك تبكين ؟ »

فقالت الزهراء : « أبكى على شباب عبد الله »

قال فى لهجة الغضب : « أتبكين الخائن وأنت أعلم النـاس بخيانته ؟ »

قالت الزهراء : « أو ليس هو بضعة من أمير المؤمنين ؟ فكيف لا أبكيه وقد كنت أعتقد أننى سأتمكن من ارجاعه عن خطئه »

قال الناصر : « أنت أمرت بالقبض عليه بعد أن يئست من صلاحه »

قالت الزهراء : « قبضت عليه ارهابا ، ولم يكن عندى ريب من ندمه فى الغد .. ولكن ويلاه .. هل قتل عبد الله فعلا ؟ »

قال الناصر : « نعم قتل .. وكذلك سيقتل أمثاله الخائنون .. فبعد أن يعلموا انى قتلت ابنى لهذه الخيانة فلا يلومون الا أنفسهم اذا وقعوا فى يدى .. فانى قاتلهم جميعا ، والقتل أنفى للقتل »

فتذكرت أخاها وما يكون من أمره اذا وقع فى قبضة الناصر ، فأحبت أن تستطلع رأى الخليفة فى العفو عن أمثاله فقالت : «واذا

رجعوا تائبين ؟ »

قال الناصر : « أقتل ابنى وأعفو عن سواه ؟ لا يقع فى يدى واحد من الخائنين الا قتلته أيا كان »

فوقع قوله فى نفسها وقعا شديدا لأنها تعرف شـدة الناصر وبطشه ، وزادت خوفا من ذكر اسم أخيها ، ورأت تأجيل طلب العفو الى فرصة أخرى .. وهى لا تعلم اذا كان أخوها يرضى بطلب العفو .. فرأت أن تقنعه أولا بالرجوع ، ثم تتوسط له فى العفو عنه

وبعد قليل أمر الخليفة بانصرافها ، وبعث اللوح لتعليقه بالباب وتوسد يطلب النوم .. فتذكر ما دار بينه وبين الزهراء ، وتمثلت له صورة ابنه عبد الله عند آخر نظرة ، فغلب عليه الحنان وأخذ الندم يتسرب الى قلبه شيئا فشيئا ، وهو يغالبه وينتحل الأسباب التى تسوغ السرعة فى القصاص تخلصا من الفتنة ، لكنه مع ذلك غلب عليه الأرق وتولاه القلق .. فلم يغمض له جفن وهو يتقلب كأنه نائم على الشوك

ولمـا طلع النهار أحس بضعف وانقبـاض ، فاستدعى طبيبه سليمان بن تاج ، فأتاه مسرعا فشكا اليه حاله . وكان سليمان قد قرأ اللوح المعلق بالباب ، فعلم سبب ذلك الانحراف فوصف له بعض المنعشات أو المبردات فى اصطلاحهم ، وقال : « لا يخفى على أمير المؤمنين سبب هذا الانحراف والعلة تزال بضـدها ، فيستحسن أن يلهو سيدى بما يشغله عن التفكير »

قال الناصر : « وكيف ذلك ؟ »

قال سليمان : « تأمر جارية مغنية تغنيك ألحانا مفرحة .. فان من الألحان ما يبعث على الحزن ، ومنهـا ما يبعث على الفرح وعرفت فيلسوفا من أبناء مهنتنا اخترع ألحانا تضحك ، وأخرى تبكى ، وألحانا تفرح أو تغضب لغير سبب موجب للضحك أو البكاء أو الفرح أو الغضب ، وانما يحدث ذلك من تأثير الألحان على النفس .. وأظن أن ذلك الفيلسوف قد مات الآن ، ولست أدرى اذا كان قد علم أحدا هذه الألحان »

فتذكر الناصر ان عابدة تحسنها ، فقال : « ان جاريتنا عابدة تعلمت هذه الألحان من معلمها سعيد الوراق .. »

فقال ابن تاج : « ان سعيدا هذا من عجائب الدنيا ، لايوجد شىء من العلوم لايعرفه ، حتى الموسيقى .. فاذا شاء مولاى أمر جاريته عابدة أن تجالسه فتسقيه هذه المرطبات ، وتغنّيه على انفراد .. فانى أرجو شفاءه عاجلا »

— ٦٦ —

الورقتان

فاستحسن الناصر هذا الرأى ، وأشار اليه أن يمضى لتحضير

العلاج وارساله ، وبعث أحد الغلمان الى سعيد فأتى ، فقصّ عليه ما أشار به الطبيب فأظهر موافقته على ذلك العلاج ، واستأذن فى الذهاب لاستقدامها .. وقلبه يكاد يطير من الفرح لسنوح هذه الفرصة ليتم بها غرضه

وكانت عابدة فى غرفتها وعندها بعض الجوارى يتحدثن بما هو مكتوب على ذلك اللوح .. وهن يستغربن تنفيذ القتل بهذه السرعة ، فلما رأت سعيدا قادما أسرعت اليه ، وقد زادت ضربات قلبها وعلت الحمرة وجنتيها وأبرقت أسرّتها ، فمشى هو أمامها الى غرفته ، فلما دخلت سلمت عليه فهش لها واستدناها فأجلسها الى جانبه ولاطفها ، ووضع ذراعه على كتفيها كأنه يضمها تحببا ، فأحست بقشعريرة لم تشعر بمثلها من قبل . فزاد تورد وجنتيها ولمعت عيناها وأطرقت خجلا ، وقلبها يخفق فرحا وهياما فقال لها : « قد آن الوقت ودنت الساعة ، وانما تتوقف سعادتك عليك »

فقالت عابدة : « تتوقف السعادة علىّ ؟ علىّ أنا ؟ انى رهينة ما تريد فى سبيل هذه السعادة » قالت ذلك بلهفة المحب المتفانى ..

قال سعيد : « نعم عليك .. أين الورقتان اللتان أودعتهما عندك ..؟ هل أنت محتفظة بهما ؟ »

فنظرت اليه نظر العاتب وهى تبتسم وقالت : « كيف لا أحتفظ بوديعتك .. بل كيف أقدر على أن أخالف لك أمرا » ومدت يدها

الى جيبها وأخرجت الورقتين فى صرّة ودفعتهما اليه

فتناول الصرّة وقال : « أتعلمين ما بداخل هذه الصرة ؟ »

قالت عابدة : « ورقتان »

قال سعيد : « وما فيهما ؟ »

قالت عابدة : « أحسب أن فيهما سما .. فهل هذا صحيح ؟ »

قال سعيد : « الصحيح لا أقوله لك الآن » وحدق فى عينيها فحوّلت بصرها عنه ، وأحست كأن سهما اخترق أحشاءها أو تيارا كهربائيا تسرّب فى عروقها ، فأطرقت وهى تنتفض

فأتم سعيد كلامه قائلا : « ان فى هذه الأوراق مخدرا ينام صاحبه نوما طويلا »

فقالت عابدة : « نعم »

قال سعيد : « فهمت ؟ ان فى هذه الأوراق منوما لا يقظة لنا بدونه »

فرفعت بصرها الى فمه ولم تجسر على أن تنظر فى عينيه وقالت : « لم أفهم ما تريد ياسيدى »

قال سعيد : « ألا تذكرين انى سألتك يوما ونحن فى الأرباض اذا كنت تتحملين خطر القتل من أجل الحب ؟ »

قالت عابدة : « نعم وأذكر انى قبلت أن أتحمل كل خطر .. وأنا الآن أعترف بذلك وأفتخر به »

قال سعيد : « اعلمى ان الخليفة يشكو من أرق وانقباض

وقد وصف له الطبيب من يسامره أو ينادمه بالغناء بألحان مطربة ، وذكر الألحان التى استنبطها الفارابى للضحك والطرب ، والخليفة يعرف انك تحسنين هذه الألحان ، فطلب الىّ أن أدعوك اليه وأفهمك ما يلزم .. فها أنا قلت لك » وسكت

فظلت ساكتة تنتظر تتمة الحديث ، فرأته قد شغل عنها بحك أنفه فقالت : « وما علاقة هذا بالخطر ؟ »

فنهض سعيد وقال : « لا علاقة بينهما .. صدقت ، دعى هذه الأوراق معى وقومى لمنادمة الخليفة .. فانى أخاف أن يستولى عليك الضعف »

قالت عابدة : « لا تخف من شىء ، فان أوامرك تبث فىّ قوة وشجاعة »

وكان يعلم ان أمره نافذ عندها ولو ضد ارادتها ، وقد اختبر ذلك مرارا .. فاذا أمرها وشدّد أمره ونظر فى عينيها وهى تنظر فى عينيه استهواها ، فتعمل ما تؤمر به حرفيا ، وهو ما يعبر عنه علماء اليوم بالتنويم المغناطيسى . ولم يكن تعليله معروفا فى ذلك العصر أو ربما عبروا عنه بالسحر . فلما قالت له ذلك أمسك يدها بين يديه وحدق فى عينيها ، وأمرها أن تنظر فى عينيه ففعلت ، فدفع اليها الورقتين وقال لها : « انى آمرك أن تسقى ما فى هذه الورقة للخليفة الناصر فى هذا اليوم »

فارتعشت وغُلِبت على أمرها ، وقالت : « سأفعل ذلك

ياسيدى » ..

قال سعيد : « اسمعى يا عابدة ضعى هذه الورقة فى جيبك واذهبى الآن الى الخليفة وهو فى غرفته على فراشه ومعك القانون والعود ، وغنيه واطربيه واسقيه من الشراب الذى وصفه الطبيب .. فهمت ؟ »

قالت عابدة : « نعم » وهى تحدق فى عينيه ويدها ترتعش بين يديه ..

قال سعيد : « فاذا سمعت أذان نصف الليل فاعمدى الى هذه الورقة فصبى ما فيها فى كأس الشراب ، وقدميها للخليفة . وبعد أن يتناولها ببضع دقائق يغلب عليه النوم ويبقى نائما الى الأبد » ..

قالت عابدة : « نعم .. وماذا أفعل بعد ذلك ؟ »

قال وهو يخرج الورقة الأخرى : « وبعد ذلك تأتين الى هذه الغرفة ، فاذا لم تجدينى فيها فانك تجدين قدحا فيه ماء .. فصبّى فيه هذه الورقة واشربيه فتنامين ريثما آتيك ، وقد أعددت كل ما يلزم للفرار الى مكاننا حيث نكون قد قمنا بما علينا .. وقد دبرت كل شىء »

فتناولت الورقتين وخبأتهما فى جيبها ولم يبد عليها اضطراب أو خوف .. لكنها قالت : « هل هذا آخر سعى لنا فى سبيل السعادة ؟ »

قال سعيد : « نعم .. امضى وانتبهى لأذان نصف الليل »

فنهضت وتناولت العود وسارت الى غرفة الخليفة وأخذت تغنّيه وتسقيه كما أوصاها الطبيب

— ٦٧ —

الفرار

أما سعيد فمكث بعد ذهاب عابدة مدة صامتا ، يفكر فى خطورة الأمر الذى كلفها به .. وكيف انها طاوعته بلا تردد فلم يبق عليه الا أن يفر بالزهراء ، وأراد أن يقتل الناصر مخافة أن يبعث فى طلبه بعد فراره بأحب جواريه اليه .. وأن يقتل عابدة ليبقى أمره خفيا ..

فذهب الى الزهراء فى غرفتها ، فقابله جوهر بالباب فسأله عنها فقال : « انها ما فتئت منذ علمت بمقتل الأمير عبد الله ورفيقيه وهى منقبضة النفس لا تكلم أحدا » فعلم سعيد أن سبب اضطرابها انها قرأت اسم أخيها على لوح الاعلان باعدام هؤلاء ، فقال : « استأذن لى فى مشاهدتها » فأجاب مطيعا ، وكانت قد علمت انه من رجال سعيد ، وقد أدخله فى بلاط الناصر جاسوسا ، فهو يتفانى فى خدمته ويحتفظ بسره

عاد جوهر وأشار الى سعيد بأن يدخل ، فدخل وهو يمشى

الهوينى كأنه يفكر فى شىء شغل خاطره ، فوجد الزهراء جالسة على وسادة وقد أسندت خدها بكفها واستغرقت فى التفكير ، فلما شعرت بدخوله رفعت رأسها اليه ، فتفرست فيه لحظة ثم عادت الى الاطراق

فتقدم سعيد نحوها وقال : « هل تحققت من صدقى ؟ » فلم تجبه ..

فقال سعيد : « ياحسناء قولى .. هل علمت انى قلت لك الصدق عن أخيك ، وأخلصت لك النصح فى كيفية انقاذه ؟ »

فرفعت بصرها اليه ، وقد تلألأ الدمع فى عينيها .. وبدت مظاهر العتاب والأسف على محياها ، وقالت : « آه ليتك لم تقل شيئا .. ولو اننى بقيت جاهلة أمر أخى لكان خيرا لى من أن أرتكب فى سبيل انقاذه خيانة سيدى وولى نعمتى »

قال سعيد : « أراك تزدادين حبا له ؟ »

قالت الزهراء : « كيف لا ولم أر منه شرا ، بل لم أسمع منه كلمة تسوءنى . وقد رفع منزلتى وقدمنى على سائر نسائه وبنى هذه القصور حبا فىَّ .. كيف لا أحبه ؟ بل كيف لا أعبده ؟.. هذه هى المحبة الخالصة و .. » وسكتت كأنها همت أن تقول شيئا وأمسكت نفسها حياء

ولم يفته انها كانت تشير الى محبته غير الخالصة فقال : « تعيريننى بمحبة الناصر ياحسناء ؟ لماذا لا يحبك وأنت تتفانين

فى خدمته ؟.. وأما القصور فقد بناها لنفسه وحاشيته . وأما المحب الصادق فهو الذى يرى نفورك ويأبى السعادة بعيدا عنك ، يرفض الملك ويحترف التنجيم والتعليم للوصول اليك ، يعرض حياته للخطر من أجل حبك .. هذه هى المحبة الخالصة وهذا هو المحب الصادق . دعينا من هذا الآن وقولى هل أنت عازمة على انقاذ أخيك أم لا ؟.. وقد عرفت اليوم بنفسك مقدار غضب الناصر عليه »

فأجفلت وقالت فى ذلة وانكسار : « نعم عرفت »

قال سعيد : « اذا كانت نجاته لا تهمك ، فذلك أمر آخر »

قالت الزهراء : « أنت تعلم ان نجاته تهمنى كثيرا ، ولكن الطريق وعر »

قال سعيد : « ولابد دون الشهد من ابر النحل .. ومع ذلك فانى لا أرى مشقة عليك فى الخروج من هذا القصر ليلة واحدة وتعودين فى الصباح وأخوك معك ، وتستعطفين الناصر عليه ثم تستقدمينه كما تشائين .. اذا كنت عازمة على الخروج معى فقولى والا فأنا ذاهب » قال ذلك وأظهر انه يريد الخروج فابتدرته قائلة : « وتهددنى أيضا .. أهكذا تكون الأريحية ؟.. ألأنى فى حاجة الى خدمتك تنتهرنى .. ؟ » واغرورقت عيناها بالدموع

فجثا بين يديها وتظاهر بالتأثر من قولها وقال : « حاشا لله أن أهددك فانى انما ألتمس رضاك وأبذل حياتى فى سبيل حبك ..

أنت صاحبة الأمر قولى .. قولى وأنا أفعل ما تريدين حتى الموت وأنا مستعد لاستقباله باسمك .. آه لو كان لك قلب مثل قلبى فتدركين مقدار حبى لك ، ولكنك قاسية القلب .. وطالما وصفتك بهذا الوصف »

فتنهدت تنهدا عميقا وقالت : « سامحك الله على هذه التهمة ، انى أكاد أكون مجبولة بالحب .. واذا أحببت فالى حد لايتصوره العقل .. ولك من حديثى بالأمس عن قتيل النهار أحسن مثال !»

فقطع حديثها قائلا : « يظهر انك لم تبغضى أحدا سواى ؟ »

قالت الزهراء : « أعترف لك ياسيدى انى لم أحبك ، ولكن اذا صدقت الخدمة فى انقاذ أخى فانى أحبك ولو على سبيل الشكر » ..

فنظر اليها شذرا وقال : « أقول انى ميت فى حبك ، وقد ركبت كل مركب خشن فى سبيلك ، وأنت تشترطين فى حبى ألف شرط ؟.. آه ، انك ترغميننى على أن أبوح لك بذنب ارتكبته فى هذا النهار من أجل حبك »

قالت الزهراء « وما هو ؟ »

قال سعيد : « أنت تعلمين حبى للأمير عبد الله وقد كنت عنده معززا مكرما ، ولكننى أعلم انه يعرف مقر أخيك .. وقد خشيت اذا استجوبه الخليفة أن يدله عليه فيقتله ، فأشرت على الناصر بأن يبادر الى قتل عبد الله وقتل رفيقه دون مواجهتهم ، وقد فعل ..

ألا تعدين ذلك فضلا لى ؟ »

فانطلت حيلته عليها وصدقته وقالت : « صدقت »

قال سعيد : « وتقولين انك ربما تحبينني اذا أنقذت أخاك ؟»

قالت الزهراء : « أتريد أن أخدعك ؟.. هـذا ما أشعر به وسنرى ! »

قال سعيد : « لا أفعل شيئا لايرضيك وسترين .. وأنا راض بتأجيل الحب حتى تتأكدى من خدماتى .. فقولى الآن هل تذهبين ؟ »

قالت الزهراء : « الى أين ؟.. ومتى ؟ »

قال سعيد : « تذهبين معى الليلة الى أرباض قرطبة حيث تلاقين أخاك كما قلت لك »

فرفعت نظرها اليه وقالت : « كيف أذهب ؟ »

فحدق فى عينيها تحديقا شديدا وقال : « تذهبين متنكرة على بغلة بثياب صاحب البريد ومعك جوهر الخادم ، وأنا ألاقيك خارج هذا القصر ونذهب معا ، وسترين انى صديق صادق ، قولى : نعم .. قولى .. لا تخافى ، فما فاز باللذات غير الجسور! »

فأحست بضعف الارادة ، فنهضت وهى تتنهد وكأنها تتأهب للخروج وقالت : « متى أخرج ؟ »

قال سعيد : « اخرجى بعد الغروب .. وفى ركابك جوهر »

قالت الزهراء : « وبعدئذ ؟ »

قال سعيد : « وبعد ذلك أخرج أنا من باب آخر ، ونلتقى معا خارج هذه القصور فى الطريق المؤدى الى قرطبة ، ثم نذهب معا الى أخيك »

قالت الزهراء : « هل أنت واثق انى أجده هناك ؟ »

قال سعيد : « نعم .. »

قالت الزهراء : « هذا آخر اجتماع لنا هنا ؟ »

قال سعيد : « لا حاجة الى اجتماع بعده فقد تم الاتفاق بيننا ، اخرجى انت مع جوهر .. ألا تثقين بأمانته ؟ »

قالت الزهراء : « نعم »

قال سعيد : « اخبريه بعزمك على الخروج الليلة لمشاهدة أمر يهمك ، وانك لا تحبين أن يعلم أهل القصر بخروجك .. وقولى له انك سوف تتنكرين فى ثوب صاحب البريد ، فان صاحب البريد لايسأل عن خروجه ودخوله وخصوصا اذا كان معه أحد غلمان الزهراء ، واطلبى اليه أن يهيىء لك الثياب والبغلة »

فوقفت هنيهة وهى مطرقة تعمل فكرها كأنها تتردد ، فخشى أن تعدل عن عزمها فقال : « اذا كنت تخافين من الخروج ، فلست أهلا لانقاذ أخيك »

فلما ذَكَر أخاها عادت اليها جسارتها وقالت : « نعم أذهب . وسنلتقى بعد العشاء فى الموقف الثانى فى الطريق بين الزهراء وقرطبة » ..

فقال سعيد : « بارك الله فيك وأنا ذاهب لنلتقى هناك » وخرج ..

– ٦٨ –

الأرباض

وكان حراس باب القصر فى ذلك المساء جلوسا ، يتحدثون بما علموه من مقتل الأمير عبد الله وابن عبد البر وياسر ، ويستغربون وقوعه ، وقد أتتهم الأوامر المشددة بالاتتباه الى من يدخل القصر أو يخرج منه .. وبينما هم فى ذلك ، اذ سمعوا قعقعة لجام البريد ثم رأوا البغلة وعليها راكب بثياب صاحب البريد وقد تلثم . والى جانبه جوهر على بغلة ، فهمّ الحراس أن يعترضوا طريقهما .. فقال لهم جوهر : « هذا بريد مولاتنا الزهراء » ففتحوا لهما الباب .. فخرجا ..

فلما صارت الزهراء خارج القصر منفردة غلبت عليها الوحشة والتفتت الى ما حولها ، فاذا هى وحدها فى صحراء رملية ، وكلما بعدت أحست بالظلام لأن أنوار تلك القصور كانت تؤنسها ، حتى اذا وصلت الى الموقف المعهود وقفت .. وأدار جوهر بغلته نحوها وسألها عما تحتاج اليه

فقالت الزهراء : « الى أين نحن ذاهبان ؟.. ما هذا ؟.. كيف

خرجت من قصرى وأنا فيه كالملكة المتسلطة حتى على الملك نفسه ؟ ! »

فقطع جوهر كلامها قائلا : « لا تزالين ياسيدتى صاحبة السيادة وفى غد تعودين الى قصرك ومعك أخوك ، وتخلصينا من انقباضاتك وعبساتك » ..

وكان جوهر خفيف الروح وهى تأنس اليه .. فأعجبها تعبيره ، فقالت : « هل ألاقى أخى ؟ ياحبذا ذلك »

قال جوهر : « لابد من لقائه .. والا فلماذا خرجت ؟ »

وهمّت بالجواب ، وعيناها شاخصتان الى منتهى الطريق ، تنتظر مجىء سعيد ، وبغلتها تتحرك تحتها .. فشغلها شبح ظهر عن بعد من ناحية القصر ، فأسرع جوهر ببغلته لملاقاته . ثم عاد مسرعا وبشّر الزهراء انه سعيد فلم تدر أتفرح أم تحزن ، لأنها كانت لا تحبه ، ولكنها لا ترى بدا منه أملا فى لقاء أخيها ، فظلت صامتة حتى وصل سعيد اليها فحيّاها .. وقال لها : « هل أنت مرتاحة ؟ »

فأجابت برأسها أن : « نعم »

فأومأ لها أن تسوق بغلتها بجانبه وساروا .. وكانت قد تعودت الركوب لأن الناصر كثيرا ما كان يصطحبها فى خروجه للصيد أو التنزه ، وركوب البغال سهل

ساروا برهة لا يتكلمون حتى أطلوا على الجسر المؤدى من

قرطبة الى أرباضها ، فوق الوادى الكبير ، فسمعوا دوى الطواحين . وكانت الزهراء لم تسمعها من عهد بعيد لأنها لم تمر على ذلك الجسر من عدة أعوام .. قطعوا الجسر وقد مضى هزيع من الليل فأشرفوا على الأرباض وهم سكوت . وكانت الزهراء كلما بعدت عن القصر خطوة اقتربت من الندم خطوتين ، فلما دخلت الأرباض ورأت ما هنالك من المنازل الحقيرة أحست بانقباض نفسها وقالت : « الى أين نحن ذاهبون ؟ »

قال سعيد : « الى سالم .. »

قالت الزهراء : « أرى أن سفرنا قد طال كثيرا ؟ »

قال سعيد : « لم يبق الا القليل »

وظلوا سائرين فرأت انهم تجاوزوا الأرباض ، فتصورت أن سعيدا يخدعها فأوقفت بغلتها وقالت : « أرانا خرجنا من حدود قرطبة ؟ »

قال سعيد : « نحن على مقربة من المكان .. لا تخافى » وبعد قليل أطلوا على الوادى الكبير ثانية حتى صاروا عند الشاطىء . وعرفوا ذلك من لمعان سطح الماء عن بعد وانعكاس أضواء النجوم عليه ..

ثم وصلوا الى بيت منفرد ، فترجل سعيد وترجل جوهر وأعان الزهراء على النزول فنزلت .. وأخذت قواها تنهار من الخوف ، وكادت تعتقد انها وقعت فى الفخ ، ولكنها تجلدت وأطاعت سعيدا

والتفتت الى ماحولها فاذا هى فى بساتين قليلة العمارة . وقد ساد السكون فى ذلك الليل ، فلم يكن يسمع فيه غير خرير ذلك الوادى .. ثم ما لبث أن رأت كلبا كبيرا يخرج من ذلك البيت وأخذ يحوم حول سعيد ويقفز عليه .. وهو سلام المعرفة عند الكلاب .. فعلمت الزهراء من ذلك انهم وصلوا الى المكان المقصود ، وصارت تتوقع أن ترى أخاها أو أحدا يأخذها اليه

— ٦٩ —

الخوف

وبعد أن ترجلوا تناول جوهر أرسان البغال ، وأخذ فى شدها الى بعض جذوع الشجر هناك ، وأشار سعيد الى الزهراء بأن تمشى معه ، فمشت وهى تحاذر أن يمسها ذلك الكلب بسوء ، وقلبها يخفق حذرا من الخديعة . أما سعيد فكان يلاطفها حتى دنت من البيت ، فتناول من جيبه مفتاحا فتح به الباب ودخل والظلام حالك فتراجعت وقالت : « لا أدخل فى الظلام » فأشار اليها أن تجلس ، فقالت : « أين أخى ؟ »

قال سعيد : « ليس هو هنا.. وانما أردت أن تستريحى هنيهة»

فأجفلت وقالت : « أستريح ؟ كنت أفضل أن نظل سائرين حتى نصل اليه ، فقد مضى معظم الليل وسيدركنا النهار .. وينبغى أن

تكون فى القصر فى صباح غد »

فضحك سـعيد ، وقال : « لا بأس .. سنكون هناك كما تقولين » قال ذلك وخرج

فالتفتت حولها فلم تزدد الا وحشة ، وأخذت تفكر فيما أتته من الطيش فى تسرعها .. ولكنها شعرت انها لم تكن مخيَّرة فى ذلك ، وأرادت أن تصيح وتستغيث ، فخشيت العاقبة .. فرجعت الى رشدها وأخذت تتجلد وتفكر .. فحدثتها نفسها أن تستغيث بجوهر لعله ينقذها ، فنهضت ومشت الى الباب فرأت سعيـدا واقفا الى جانبه يكلمه ، ثم أشار اليه فأسرع نحو الشاطىء .. وعاد سعيد نحو البيت والكلب يقفز حوله

فرجعت الزهراء الى مقعدها ، وأحست أنها وحيدة هناك .. وقد أصبحت فى قبضة سعيد ، فأخـذ قلبها فى الخفقان وجاش الحزن فى صدرها وأحست بالحاجة الى البكاء .. ولم تستطع أن تحبس دموعها فبكت .. ثم دخل سعيد ، فلما رآها تبكى ضحك وقال : « ما بالك تبكين ؟ »

قالت الزهراء : « أخشى أن تكون قد خدعتنى ؟ »

قال سعيد : « كيف أخدعك أو أريد بك سوءا وأنا انما أريد سعادتك ، وقد تركت الدنيا كلها من أجل لقائك ؟ »

قالت الزهراء : « أين نحن الآن ؟ أين أخى ؟ بالله أرنى اياه ثم لا أبالى بعد ذلك ما يصيبنى »



« فقالت الزهراء : بالله دعنى.. ارجعنى الى القصر ، لقد استغنيته عـن رؤية أخى او غيره ... ويلاه ما هـــذا! ! اين أنا ؟ . . . . » . .

قال سعيد : « تمهلى .. انك سترينه ، وتكونين فى أوج السعادة » ..

وبينما هما فى ذلك ، سمعا صفيرا فأجفلت الزهراء وجعلت تتلفت وهى مذعورة فقال لها سعيد : « لا تخافى »

فقالت الزهراء : « وما ذاك ؟ »

قال سعيد : « هذا ربان السفينة يخبرنا بوصولها »

قالت الزهراء : « وأية سفينة ؟ »

قال سعيد : « سفينة لنا فى هذا النهر ، سننتقل بها الى المكان الذى فيه أخوك .. وهو ليس بعيدا »

فصفقت وصاحت : « ويلاه .. الى أين تذهب بى ياسعيد ؟.. ألم تعاهدنى على الذهاب الى أخى ؟ »

قال سعيد : « نحن ذاهبون اليه عن طريق النهر ، وذلك أهون من السفر عن طريق البر » ..

فقالت الزهراء : « بالله دعنى .. ارجعنى الى القصر ، لقد استغنيت عن رؤية أخى أو غيره .. ويلاه ما هذا .. أين أنا ؟ » قالت ذلك وأطلقت لنفسها عنان البكاء

فتقدم سعيد اليها وأمسكها بيدها وقال : « لا تظنى سوءا ياحسناء ، نحن ذاهبون الى أخيك .. تعالى اخرجى انظرى الى السفينة ، فانها ستحملنا الى منزل تجدين فيه أخاك .. فتتحققين صدق قولى »

فجذبت يدها من يده وتراجعت ، ثم أعملت فكرها .. فرأت نفسها منفردة هناك وندمت ندما شديدا على مجيئها ، ولكنها لم تقطع الأمل من لقاء أخيها فتجلدت وأطاعت سعيدا فى الخروج الى السفينة ، فرأت الشراع منصوبا فدعاها للنزول ولم تجد فى السفينة أحدا من النوتية ، وما لبثت أن رأت السفينة تخترق عباب الماء .. وليس فيها أحد غيرها هى وسعيد وجوهر

— ٧٠ —

الفشل

فلنتركهم يخوضون الماء ونرجع الى عابدة عند الناصر وهى تسقيه المرطبات وتغنّيه وتنادمه .. قضت بقية ذلك النهار عنده وهو يتلهى بالحديث والشراب . فلما اقترب وقت العشاء كان الشراب والغناء والخلوة قد نبهت فيه ذكرى ابنه عبدالله ، فتصور ما كان من تسرعه فى قتله وكيف ان الزهراء قالت له : انه كان فى امكانها اقناعه واستبقاؤه حيا ، ولامته على تسرعه ، فأحس بشوق لرؤيتها ومحادثتها ، فبعث فى طلبها فلم يجدها فى غرفتها ، فألح فى البحث عنها فلم يقف لها أحد على خبر . فغضب وغلبت عليه الحدة فأمر برفع المائدة وأخرج عابدة وطلب الانفراد ليناجى نفسه فيما فعله ، هل أخطأ فى قتل ابنه أم كان يستحسن أن يستبقيه ..

فقضى بقية تلك الليلة فى أمثال هذه الهواجس ، لا يجسر أحد على مخاطبته ..

أما عابدة فكان اخراجها من حضرة الخليفة صدمة قوية بالنسبة للهدف الذى كانت تهيىء نفسها له .. وسارت توا الى غرفة سعيد فلم تجده هناك ، ولاحظت من حال الغرفة انه خرج منها خروج المسافر ، ومكثت على ذلك وهى تصبر نفسها لعله يأتى فمضى هزيع من الليل ولم يأت .. فخرجت تلتمسه عند الزهراء فوجدت مربيتها ، وكانت قد تعرفت اليها .. فسألتها : « هل رأيت سعيدا ؟ » فقالت : « لا هو ولا الزهراء »

فأجفلت عابدة للحال ودلها قلبها على مكيدة فقالت : « وكيف اتفق خروجهما معا ؟ »

فهزت كتفيها كأنها تتنصل من تبعة ما خطر ببالها ، فأدركت عابدة ان تلك الوصيفة تشك فى ذلك الأمر ، ثم شاع فى القصر خبر خروج الزهراء .. ولم تبق وصيفة ، ولا وصيف ، ولا خادم ، ولا خادمة الا عرف به ، وكلّف تمّام رئيس الخصيان بالبحث عنها فى سائر القصور فلم يقف لها على خبر

أما عابدة فانها عادت الى غرفة سعيد لتعيد النظر وتتفرس فى الأشياء ، فلم تزدد الا اعتقادا بفراره ، فانقبضت نفسها وتولاها اليأس ، فجلست على مقعد هناك .. وقد وهنت عزيمتها واسترخت كأنها أصيبت بغيبوبة ، واستغرقت فى الهواجس ، وأخذت تراجع

تاريخ حياتها مع سعيد وكيف كانت متيمة به ، وهو يعدها بأن يتزوجها ، وكيف جعل شرط الزواج فوز العبيديين على الأمويين ، واستخدمها فى كثير من الأحوال لتنفيذ أغراضه وآخرها دخولها قصر الزهراء على ما علمت ، وكيف أراد أن يستخدمها فى الفتك بالخليفة ، وكيف انها قبلت ذلك على أن تكون هذه المهمة آخر العقبات فى سبيل الظفر بما تريد ، ثم هو يفر من القصر بالزهراء . ولما تصورت فراره معها ، أجفلت وجلست على المقعد والظلام حالك ، فغلب عليها الانقباض وعمدت الى البكاء

وبينما هى مستغرقة فى البكاء اذ سمعت الآذان ، وعلمت انه آذان نصف الليل.. فتذكرت وصية سعيد أن تسقى الخليفة العقار وتشربه فى تلك الساعة فغلبت عليها الطاعة للاستهواء ، فنهضت وأخرجت الورقة من جيبها وعمدت الى الكأس وفيها الماء وصبت العقار فوقه وأخذت تتأمله وتقول : « هل الموت مختبىء فى هذا الماء ؟.. الموت ولا هذا العذاب .. ولكن لا .. لا .. ربما صدق سعيد فيأتينى بعد قليل .. كيف يأتى وقد فرّ بالزهراء ؟. لا .. لا أظنه يفعل بل هو يشفق على قلبى لأنه يعلم مقدار حبى له »

ثم وضعت الكأس من يدها وأسندت رأسها على الحائط ، فغلب عليها النعاس من فرط التعب .. فتوالت عليها الأحلام المزعجة ، ولم تستيقظ الا على آذان الصبح ، فنهضت مذعورة لصوت الآذان ورأت الكأس لايزال كما هو فتناولته ، وكان

الاستهواء قد ذهب تأثيره فانتبهت لنفسها ، وقالت : « أين ذهب سعيد ..؟ هل يعود ويشفق على قلبى ..؟ سامحك الله ، ما أقسى قلبك .. واذا لم ترجع فهل أبقى على قيد الحياة .. تبا للحياة بعدك .. الأفضل أن أموت .. ان الموت فى هذه الكأس »

ورفعت الكأس وتأملته ، وهمت أن تضعه على شفتيها .. فاذا بيد قد قبضت على ذراعها ، فوقع الكأس الى الأرض وانسكب ما فيه فأجفلت ، والتفتت فرأت ساهرا ينظر اليها بوجه عبوس ويقول لها : « أين معلمك ..؟ أين سعيد الوراق الخائن ؟ »

قالت عابدة : « لا أعلم أين هو .. انى أبحث عنه »

قال ساهر : « قبحه الله من خائن .. قد وشى بالأمير عبد الله والفقيه وعجّل بقتلهما ، وهو سبب خروجهما على الخليفة وأنت معه لأنك رفيقته »

فقالت عابدة : « أنا ؟.. أنا المسكينة الذليلة ؟ انه خاننى قبل الجميع .. »

وأطلقت لنفسها البكاء .. فرقّ ساهر لها وقال : « خانك أنت ؟ » ..

قالت عابدة : « قد عذبنى عدة أعوام وهو يعدنى بالزواج فأطعته الى هذه الساعة ، ثم ظهر لى انه فرّ .. ألم يفر ؟ »

قال ساهر : « يظهر انه فرّ والزهراء معه ، وقد علم الخليفة بذلك وبعث الىّ فأمرنى أن أبحث عنه ، فلما وجدتك هممت

بالقبض عليك لأنك رفيقته »

قالت عابدة : « ويلاه من ذلك الظالم الخائن .. آه لو ألقاه لقتلته بيدى .. قد كنت حتى هذه الليلة أتعشقه وأتفانى فى حبه ، أما الآن بعد أن تحققت من خيانته فليس فى الدنيا أبغض الىّ منه ، ولو استطعت أن أمتص دمه لفعلت .. » قالت ذلك وهى ترتعد وتصرّ على أسنانها ..

ومن نواميس الحب انه يزداد بالتبادل أو بالأمل ، فالمحب يزداد تعلقا بحبيبه اذا تحقق انه يحبه أو استدل من تصرفه أنه سيحبه فيحيا بالأمل .. فاذا علم بعد ذلك ان أمله فى غير موضعه وان ذلك الحبيب كان يخادعه تصيبه صدمة الفشل ، فينقلب حبه بغضا ويشتد غضبه بنسبة ذلك الحب .. وهذا ما حدث لعابدة حين تحققت من خيانة سعيد لها ، فانها نقمت عليه نقمة لا تقاس بها نقمة أعدى الأعداء

فقال لها ساهر : « انت طبعا تعرفين منزله ومخبآته فى قرطبة وأرباضها ؟ »

قالت عابدة : « أعرف .. نعم أعرف كثيرا من أحواله »

قال ساهر : « اتبعينى » ومشى نحو غرفة الخليفة فلقى تمّاما رئيس الخصيان ، فقال له : « ان هذه الجارية تعرف كثيرا من مخبآت ذلك الخائن لأنها كانت معه ، وقد خدعها وخانها ، وكاد يقتلها .. فهى تدلنا عليه اذا أمر الخليفة بفرقة ترافقنا ، فنذهب

الآن للبحث حالا » .

فدخل تمّام على الناصر ، وقصّ عليه ما قاله ساهر .. فأمر أن يرسلوا معه فرقة من الفرسان الأشداء ، ومعهم عابدة ترشدهم الى المكان .. فهيّأوا الأفراس وأعدوا لعابدة فرسا ركبت عليه ، وركب ساهر على فرس الى جانبها ، وقد أعجبه ما ظهر من أدبها . وكان قد استلطفها كثيرا منذ رآها فى قصر مروان منزل الأمير عبد الله ، وتولدت فيه حاسة الشفقة عليها بعد أن عرف حقيقة أمرها . وكان حسن السريرة مخلص الطوية شديد الحب ، مع انه خصى لايرجو من وراء الحب غير تعب القلب .. ولكنه كان قد أحب الزهراء الى درجة العشق ، وكان يكفيه من حبها ان تبتسم له وتظهر رضاها عنه .. وقد خدمها بالتجسس على عبد الله كما أوحت اليه ، ولذلك كان من أكثر الناس غضبا على سعيد لفراره بها ..

— ٧١ —

الفخ

أما سعيد فقد تركناه على ظهر السفينة ومعه الزهراء ، وقد تولاها الخوف وأوشكت أن تيأس من النجاة .. لكنها صبّرت نفسها لترى عاقبة الصبر ، وقد سارت السفينة بهم ساعة والريح

خفيفة ، وسعيد يحاول استرضاء الزهراء وهى لا تزداد الا اضطرابا .. تنتقل فى السفينة من جانب الى جانب ، وتتطلع الى الشاطىء والظلام يحجب الشاطئين عنها .. لولا ما تراه من بصيص الأنوار فى بعض الأماكن

وكان جوهر فى أثناء ذلك متشاغلا لايتكلم .. فرأت سعيدا يغافل جوهرا ويدور من ورائه وبيده كيس معلق بحبل قد حمله سعيد ، ومشى الهوينى وجوهر مشتغل بربط حبل الشراع الى السارية ، وقد وقف على حافة السفينة والظلام حالك والرجل فى غفلة ، فاستغربت الزهراء ذلك التلصص ولم تفقه له معنى .. على انها لم يطل نظرها فى الأمر حتى رأت سعيدا قد وثب على جوهر، فجعل ذلك الحبل حول عنقه ورفسه برجله فسقط فى الماء الى قاع النهر ، فصاحت الزهراء : « ويلك .. ماذا فعلت ؟ » ووقفت وركبتاها ترتجفان وهى تنظر الى الماء تتوقع أن يسبح جوهر ، فلم يفعل لأنه كان فى الكيس حجر هبط به الى القاع . فصاحت : «ماهذا ؟» فتجاهل سعيد ثم قال : « لعل جوهرا سقط فى الماء »

فقالت الزهراء : « تقول ذلك وأنت الذى أغرقته ؟ »

قال سعيد : « ما لنا وله .. دعينا وحدنا »

فأيقنت عند ذلك بوقوع الخطر ، فصاحت فيه : « ويلك ياخائن كيف قتلت الرجل وهو خادمك الأمين .. ما أسهل القتل عليك .. »

وكان سعيد قد قبض على الدفة وجعل يديرها نحو الشاطىء ، فلم يجبها حتى رست السفينة ، فنهض اليها وتناولها بيده وقال : « اطلعى الى البر»

فتراجعت وقالت : « الى أين ؟.. لا .. لا أطلع »

قال سعيد : « أتريدين البقاء فى السفينة ؟ »

قالت الزهراء : « بل ألقى بنفسى فى الماء .. الموت خير لى من رفقتك » واجتذبت يدها من يده ، وهمّت أن تلقى بنفسها فى النهر فمنعها وهو يقول : « ألا تريدين أن تلاقى أخاك ؟ قد وصلنا الى مكانه وتخلصنا من التعب .. »

فلما سمعت قوله عاد اليها أملها وأطاعته فنزلت الى البر ، وقد بان الفجر فالتفتت الى ما حولها ، فاذا هى فى بستان فى وسطه بيت كالذى كانت فيه منذ هنيهة ، ورأت البغال هناك أيضا ، ثم شاهدت الكلب الذى رأته بالأمس ، واذا بسعيد قد تناول المفتاح وفتح الباب ، وأشار اليها أن تدخل فتحققت انها فى البيت الذى كانت فيه منذ بضع ساعات ، وان سعيدا لم يركب السفينة الا ليغرق جوهرا فى الماء ، فأصبحت ترتعد من فظاعة ذلك العمل ، ولما دعاها للدخول أبت .. وقالت : « لا أدخل الا اذا قلت لى أين أخى ؟ » ..

قال سعيد : « يظهر أن أخاك وسائر رجالنا فروا من هذه الديار حين بلغهم مقتل الأمير عبد الله ، والغالب انهم رجعوا الى

القيروان حيث كان موعدنا من أول الأمر ، فقد اتفقنا على اننا اذا أحسسنا بالفشل ونحن فى أى مكان رجعنا الى القيروان .. فما علينا الآن الا أن نذهب الى هناك »

قالت الزهراء : « ألا تزال تخدعنى ؟.. لقد انكشفت لى خيانتك ، ولكن ويلاه بعد أن ضاعت حيلتى .. » قالت ذلك وجلست على الأرض وأخذت تبكى وتلطم وجهها

فأمسكها سعيد وأراد انهاضها وهو يقول لها : « لاتستسلمى الى الظنون .. ما أنا والله بخائن وانما محب عاشق .. اقلعى عن هذا الجنون وتعالى معى الى القيروان فتشاهدى أخاك ، وبعد ذلك اذا شئت رجعنا به الى قرطبة .. والا بقينا هناك فى أرغد عيش » ..

قالت الزهراء : « ألا تزال تذكر الحب والغرام وقد ظهرت خيانتك ؟ »

فأمسك بيدها وقال : « ادخلى الى البيت وافعلى ماشئت .. لا فائدة من بقائك هنا .. قومى ادخلى »

فأطاعته ونهضت حتى دخلت البيت وعرجت الى أقرب الغرف فوقفت الى الحائط وهى فى غاية الاضطراب

فجثا أمامها جثو المتضرع وقال : « آه ياحسناء والله انى أحبك أحبك .. وتحبك كل جارحة من جوارحى .. قد تعرضت للأخطار واقترفت الذنوب وأتيت الفظائع طمعا فى الوصول اليك ، فهل

يعقل انى أخونك ؟ سترين منى ما ينسيك هذا العذاب .. نعم انى أسأت الى كثيرين ولكننى فعلت ذلك فى سبيل حبك ، ارحمى متيّما لايطلب من الدنيا سواك .. » قال ذلك فى تذلل ويكاد الدمع يتناثر من عينيه وهو شاخص اليها

- ٧٢ -

اليأس

أما هى فكانت تسمع كلامه وهى مطرقة ، فلما فرغ من قوله دفعته بيدها وقالت : « أتعترف بجرائمك وذنوبك ثم تطلب الىّ أن أحبك ؟.. انى لا أحبك ولا أستطيع أن أحبك .. »

فتململ واعتدل فى مقعده وقال : « نحن هنا وحدنا وترينني أستعطفك وأتذلل لك فلا تستبدى بى واسمعى نصحى .. »

قالت الزهراء : « ان من يزعم انه محب لايكذب على حبيبته ولا يخونها »

قال سعيد : « انت حبيبتى .. ومتى خنتك ؟ »

قالت الزهراء : « ألم تأت بى الى هنا لمشاهدة أخى ، فأين هو ؟ » ..

قال سعيد : « قلت لك انه رجع الى القيروان ودعوتك للذهاب اليه فلم تقبلى »

قالت الزهراء : « هل يعقل فرارهم جميعا ؟ »

قال سعيد : « نعم .. هكذا اتفقنا ، انه متى شعرنا بالفشل ننتقل الى القيروان .. فلما سمعوا بمقتل عبد الله وابن عبد البر وياسر واطلاع الناس على أمرهم فروا .. وقد أخطأوا لأنهم لو انتظروا مجيئى الآن لعلموا ان عدوهم الأكبر قد مضى »

قالت الزهراء : « من تعنى ؟ »

قال سعيد : « أعنى أكبر عدو نخاف منه ونخشى بأسه »

قالت الزهراء : « لا أعرف أحدا تعنيه الا أن يكون الناصر »

قال سعيد : « هو أعنى »

فأجفلت وقالت : « ماذا تعنى بأنه مضى ؟ »

قال سعيد : « لا تعجبى .. أعنى انه مات »

فتراجعت وصاحت : « الناصر ! الناصر مات ! خسئت .. ان باعك أقصر من أن تناله »

فوقف وهو يهز كتفيه ويقول : « سواء صدقت أو لم تصدقى فقد قلت لك الواقع ، ومع ذلك فهو بعيد عنا ، ولا شىء يمنعنى مما أريده .. واذا بقيت على عنادك عمدت الى العنف »

فتفرست فى وجهه وقالت : « لك أن تقتلنى ، وتستطيع أن تقذف بى فى هذا الماء كما قذفت بذلك الخادم الأمين .. ولكن لايمكنك أن تحول بغضى الى حب ، وأنت قد ارتكبت ما ارتكبته

حسب قولك ، التماسا لحبى .. اننى لا أحبك .. لا أحبك .. فافعل ما تشاء ، اقتلنى »

فنظر اليها نظرة استغراب ، وقال : « أظنك لم تفهمى مرادى .. أنت اذا أقلعت عن هـذا العنـاد وأطعتنى فانك لا تلاقين أخاك فقط ، بل تعيشين عندى عيشة الملكة الآمرة الناهية »

قالت الزهراء : « فهمت كل ما تقوله .. ولكننى لا أستطيع أن أحبك .. أقول ذلك مع علمى بأن موتى وحياتى بين يديك فافهم ! .. » ..

فقال سعيد : « يالله .. ما هذه الوقاحة ؟ ! »

قالت الزهراء : « لا تكثر من الكلام .. ليس عندى غير ما قلته لك ، وان ما تزعم انك فعلته فى سبيل حبى لايزيدنى الا بغضا لك ، واذا خيّرت بينك وبين الموت لاخترت الموت .. ألا يكفيك هذا التصريح ؟ أقتل ثم أقتل ..» قالت ذلك وقد احمرت عيناها من البكاء والغضب ، وأخذت ترتعد وقد اصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف ، فجلست وقد خارت قواها وأسرع تنفسها وأوشكت أن تصاب بنوبة عصبية . ثم انقلب ذلك الغضب بغتة الى حزن ، فغلب عليها البكاء ، فأخذت تنـدب نفسها وتلطم خديها وتقول : « ويلاه يا زهراء .. أين أنت ياسيدى الناصر .. نصرك الله على أعدائك ، واذا علمت بموتى فاعلم انى مت على ولائك .. فانى محبة لأحبائك ، عدوة لأعدائك الى آخر نسمة من

حياتى .. آه .. آه .. تبا لك ياسعيد أو ياسليمان أو كما تسمى نفسك .. لقد ارتكبت آثاما كثيرة ، ألم يكن الأفضل لك أن تقتل نفسك وتخلّص الناس من شرك ؟.. من أجل هذا الحب الذى تزعمه ارتكبت هذه الآثام .. أنت تكلفنى أن أحبك ولا طاقة لى بذلك .. دعنى .. أو اقتلنى وليس لك مأرب ثالث » ولما فرغت من قولها كان قد أنهكها التعب ، وهى لم تنم طول الليل المـاضى فضلا عن الغضب والخوف ، فخارت قواها وهى لاتزال فى نوب صاحب البريد ..

أما سعيد فكان يسمع توبيخها وتعنيفها وهو صابر يرقب حركاتها وسكناتها ، ويتردد بين أن يبقى على المحاسنة أو يعاملها بالعنف ، فلما رآها استلقت منهوكة القوى وقد امتقع لونها وكاد يغمى عليها ، جلس أمامها ومد يده الى رأسها وقد اعتزم أن يمرّرها على جبينها لعله يؤثر عليها بكهربائيته أو مغناطيسيته . وحين لمست يده جبينها نهضت مذعورة كأنها وخزت بحربة ونفرت منه . فنهض وقد أخذه الغضب وجرى فى أثرها وهو يحاول أن يلف خصرها بذراعيه ، وهى تتحاشى أن يمسها فأفلتت منه ، وقد تدلى شعرها على كتفيها .. وهمّت أن تخرج من البيت الى البستان فسبقها وأغلق الباب فأصبحت سجينة ، ولكنها أحست بقوة لم تعهدها فى نفسها من قبل ، والتفتت الى سعيد وقالت : « أهذا ما تزعمه من حبك .. تثب علىّ كالوحش الكاسر ، والله انك

لن تأخذنى الا جثة هامدة »

فتراجع وقال : « كم توسلت اليك وتذللت لك فلم تقبلى .. وهل يليق بى ــ وأنا لايعجزنى قلب الممالك وتفريق الجنود ــ أن أعجز عن اخضاعك ؟ » ..

قالت الزهراء : « قلت لك ان كل ما فى وسعك أن تقتلنى .. هذا كل ما يمكنك أن تفعله معى ، والقتل لايهمنى .. اقتلنى كما قتلت سواى وعش هنيئا .. ماذا ينجيك من غضب أمير المؤمنين ، الى أين تفر من سيف نقمته ؟ »

فضحك ضحكة ضج لها المكان وقال : « قلت لك ان الناصر مضى الى حال سبيله »

فصاحت : « ان يدك أقصر من أن تناله »

قال سعيد : « يظهر انك لم تعرفى من أنا وسوف تعلمين .. »

ــ ٧٣ ــ

شد الوثاق

قال ذلك وأراد أن يتحول عنها ليتناول شيئا فى غرفة أخرى ، فسمع نباح الكلب ، وكان ينبح اذا استغرب قادما .. فأجفل سعيد وأنصت ، واذا بدبدبة خيول قد تعالت .. فتركته الزهراء مشتغلا بالانصات ، وفتحت الباب ووثبت الى الخارج فتعثرت بالعتبة ،

ووقعت . لكنها عادت فنهضت ، واذا بعشرات من الفرسان قد ملأوا البستان وفى مقدمتهم فارسان عرفت منهما ساهرا ، فصاحت : « ساهر .. ساهر .. لله درك .. عليكم بهذا الخائن ، أحيطوا بالمنزل واحذروا أن يفلت منكم »

فهرولوا بأفراسهم حول المنزل وجاء بعضهم من ناحية الباب ، فخرج اليهم سعيد وقد تبدلت سحنته وجحظت عيناه وقال لهم : « لا تزعجوا أنفسكم .. ها أنا بين أيديكم لا أحمل سيفا ولا سكينا ، ولا تخشوا فرارى » قال ذلك بهدوء وسكينة كأن شيئا لم يكن ..

فتقدم اليه ساهر وخلفه جماعة قد صوبوا سيوفهم الى سعيد ، وقال له ساهر : « تسمح لى أن أشد وثاقك ؟ »

فمد يديه وقال : « افعل »

فأخذوا يشدون وثاقه وهو ينظر الى ما بين يديه ، فرأى عابدة بينهم فقال : « عابدة .. وأنت أيضا ؟ »

فلم تجبه ، ولكنها تقدمت الى الزهراء وأخذت تخفف عنها ، فسألتها الزهراء عن الناصر فقالت : « هو بخير .. » فقالت عابدة : « ولكن كيف جئت مع هذا اللعين ؟ » ..

قالت الزهراء : « أتيت معه لأرى أحى »

قالت عابدة : « ومن أخوك ؟ »

قالت الزهراء : « يسمونه صاحب النقمة »

قالت عابدة : « صاحب النقمة أخوك ؟.. ألم تريه ؟ »

قالت الزهراء : « لم أجده .. هل تعرفين مكانه ؟ »

قالت عابدة : « نعم .. أعرفه »

فأشارت اليها أن تنتظر .. والتفتت الى ساهر ، وكان قد شد وثاق سعيد وسلّمه الى أربعة يحرسونه ، وجاء فى الحال الى الزهراء ووقف متأدبا وقال : « هل تأمر سيدتى بشىء ، انى عبدك المطيع »

قالت الزهراء : « بورك فيك من شهم ، لقد جئتنى بالفرج فى وقت الضيق .. جزاك الله خيرا »

فابتسم وقال : « ان هذه الكلمة من فمك تساوى عندى كل أموال العالم.. ولا تنسى أن لعابدة الفضل الأكبر لأنها دلّتنا على هذا المكان ، ولولاها لم نعمل شيئا .. »

فالتفتت الزهراء الى عابدة وضمتها الى صدرها وقالت : « لن أنسى فضلك ياعزيزتى .. ويزداد ذلك الفضل اذا استطعت أن تهدينى الى أخى »

قالت عابدة : « أنا أعرف مخبأه .. لكننى لا أستطيع أن أدعوه فانه لايصدقنى ، بل انه قد يفتك بى .. »

فقال ساهر : « أنا أسير اليه .. قولى أين هو مكانه .. »

قالت عابدة : « ولا أنت فانه يسىء الظن بكل رجال الناصر ، وكل أهل الأندلس ، وخصوصا الآن بعد ذيوع خبر مقتل الأمير

عبد الله .. »

قال ساهر : « ما الحيلة اذن ؟ »

قالت عابدة : « الحيلة أن نأخذ اليه كتابا أو علامة من سعيد فانه يأتى سريعا لأنه يحترمه احترام العبادة .. »

فصاحت الزهراء : « بالله أين هو ؟.. خذينى اليه »

فقال ساهر : « لا أظن أن سعيدا يعطينا كتابا أو علامة »

قالت عابدة : « أنا أكلمه .. دعونى أدخل اليه وحدى »

قالت ذلك ودخلت عليه وهو مشدود الوثاق فى احدى غرف ذلك البيت . وكان جالسا وقد قطب حاجبيه وأطرق كأنه يفكر ، وظهر الاهتمام فى عينيه .. فلما لمح ظلها رفع بصره اليها فلم يتمالك عن ارسال دمعتين ، فلما رأته يبكى خفق قلبها وتذكرت ما كان له من المنزلة الرفيعة فى نظرها ، وكيف قضت عدة سنوات وهى ترى السعادة فى رؤيته والموت والحياة بين شفتيه ، فتأثرت لمنظره وغلب عليها الحنان فقالت : « يسوءنى ياسيدى أن أراك فى هذه الحال .. وأنا الجانية عليك لأنى دللتهم على مكانك ، ولكنك أذهبت رشدى بأعمالك » ..

فقطع كلامها قائلا : « لا ذنب لك يا عابدة وانما الذنب ذنبى .. أنا لا أنسى ما سبّبته من ألوان الشقاء لك وكم عرّضت حياتك للخطر .. أعرف هذا كله ، ولذلك فلا لوم عليك مهما فعلت ، وسيسوقوننى الى الخليفة أو غيره وسيقتلنى طبعا .. وهذا كله

لايهمنى لأن الحياة لم تعد تحلو لى .. »

وسكت هنيهة ثم قال : « ماذا فعلت بالناصر ؟.. هل أصابه سوء ؟ » ..

قالت عابدة : « لا .. لأنى لم أستطع تنفيذ أمرك »

فتنهد تنهدا عميقا وقال : « الحمد لله .. أشعر الآن يا عابدة كأنى صحوت من نوم أو أفقت من اغماء .. فاذا كنت قد تعمدت نجاة الخليفة فان لك الشكر »

قالت عابدة : « الحق يقال انى لم أتعمد ذلك قط » وقصت عليه ما وقع باختصار ، ثم قالت : « لعل الخليفة اذا تأكد من رجوعك وتوبتك يعفو عنك ليستفيد من علمك ودهائك »

فهز رأسه هزة الانكار والاشمئزاز وقال : « لا .. لا أحب البقاء بعد الآن لأن نفسى لاترضى بأقل من منصب الملك أو الخلافة . أما وقد تعذر ذلك فالقبر أولى .. وقد خدعتك وخدعت سواك ، وفتكت وغدرت رغبة فى ذلك المطمع فأسقط فى يدى .. والآن هل أستطيع أن أخدمك فى شىء تريدينه »

قالت عابدة : « لا أريد شيئا .. سوى ان الزهراء .. وهذه قد لحقها منك عذاب شديد (فصرّ على أسنانه عند سماع اسمها) فاذا كنت تشعر بذلك ، فاكرمها بايصال أخيها اليها . وأنا أعرف مكانه ولكننى أعلم انه لايصدق سواك ولا يثق بغيرك . فأرسل اليه علامة منك أو كتابا كى يحضر الى هنا ، ومتى جاء كنت

وسيلة فى تعريفه الى أخته .. وهذه تكفّر عن كل سيئاتك معها..»

قال سعيد : « أفعل ذلك ... مدى يدك الى هذا الخاتم ، تناوليه من اصبعى ، واذهبى الى المنزل الذى تعرفينه واطلبى سالما ، ولا تسمه صاحب النقمة .. فمتى جاءك فاعطه هذا الخاتم واسأليه ماشئت »

فمدت يدها وأخرجت الخاتم من يده .. وأحست وهى تخرجه ببرودة أطرافه فتجاهلت

ولما أرادت الخروج ناداها فعادت ، فقال لها : « أنت تعلمين ان القوم الذين أغريناهم على الثورة لايزالون يجتمعون هناك ، وتعلمين ان الذنب فى ذلك ذنبى أنا ، فهؤلاء لاتزال الدولة تعدهم أعداءها ، فاذا عرفت مكانهم فربما فتك الجنود بهم ، فتزيدين ذنبا آخر الى ذنوبى .. لذلك ينبغى أن تذهبى أنت وحدك وتحتفظى بهذا السر ، وتأتينى بصاحب النقمة وحده وأنا أرشده الى الحقيقة ، وهذا المفتاح فى جيبى لتفتحى به الباب الخارجى ، وهو يعود فيحل تلك الجمعية ولا يعرف أحد بها ، ولا تجدين الآن منهم أحدا هناك كما تعلمين »

قالت : « حسنا » وأخرجت المفتاح ورجعت الى الزهراء وقالت لها : « هذه هى العلامة ، وسأذهب بها لآتيكم بسالم .. ومتى جاء فان سعيدا يتمم التعارف »

— ٧٤ —

صـاحب النقمة

تنكرت عابدة فى ملابس رجـل ، ومشت حتى دخلت ذلك الدهليز ، واتصلت منه الى الباب وطرقته الطرقة التى عرفتها ، فخرج اليها شاب ملثم الوجه وقال : « من الطارق ؟ »

فقالت عابدة : « افتح وخذ هذه الرسالة » ففتح كوة صغيرة فى الباب ، فمـدت الخاتم منها ، فلمـا رآه فتح الباب ودعاها للدخول وهو يحسبها رجلا فقالت : « ان صاحب هـذا الخاتم يدعوك اليه الآن .. انه على مقربة من هذا المكان »

قال صاحب النقمة : « هل هو فى ضيق ؟.. »

قالت عابدة : « لا .. ولكنه يحب أن يراك وحدك »

فدخل وغيّر ثيابه وخرج معهـا حتى تجاوز الدهليز ، وهو يتفرس فيها لأنه طرب لرخامة صوتها ، وشعر بأنها امرأة فقضى مسافة الطريق وهو يوجه اليها أسئلة ، ولو بغير باعث ليسـمع صوتها ، وكلما سمعه زاد استئناسا به .. وقد تذكر انه سمعه قبلا وطرق باب قلبه ..

وبعد قليل اقتربا من البستان فسمع صهيـل الأفراس ، وعلم انها أفراس صقالبة الناصر ، فوقف وقال لها : « أخشى أن يكون فى الأمر دسيسة يا رجل ، أو يا امرأة ! .. »

قالت عابدة : « كلا ياسيدى .. وسترى ذلك حال وصولك »

قال صاحب النقمة : « لا .. لن أخطو خطوة واحدة من هذا المكان قبل أن ترفعى عنك هذا القناع »

قالت عابدة : « أخشى أن تعرفنى » قالت ذلك ، وأزاحت اللثام فلما وقع نظره عليها عرفها فصاح : « عابدة !.. أين سعيد ؟.. ماذا أرى ؟ »

قالت عابدة : « لا تخف ياسالم .. أما وقد عرفتنى فلم يبق باعث على الحذر ، وعما قليل ترى سعيدا وهو يقص عليك خبرا جديدا » ..

وكان سالم قد خرج وعليه عباءة وتحتها السيف والخنجر ، وكان طويل القامة عظيم الهيبة جميل الخلقة ، يكاد الشرر يتطاير من عينيه ، لايهاب عشر رجال اذا لقيهم وحـده .. وقد تعود الضرب والطعن . فلما سمع قول عابدة وهو يعلم منزلتها عنـد سعيد ويعرف غيرتها على أحزابه .. مشى معها حتى وصلا الى باب البستان ، وكانت الزهراء قد اختبأت فى احدى الغرف ريثما يقابل أخوها سعيدا ويمهد السبيل للتعارف

فمشت عابدة بين يدى سالم فى البستان ، ومشى هو فى أثرها مشية البطل الباسل ، لايبالى بما هناك من الخيول حتى وصل الى باب البيت فسبقته عابدة الى سعيد وأنبأته بمجيئه ، وكلفته بأن يخاطبه ليستأنس به لئلا يشك فى الأمر ، فصاح من الداخل :

« سالم ! » ..

فلما سمع صوته وثب اليه وهو يقول : « لبيك ياسيدى» وما عتم أن رآه موثقا على تلك الصورة حتى صاح : «ماذا أرى ؟ » واستل سيفه وقال : « تفديك روحى .. من أوثقك ؟ »

فأجابه سعيد بهدوء وسكينة : « تمهل يابنى نحن فى حال آخر. أنا أوثقت نفسى .. وانما دعوتك لأعترف لك انى خدعتك »

فاستغرب سالم قوله وقال : « خدعتنى ! معاذ الله »

قال وهو يغص بريقه : « نعم خدعتك وخدعت آخرين ، مالنا ولذلك .. أحب أن أنصحك نصيحة الوالد ، اعلم يا سالم ان المشروع الذى قمنا من أجله قد فشل ، ولعلك عرفت ذلك من مقتل الأمير عبد الله ورفيقه لأنهم اتهموا بالانتماء الينا .. والصواب الآن هو الرجوع عن هذا الأمر .. »

فصاح : « نرجع عنه ؟.. أنا لا أرجع .. خصوصا بعد أن جاهر ذلك الخليفة برغبته فى القصاص منى ، فقد بلغنى انه كتب ذلك على اللوح الذى أعلن فيه تنفيذ حكم الاعدام »

قال سعيد : « نعم فعل .. ولكن لا فائدة من مقاومته ، وليس من الحكمة مقاومته عبثا ، فالرجوع الى الصواب أولى .. اخبر بذلك سائر الرفاق »

قال سالم : « لا حاجة الى اخبارهم ، فقد تفرقوا منذ أمس خوفا على أنفسهم ، بعد اطلاعهم على ذلك الخبر »

قال سعيد : « وأنت ؟ »

قال سالم : « كنت عازما على الثبات والمثابرة على السعى فى هذا السبيل عملا بما بثثته فىَّ من الانفة وطلب الحق.. ولكن..»

قال سعيد : « لقد قلت لك رأيى فى هذا الشأن .. »

قال سالم : « وأنت الى أين ذاهب بهذا الوثاق ؟ »

قال سعيد : « انى سأساق الى الخليفة ليحاكمنى »

قال سالم : « وكيف تقبل ذلك ؟.. دعنى أنجيك من الآن بحد هذا الحسام »

قال سعيد : « لا تفعل .. »

قال سالم : « اذهب معك للمحاكمة أو القتل .. ولا أتخلى عنك » ..

قال سعيد : « تأتى معى .. ولكن لتكون سعيدا صاحب القول الفصل والكلمة النافذة فى بلاط الخليفة »

فدهش لهذا القول ولم يفهمه فقال : « ماذا تعنى .. ان الناصر لايكاد بصره يقع علىَّ حتى يأمر بقتلى ، لأنى كنت أكثر أعدائه مجاهرة بعداوته »

قال سعيد : « نعم .. ولكن لك شفيعا لا ترد شفاعته »

قال سالم : « من هو ذلك الشفيع ان لم يكن أنت ؟ »

قال سعيد : « ألا تذكر أختك حسناء ؟ »

فقال سالم : « دعنى من ذكراها فقد مضت عدة أعوام لم

أذكر اسمها .. وان كانت صورتها لم تبرح ذهنى .. ما الذى بعث الى ذكراها الآن ؟ »

قال سعيد : « لأنها ستكون شفيعة لك عند الخليفة »

فصاح سالم قائلا : « أختى حسناء .. هل هى على قيد الحياة ؟ أين هى ؟.. أم أنت تعنى شيئا آخر .. »

قال سعيد : « أختك حسناء على قيد الحيـاة .. وهى الآن صاحبة المقام الأول عند الناصر »

— ٧٥ —

اللقاء

فأطرق سالم وهو يفكر فيما سمعه ولا يصدقه .. ثم رفع بصره الى سعيد وقال : « اصدقنى الخبر ياسيدى .. فقد فهمت منك مرارا انها ماتت »

قال سعيد : « نعم قلت لك هذا .. ولذلك أعترف لك الآن انى خدعتك ، فان أختك لا تزال على قيد الحياة ، وهى أقرب الناس الى الناصر »

قال سالم : « يا للعجب .. ماذا أسمع ؟ كيف غاب عنى هذا الأمر كل هذه الأعوام وأنا على مقربة منها ؟ »

قال سعيد : « لأنك لا تعرف اسمها الجديد ، فكما غيَّرت

اسمك من سالم الى صاحب النقمة غيَّرت هى اسمها من حسناء الى الزهراء »

فصرخ وقد دهش وقال : « الزهراء ؟ .. الزهراء حظية الناصر أختى .. ماذا تقول ؟ »

قال سعيد : « نعم ان الزهراء أختك وهى تتفانى فى حبك »

قال وقد جحظت عيناه : « هل تعلم هى بوجودى ؟ »

قال سـعيد : « كانت تحسبك ميتـا حتى أمس ، فأخبرتها بوجودك حيًّا .. فهربت من بيت الخليفة وأتت معى ليلا لتراك وتنصح لك بالرجوع الى طاعة الناصر »

فصاح وقد أخذته الدهشة : « أين هى ؟ »

قال سعيد : « هى قريبة منك » وأشار بعينيه الى ذلك المكان

قال سالم : « هى هنا الآن ؟ » وتلفت حوله

وكانت الزهراء — ساعة رجوع عابدة — مستلقية فى احدى غرف البيت للراحة من عناء ذلك الليل ، فدخلت عليهـا عابدة وحدها ، فنهضت وسألتها عن سالم فقالت : « انه سيأتى بعـد قليل ، فقد تركته فى بيته يتأهب للمجىء »

فقالت الزهراء : « اصدقينى .. أظنك لم تجديه أو لعله قد فرَّ أو مات ؟ قولى .. »

فقالت عابدة : « وحياتك هو حى .. وسيأتى بعد قليل »

فصدقتها وصبَّرت نفسها ، وهى كلما سمعت حركة أو صوتا

تحسب أخاها قادما ، وعابدة تشاغلها ريثما يفرغ سعيد من التعريف .. واذا بالزهراء نهضت فجأة وقالت : « أسمع صوت أخى .. هذا صوته يرن فى أذنى .. » وهرولت نحو الباب فمشت عابدة معها ، ولما دنت من الغرفة التى كان سعيد فيها سمعت كلاما فقالت : « أسمع سعيدا يتكلم .. مع من ؟ »

قالت عابدة : « ستعلمين بعد قليل »

قالت الزهراء : « أظنه يكلم أخى .. » واقتربت من الباب ، وكان مغلقا فسمعت أخاها يقول : « هى هنا الآن ؟ »

فعرفت صوته ففتحت الباب ، وكان هو يقول ذلك ويتلفت حوله ، فوقع بصره عليها وهى لا تزال بملابس صاحب البريد ، فلم يعرفها .. أما هى فوقفت لحظة تتعرَّف ملامحه وتتفرس فيه . وما عتمت أن ألقت بنفسها عليه وهى تصرخ : « أخى .. أخى سالم » ..

فلما سمع صوتها عرفها فضمها اليه وتعانقا ، وعابدة وسعيد ينظران اليهما نظر الاشفاق ، وسعيد كأنك أبدلته بسواه فقد تغير قلبه وتبدلت عواطفه ، وأحس بالجريمة التى كان قد أوشك أن يرتكبها ، لو لم تتداركه عابدة بالجند ويقبضوا عليه .. فانه كان عازما على الفتك بها وبأخيها اذا هى لم تبادله الحب والغرام. فلما رأى تعانقهما والدموع تتساقط من عينيهما فرحا بذلك اللقاء ، شعر بعظم الذنب الذى كان عازما على ارتكابه ، وأحس

بلذة الاحسان فى هذا اللقاء ، لأنه كان وسيلة التعارف بين الأخوين ، فجعل يتأمل حركاتهما .. فكانا يفترقان لحظة ريثما يتأمل أحدهما فى وجه صاحبه ثم يعودان الى العناق ..

أما عابدة ففرحت لأنها كانت الوسيلة فى انقاذ الزهراء وأخيها وسرَّها على الخصوص انها لم تقتل الخليفة ، ولا هو علم انها كانت عازمة على قتله ، وان لم يكن ذلك العزم من ذنبها

أما سالم فانه بعد أن قبَّل أخته مرارا تباعد ونظر الى ما حوله ، ثم نظر الى أخته وقال : « لا أزال أحسب انى فى حلم لأنى كثيرا ما ضممتك فى منامى وقبلتك مثل هذه القبلات ، ثم أستيقظ فلا أجد أحدا »

قالت الزهراء : « انت فى يقظة ياحبيبى ، وقد تمَّت سعادتى الآن بلقياك » ..

فقال سالم : « أليس الفضل فى هذا الاجتماع لصديقنا سعيد ؟ » ..

قالت الزهراء : « نعم له فضل .. » وتنهدت ، فصاح سعيد فيها : « أنا أولى بهذا التنهد ياحسناء » قال ذلك وهو مغلول اليدين فلم يستطع سالم مشاهدته على تلك الحالة فقال لأخته : « حلوا وثاق سعيد .. واذا كان له ذنب فهو لا يفر »

فاعترضه سعيد قائلا : « لا .. لا أريد أن يحل وثاقى .. » فحوَّلت الزهراء انتباهه الى عابدة وقالت : « ان الفضل

الأكبر فى هذا اللقاء حقيقة هو لهذه الأديبة اللطيفة.. هل تعرفها؟»
فهزّ رأسه مجيبا وقال : « نعم .. نعم أعرفها »
قالت الزهراء : « وهل عرفتها قبل الآن ؟ »
قال سالم : « عرفتها مع سعيـــد الوراق .. يا للعجب ماذا أرى ؟ أهذا سعيد صاحب الرأى الصائب والقول الفصل ..؟ ! »
أما عابدة فقد توسمت فى ملامح سالم وحركاته توددا اليها واعجابا بها فتحرك قلبهـــا .. وكانت أول مرة تحرك قلبها لغير سعيد ، فغضبت من نفسها خوفا من أن يسوقها ذلك الى بلاء جديد ، فأحبت أن تلهو عن ذلك بشىء آخر فقـــالت للزهراء : « هل نسيت ياسيدتى ساهرا ؟ »
قالت الزهراء : « لا أنسى فضله من وجوه كثيرة .. أما لقاء أخى فأنا مدينة به لك بنوع خاص .. »
ثم نادت ساهرا وكان فى طرف البستان مع سائر الخصيان ، فأتى ووقف متأدبا فقالت له : « هذا أخى صاحب النقمة »
فأجفل وصاح : « أخوك ؟.. وتقولين صاحب النقمة .. أليس هو مطلب أمير المؤمنين .. أعوذ بالله ، كيف يكون أخا لأعز الناس عنده ؟ » ..
فقالت الزهراء : «وسيكون من أعز الناس عنده لأنه أخى..»
فحنى رأسه موافقا وقال : « نعم سيكون .. والآن ياسيدتى ألا نعود الى القصر فان أهله فى قلق شديد لغيابك ؟ » قالت :

« نمضى حالا » ..
فخرج وأمر الصقالبة أن يتأهبوا للركوب ، وأن يأخذوا سعيدا معهم تحت حراسة شديدة .. وسار الجميع قاصدين القصر

– ٧٦ –

المحاكمة

أما القصر ، فكان أهله فى خوف لغياب الزهراء .. وقد علموا بذهاب ساهر والصقالبة للتفتيش عنها ، والخليفة أكثر الجميع قلقا وغضبا ، ولو أخذت الزهراء وهو فى ريب من اخلاصها لكان وقع المصيبـــة عليه أخف كثيرا .. أما بعد أن ظهر له من حبهـــا واخلاصها فى خدمته ما ظهر ، فضلا عن تعقلها ورويتها ، فأصبح شديد التعلق بها يفديها بأعز ما لديه
فقضى معظم ذلك النهار وهو قلِق لايرتاح له بال .. وكان يرسل الوصيف اثر الوصيف كى يراقبوا الطريق عن بعد.. وصعد هو على منارة من منائر جامع الزهراء ليشرف منها على الطريق المؤدى الى قرطبة فلم ير شيئا
وفى الأصيل جاء البشير برجوع ساهر والصقالبة ومعهم سعيد والزهراء وعابدة ورجل آخر لم يعرفوه .. فأمر أن يؤتى بهم الى بيت المنام فى قصر المؤنس ، وجلس لهم مجلسه يوم جاءته عابدة

وسعيد حيث البركة وعليها التماثيل الذهب وغيرها . فأدخلوا عليه أولا الزهراء وهى لا تزال بملابس صاحب البريد . فلما رآها دهش ، فكشفت له عن وجهها وأكبت على يده فقبّلتها ، فلما عرفها صاح بها : « ويلك .. ما هذا ؟ »

فقالت الزهراء : « هذا هو الثوب الذى تنكرت به ساعة الفرار » ..

فقطب حاجبيه وقال : « ساعة الفرار ؟.. لماذا تفرين ؟.. هل رأيت منى انكارا لحقك ؟ وأنت أعز الناس عندى لما تأكدته من صدق مودتك واخلاص طويتك .. كيف تفرين ؟ »

قالت الزهراء : « فررت الى أخ لى كنت قد فقدته ، ثم بلغنى انه موجود فى مكان بالأرباض فذهبت لأراه »

قال الناصر : « وما كان أجدر أن تطلبى احضاره فيجيئك ولو كان وراء سد يأجوج »

قالت الزهراء : « نعم أعلم ذلك .. ولكنى أخاف على أخى من أمير المؤمنين » ..

قال الناصر : « تخافين على أخيك منى ؟ »

قالت الزهراء : « نعم ياسيدى .. انما خوفى منك وحدك وليس من سواك ؟ »

قال الناصر : « هل الى هذا الحد تسيئين الظن بى ؟ هل أكافئك على صنيعك الجميل بأذى أخيك ؟ »

قالت الزهراء : « أيعدنى أمير المؤمنين اذا جاءه أخى وكان مذنبا أن يعفو عنه ؟ »

قال الناصر : « لك ذلك »

قالت الزهراء : « ولو كان ذنبه كبيرا ؟ »

قال الناصر : « ماذا عسى أن يكون ذنبه نحوى ؟ »

قالت الزهراء : « قد يكون من الخارجين على الدولة .. »

قال الناصر : « أعفو عنه اكراما لك ، ولو كان صاحب النقمة .. »

قالت الزهراء : « هو صاحب النقمة ياسيدى بعينه .. »

فاستغرب قولها وقال : « وكيف يكون صاحب النقمة أخاك ؟ » ..

فقصت عليه حديثها عن أخيها باختصار ، وما كان من أمر سعيد ، وكيف أحبها ولم تحبه ، وما فعله الى أن فرّ بها بالأمس ، وكيف أنقذها ساهر وعابدة

وكان الخليفة يسمع كلامها باستغراب ودهشة ، فلما فرغت منه انجلت أشياء كثيرة لم يكن يفهمها ، وتبين له أمور كثيرة تزيد ثقته بالزهراء فقال لها : « لقد عفونا عن أخيك .. أين هو ؟ »

فأمرت أحد الغلمان أن يدعو سالما ، فخرج وعاد به فدخل سالم ، وهو يمشى مشية الشجاع مع احترام ، فأعجب الناصر بما فى وجهه من دلائل البسالة والجمال ، فأشارت اليه الزهراء أن

يقبّل يد الناصر ففعل ، ووقف فقال له الناصر : « أنت صاحب النقمة ؟ قد بلغنا خبر خروجك علينا فى جملة الخارجين .. فما الذى رأيتموه من الناصر حتى خرجتم عليه ؟ »

فخافت الزهراء أن يقول أخوها كلمة تغضب الناصر فيعود الى الانتقام ..

فقالت الزهراء : « ألم يعف أمير المؤمنين عنه ؟ »

قال الناصر : « عفوت .. ولكننى لست أفهم ما يحمل هؤلاء على الخروج ، وكان الاسلام على وشك السقوط فأنهضته ، وكانت الدولة مبعثرة فجمعت شتاتها وقهرت أعداءها . ألم أرفع شأن الاسلام بعد أن كادت هيبته تذهب بما أتاه أصحاب بغداد من أسباب الضعف ، فأتانى ملوك النصارى يتزلفون ويتقربون ، وهادننى أكبر ملوك النصرانية وخطبوا مودتى .. أليس فى ذلك عز للاسلام والمسلمين ؟ من استطاع ذلك من الخلفاء قبلى ؟.. وأنتم مع ذلك تتآمرون وتتواطأون » وكان يقول ذلك وصوته يرتجف من الغضب حتى خافت الزهراء من غضبه .. ونظرت الى أخيها مخافة أن تبدو منه كلمة تبعث على هياج الناصر فسمعت من الخارج صوتا يقول : « لا ذنب لأحد من المتآمرين .. انما الذنب لواحد منهم »

— ٧٧ —

موقف هائل

فعرف الخليفة صوت سعيد ، فأمر بادخاله وهو موثق اليدين ، وليس على وجهه شىء من مظاهر الخوف ، وانما كانت عيناه حمراوين يكاد الشرر يتطاير منهما . فلما وقع نظر الخليفة عليه هاب منظره وأمر أن يحل وثاقه ، فتقدم بعض الحرس الى حله ، ووقف بضعة منهم الى جانبيه بالسيوف المسلولة ، وأشار بدخول سائر القادمين .. فدخلت عابدة ، فوقفت بجانب الزهراء ، ودخل ساهر ووقف متأدبا بجانب سالم ، فأمر الخليفة سعيدا أن يتقدم حتى يقف فى وسط القاعة ، فتقدم بقدم ثابتة وجأش رابط ، فقال له الناصر : « أنت سعيد الوراق صديقنا وموضع ثقتنا ؟ » فلم يجب ..

فقال الناصر : « أهذا جزاؤنا لأننا قربناك وأكرمناك وجعلناك مستشارنا ؟.. تحرضنا على قتل ولدنا لأنه خرج علينا وأنت السبب فى خروجه ، ثم تتجاسر على الفرار بجاريتنا الزهراء من قصرنا ؟ هل بعد ذلك من مسوغ للرفق بك ؟.. يسوءنى والله أن أخسر مشيرا عاقلا حكيما مثلك ، ولكن يا للعجب كيف ارتكبت هذه الفظائع ؟.. كيف جعلت لهذه الدنايا سبيلا اليك فاقترفت أمورا يتنزه عنها الجهلاء وأهل الطيش ، وأمورا يستحى أهل

الفجور من اتيان مثلها ؟.. أين كانت حكمتك ؟.. أين كان عقلك وسداد رأيك ؟ بل أين كان تدبيرك، وأنت تعلم ان فرارك بالزهراء لم يكن ليتم لك وعبد الرحمن حى فانه يملأ الأرض عليك خيلا ورجالا ويأتى بك صاغرا ذليلا .. واذا لم يكن لك شرف يعصمك عن ارتكاب الرذائل ويردعك عن خيانة من أكرمك وقدمك ، ألم يكن لك عقل يدلك على الخطر الذى يهددك من هذه الجرأة ؟ »

***

وكان سعيد واقفا يسمع كلام الناصر ، وقد وقف مستريحا ينظر الى بيت من الشعر مطرز على ستارة من ستائر تلك القاعة ، وسائر الحضور ينظرون اليه ، ينتظرون ما يعتذر به عن نفسه ، وكلهم يعرفون قوة حجته ورجاحة عقله ، ورغم ما أساء به اليهم كانت لا تزال منزلته رفيعة فى أعينهم

أما سعيد فلما سمع سؤال الناصر عن سبب جسارته ، وكيف يفر بجاريته ولا يخشى بأسه .. نظر اليه وقال : « أما سوء التدبير فلا أقبل أن أوصف به ، فان تدبيرى لو عرفه المولى لما وجد به عيبا.. ولكن القضاء قضى بفساد ذلك التدبير لأقف هذا الموقف»

فقال الناصر : « كأنك دبرت الوسيلة لقتلى أيضا ولم تنجح . فكيف خطر لك أن تفعل ذلك ونحن لم نقصّر فى اكرامك ، وما الذى كنت تتوقعه من اقتراف تلك الجريمة .. انها لم تكن لتغنيك بالمال ولا لترفع منزلتك ، بل قد تكون سببا فى الحط من شأنك حتى عند نفسك يوم يثوب اليك رشدك ، وترى انك قتلت

الأبرياء وأسأت الى من أحسن اليك .. »

***

فاعتدل سعيد فى موقفه ووجه خطابه الى الناصر باهتمام وجرأة وقال : « يعلم أمير المؤمنين انه لم يقل لى شيئا لا أعلمه ، وقد اعترف لى بسداد الرأى والحكمة والتعقل ، ولكنه يسألنى عما حملنى على مخالفة الصواب وتعريض نفسى لذلك الخطر.. لم يحملنى على ذلك يا أمير المؤمنين طمع فى مال فان الأموال كثيرة عندى ، ولا الحياة فانى لا أرى السعادة بها .. لقد ارتكبت كثيرا من الرذائل .. ارتكبت الخيانة والغدر والكذب وأنا أعلم جيدا انها رذائل وان مثلى يجب أن ينزه نفسه عنها . لم أرتكبها طمعا فى المال أو الجاه كما قلت ولكن...» ولما وصل الى هنا ، تغيَّرت سحنته وتشاغل ببلع ريقه والجميع سكوت ، وقد أمسكوا أنفاسهم تشوقا لسماع ما يعتذر به سعيد عن نفسه ، فلما سكت جعلوا ينظرون بعضهم الى بعض

أما سعيد فرفع كمه ومسح به دمعة انحدرت على خده ، واستدرك فقال : « لا يظن أمير المؤمنين انى أبكى جزعا من الموت انى لا أرى السعادة فى الحياة كما انى لا أراها فى الجاه ولا المال » ..

— ٧٨ —

الجسارة

فاستغرب الخليفة تعبيره وتشوق لتتمة حديثه فقال : « أنا أعلم انك لا تخاف الموت لأن أعمالك الماضيــة تدل على ذلك ، ولكنى سألتك عن سبب اقدامك على الخيانة ، وأنت أعقل من أن تأتيها عن جهل.. ونحو أمير المؤمنين أيضا .. ألم تخش بأسه ؟ »

فأجابه سعيد : « ان الرذيلة التى لا يجوز ارتكابها مع أمير المؤمنين لايجوز ارتكابها مع سائر الناس. واستأذن الامام الناصر بكلمة أقولها وأنا فى آخر يوم من أيام حياتى .. ان المنصب الذى يشغله أمير المؤمنين انما ساقته اليه المقادير وهو غير مخيَّر ، ولو وُجِد فيه سواه لبلغ الى مثله .. لا تغضب ياسيدى . لو لم تولد من بيت الخلافة وينصرك الناس على قتل الناس لم تبلغ هــذا المقام ، فأنت وصلت اليه على جسر من الجماجم فوق بحر من الدم .. وأى فخر فى ذلك ؟ فلما رفعوا مقامك وبايعوك وجعلوك خليفة بنيت القصور وأكثرت من الجوارى والخصيان ، وأمرت الناس أن يعظموك . وقد فعلوا وهم يحسبون أن لك فضــلا عليهم ، والفضل لهم فى صيانة دولتك والدفاع عن حياتك .. ثم أنت تنكر على أحدهم جزءا صغيرا مما تحوزه لنفسك .. ولا ذنب

لك فى ذلك فانها القاعدة التى جرى عليها الناس من قبل ، ولكنها ليست هى أسباب السعادة »

فامتعض النــاصر من تلك الجسارة ، لكنه تجلد وصبر عليه حلما وسعة وقال : « ربما كنت مصيبا لكنك لم تجبنا عما حملك على تعريض نفسك ، فضــلا عن ارتكاب الخيانة وغيرها من الرذائل ، وأنت الحكيم العاقل ؟ »

قال ســعيد : « لست أول حكيم عاقل ارتكب الرذائل فى سبيل مطلبه »

قال الناصر : « نعم ، ولكننا لم نفهم الغرض الذى حملك على ذلك .. »

قال سعيد : « ان الغرض الذى حملنى على هذه الرذائل من أشرف الأغراض ، بل هو أشرفها جميعا لأن عليه يتوقف عمران هذا الوجود بل هو سنّة من سنن الله فى خلقه ، وفضيلة من أكبر الفضائل .. وأما سواى فانه يرتكب الرذائل فى ســبيل أغراض تخالف سنّة الوجود ، وقد نهى عنها الشرع والعرف . كم من رجل ارتكب الغدر والفتك والقتــل التماسا لمنصب الملك أو الخلافة ، وهذا المنصب نفسه مشوب بأمثال هــذه الرذائل لأن طالب الملك متى ناله حلل لنفسه كل محرم ، وساعده الناس على التمادى فى الاثرة ، وصار يحسب أموال الرعايا وأنفسهم حقا له ، فيبنى القصور ويزخرفها بالذهب والفضة مما يجمعونه له من تعب

الفقراء ، ويقتنى الجوارى على اختلاف أنواعهن ، ويتحكم فى رقاب الناس وأموالهم كما يشاء ، ولا يرى لسواه حقا فى عشر معشار ذلك .. بل ويل لمن يجرؤ على الاعتراض .. ولو لم أكن على باب الآخرة لم أقل ذلك .. »

فدهش الجميع لهذه الجسارة مع ما فيها من الحكمة البالغة ، ولم يجسر أحـد قبله على مثل هـذا التصريح فى حضرة خليفة شديد البأس ، ولكنهم غضوا من أبصارهم تهيبا من الخليفة

أما الناصر فظل يظهر الاستخفاف بما يسمعه .. ولم يشأ أن يجعل نفسه المقصود من ذلك التعريض فقال : « صدقت .. ان كثيرين من طلاب الملك لم ينالوه الا بعد سفك الدماء ، وهؤلاء اخواننا العباسيون أكبر شاهد على ذلك ، وقدوتهم أبو مسلم الخراسانى الذى كان يقتل على التهمة . لكننى لا أزال أنتظر أن أسمع منك السبب الذى حملك أنت على ما فعلت ، ولم ألح عليك بالاستفهام الا لأستفيد من حكمتك ، فقد كنت ــ كما تعلم ــ كثير الثقة بعلمك والاعجاب بعقلك .. »

ــ ٧٩ ــ

الحب

فتنهد سعيد تنهدا عميقا وأجال بصره فى الحاضرين حتى وقع

على الزهراء ، وكانت شاخصة فيه ، وقد غطت رأسها بالنقاب ، وأخذ منها الاعجاب به كل مأخذ ، فلما رأته ينظر اليها حولت نظرها عنه.. أما هو فلما وقع نظره عليها ابتسم ابتسامة شفت عن معان كثيرة وتنهد ثانية وقال وهو يوجه كلامه الى الناصر : « ان السبب الذى حملنى على ما ارتكبته انما هو أشرف الأسباب ، بل هو الوسيلة الوحيدة لجمع شتات الناس وتأليف قلوبهم وحفظ أنواعهم ، وهو الذى أمر به الشرع وأوصى به الله ، وقد امتدحه الحكماء ، وتغزل به الشعراء ، بل هو أكبر الفضائل .. ان ذلك السبب ياسيدى هو « الحب » هذا هو الذى حملنى على ارتكاب ما ارتكبته . فهـل فى الحب عار وقـد جـاء ذكره فى القرآن والحديث ؟ أليس هو سبب نظام الكون ؟ »

فلما قال ذلك أجفلت الزهراء ، وأطرقت حياء لعلمها انه يشير الى حبه اياها ، ولم يخف غرضه على الناصر فقال له : « ولكن الله ينهى عن التعدى على نساء الآخرين »

قال سعيد : « نعم ياسيدى ، ولكن الحق الطبيعى فى الحب للمحب الأول خلافا لما هو جار فى أعمال الناس ، فان القوى يفوز بما يريد والضعيف يذهب حقه هباء »

فقال الناصر : « واذا كان الضعيف حكيما ، ألا تقضى عليه حكمته أن يخاف العقاب فيبتعد عن عرين الأسد ؟ »

قال سعيد : « نعم .. اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، ولكنه

غلب على أمره وتمكن الحب من قلبه حتى أعمى بصيرته ، وأصبح لايرى للحياة معنى بدون الاجتماع بحبيبه .. كما يعمى طالب الدنيا بزخرفها ، وكما يعمى طالب السيادة فلا يرى غير مطلبه ، وكما يعمى طالب الجاه فانه يقتل ويغدر ويخون فى سبيل الحصول عليه ، والسيادة ظلم واستبداد تخالف الحرية الطبيعية التى منحها الخالق لبنى الانسان . وأما الحب فانه شريعة طبيعية أمر الخالق بها ، وقال فى كتابه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فلا غرو اذا اعترض طلبه فتك أو قتل أو غدر وخصوصا اذا سبق المحب سواه الى ذلك الحبيب .. »

فلما سمعت الزهراء قوله ، خشيت أن يظن الخليفة انه كان بينها وبين سعيد محبة متبادلة قبل مجيئها اليه .. فاستأذنت فى الكلام فأذن لها فقالت : « ولكن شرط المحبة الصحيحة أن تكون متبادلة ، فاذا لم تكن كذلك بطلت فضيلتها وأصبح طلبها تعديا..»

فنظر سعيد اليها وهى تتكلم وقد ترنح لصوتها الرخيم ، فلما فرغت من الكلام ظل ساكتا ينظر اليها كأنه يتوقع أن تستأنف الحديث ، فلما واصلت الصمت قال : « ان الحب فضيلة مهما اعترضه أو تقلبت عليه الأحوال لأنه أساس العمران والمحبون هم الفضلاء ، ولولاهم لخلت الدنيا من الرحمة والاحسان . ولولا الحب ياحسناء لكانت الحياة كالصحراء القاحلة ماؤها أجاج

وهواؤها سموم ، وانما يجعل ماءها عذبا وسمومها نسيما الحب . آه من الحب » ولما قال ذلك شرق بريقه ثم أجهش بالبكاء ، والناصر ينظر اليه ويعجب .. وكان أول من شارك سعيدا بالبكاء عابدة فانها لم تستطع أن تغالب نفسها لما غلب على قلبها من الذكريات الماضية ، وكيف كانت متعلقة القلب بسعيد وهو يضحك منها ويتخذها أداة لتحقيق هدف آخر ، لكنها ظلت تشعر بالعطف عليه .. فلما رأته يبكى بكت ..

أما الزهراء فأجابت سعيدا قائلة : « ولكن اذا تأكد المحب أن حبيبه لا يحبه ، ولا يستطيع أن يحبه . ولا سبيل للوصول اليه .. أليس من الحكمة أن ينساه ؟ »

فتنهد سعيد وقال : « لى عقل يحل المشكلات ، ورأى يرد السيل الجارف ، وعزم يهد الجبال الراسيات ، وقد تغلبت على كل أنواع المشاق .. لم تعرض لى مشكلة الا حللتها ولا أردت أمرا الا استطعت تحقيقه .. الا الحب فانه غلبنى على أمرى وذهب بعزيمتى وقضى على عقلى وحكمتى .. »

فقالت : « فماذا يفعل المحب اذن ولا حيلة له الى حبيبه ؟ »

فمد سعيد يده الى جيبه وقال : « اذا تأكد يأسه من حبيبه فقد تأكد انه ميت .. اذ لا حياة للمحبين بغير الحب ، واذا عاشوا فحياتهم هى الشقاء بعينه ، فما عليهم الا الرحيل من هذه الدنيا » قال ذلك وأخرج ورقة ملفوفة ووجه كلامه الى الزهراء وقال :

« انى أموت فداء الحب » والتفت الى عابدة وقال : « سامحينى يا عابدة فقد ظلمتك كثيرا » ونظر الى الناصر فقال : « ليس لك عندى غير هذه الروح عقابا على جرائمى .. فخذها » والتقم ما فى تلك الورقة ..

— ٨٠ —

عابدة وسالم

فعلم الناصر انه تناول سما ، فصاح فيه : « ويلك أتقتل نفسك ؟ تمهل .. انى أحب بقاءك وأضن بحكيم مثلك أن يموت .. قد كنت أحب أن أستبقيك .. ماذا فعلت ؟ »

فقال : « تستبقينى لأخدمك وأموت حسرة .. وقد يئست من حبيبتى ؟ لا حياة لى الا بالزهراء » قال الناصر : « أهديك مئات من الجوارى أجمل منها .. »

قال سعيد : « الحب يا عبد الرحمن لا يستبدل ، ولولا ذلك لكانت هذه — وأشار الى عابدة — أولى الجميع بأن تكون بديلة ، ولكن قلبى لايرضى بأحد غير هذه — وأشار الى الزهراء — فانى أحس كأنها شطر من قلبى ولا يعيش الانسان بنصف قلبه .. فاهنأ بها ، انها جوهرة جمعت بين الصدق والاخلاص .. ولكن لك وحدك فقط .. »

فقال الناصر : « كيف تقتل نفسك بيدك ؟ »

فقال سعيد : « هذا أفضل من أن يقتلنى الجلاد »

فصاحت عابدة : « اذا كان هذا دواء المحب اذا يئس من حبيبه فما أجدرنى أن أقتل نفسى .. » وأخذت تبكى ، فأدركت الزهراء قصدها ، فاقتربت منها وأشارت اليها أن تسكت ..

أما سعيد فلم تمض لحظات حتى بدأ الألم فى بطنه ، واسترخى فأشار الناصر أن يحمل من ذلك المكان ، وقد شق عليه أمره لأنه كان يحبه ويحترمه ، ولو بقى حيا لاستخدمه فى بعض أموره

فحملوه وقد كاد يغمى عليه .. وبعد قليل مات فدفنوه ..

أما الناصر فبعد خروج سعيد تراجع واعتبر ، وزادت الزهراء رفعة عنده وازداد حبا لها ، والتفت اليها وابتسم فرآها تنظر الى الأرض كأنها تفكر فقال : « كل ذلك جرى لأجلك ؟.. »

قالت الزهراء : « انى حقيرة لا أستحق هذه العناية ، ولكن الرجل قصير العمر رحمه الله »

قال الناصر : « نعم .. انه دلنا على فضلك وصدق مودتك .. فأنت اليوم أرفع منزلة عندنا من قبل .. فاطلبى ما تشائين »

قالت الزهراء : « ان نِعَم مولاى متوالية على جاريته .. وقد تم حظى بعفوه عن أخى هذا .. وانما أشارك هذه المسكينة فى شعورها لأنها قاست العذاب فى أثناء مساعى ذلك الرجل الغريب ، وكانت تحبه وهو لا يحبها ، وهى تخدمه وهو يخادعها ،

فأحب أن تنال تعزية تنسيها ذلك »

فالتفت الناصر الىسالم وقال : « ياسالم .. هل أنت متزوج ؟»

قال سالم : « كلا ياسيدى »

قال الناصر : « أتتزوج عابدة ؟.. انها أديبة عاقلة »

فأشرق وجهه وحنى رأسه وقال : « ذلك حظ كبير لى .. وكيف لا أختار نصيبا اختاره لى أمير المؤمنين ؟ »

فأمر الناصر أن تزف عابدة الىسالم.. وأن يُخصَّص لهما قصر يعيشان فيه فى رغد وهناء

فقالت الزهراء : « وهذا ساهر يكون فى بطانة مولاى الناصر فانه أهل للمناصب الكبيرة »

قال : « جعلناه من خاصتنا ... ».

وانقضى المجلس على تلك الحال ...

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

العدد القادم

من روايات تاريخ الإسلام

فتاة القيروان

لجرجى زيدان

ترقبه أول نوفمبر ٨٤